



الأدب المثمن

أحمد عبد الله الدامغ

الجزء السادس



مركز سعود البابطين الخيري للتراث والثقافة
قسم الدراسات والبحوث والنشر
الرياض ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م



ح احمد عبدالله الدامغ، ١٤٢٤ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الدامغ ، احمد بن عبدالله
الادب المثمن / احمد بن عبدالله الدامغ - الرياض، ١٤٢٤ هـ
١٦ مج. ، ٣٣٦ ص ، ١٧ x ٢٤ سم
ردمك: ٥-٣٣١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٣-٣٣٢-١٠-٩٩٦٠ (ج ١)
١- الادب العربي - مجموعات أ- العنوان
ديوي ٨١٠،٨ ١٤٢٤/٢٧٧٣

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٢٧٧٣
ردمك: ٥-٣٣١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٣-٣٣٢-١٠-٩٩٦٠ (ج ١)

المملكة العربية السعودية ص.ب ٩٣٩٢٧ الرياض ١١٦٨٣ هاتف ٤٨٧٠٥١٣
فاكس ٤٨٧١٤٢٧/٣٦
الموقع على الأنترنت
www.albabtain-center.com
البريد الألكتروني:
E-mail: info@albabtain-center.com



بسم الله الرحمن الرحيم

تنويــــه

أيها القارئ الكريم: إنني أتوقع أنك قد كوّنت بعد قراءتك للأجزاء الخمسة التي تقدمت هذا الجزء عدداً من الملاحظات والاستدراكات التي أتوقع أن أجدها تقول لي: لماذا لم تضع هامشاً تذكر فيه أسماء المصادر والمراجع المهمة كعادة المؤلِّفين؟ والإجابة على هذا السؤال النقدي المتوقع هي قولي: إن هذا شيء خرجت به عما اعتاده المؤلفون المتأخرون، ورجعت فيه إلى طريقة المؤلفين القدامى الذين كانوا يذكرون أسماء المصادر في متون الموضوعات والفصول، ولهذا تجد أنني قد ذكرت كثيراً من أسماء المراجع والمصادر التي نقلت منها أو رويت عنها في متن الموضوع.

وقد وجدت هذه الطريقة موافقة لي في أسلوب تأليفي فانتهجتها، والله الهادي، وهو المستعان في كل أمر.

المؤلف
أحمد عبد الله الدامغ
ص.ب: ٤٠١٣٨ الرياض ١١٤٩٩





للشعر حالة إذا ترجمه شاعر!!

إن الشعر العالمي الرقيق الأسلوب والرفيع المستوى له عشاق من كل حدب وصوب. ولهذا فهو يفرض بذاتيته العظيمة وقيمته الأدبية السامية على من يفهم لغته أن يترجمه إلى من لا يفهم لغته حتى يدرك مستواه وقيمته.

ونحن عندما نلقي نظرة على ترجمة الشعر الإنجليزي أو الفرنسي أو أي شعر مكتوب بغير لغتنا العظيمة، لغة الجمال والاشتقاق والبديع، لغة القرآن والبيان والإيجاز والإعجاز نعرف مدى تبحر مترجمها في اللغة، سواء كان كاتباً أم أديباً أم شاعراً، لأنه بقدر مستوى المترجم تكون قيمة المادة المترجمة.

فالأدب البارع لا يعشق إلّا أدباً رفيعاً ولا يترجم إلّا مادة ذات قيمة، ولعلي لا أكون مخطئاً إن قلت: إن للشعر خاصية في أسلوب الترجمة تختلف عما سواه من المواد الأخرى، لأن الشعر فيه معان خفية ورموز وإشارات يحتاج فهمها في بعض الأحيان إلى فرضية وتلمس احتمالات وتحسس تقديرات.

وهذه الملاحظة التي أسلفتها بما فيها من واقع، قد خطرت لي عند قراءتي لأبيات نشرتها مجلة «اليمامة» في عددها ١١٥٨ الأربعاء ٢٢ ذي القعدة سنة ١٤١١هـ للشاعر السعودي محمد بن سعد المشعان بعنوان «حب وعزلة» وكان أصل الأبيات للشاعر جون كلير، فترجمها شاعرنا المشعان بتصرف ترجمة لا أشك في أنها ألبستها ثوباً عربياً أجمل من ثوبها الذي ولدت فيه. كيف لا وقد تحولت ألفاظها إلى لغة

الضاد التي هي سر المحاسن التي تمتاز بها اللغة العربية على جميع اللغات، من تلك الأبيات المترجَمة:

إني كرهتك بين الناس صخَّابا
أوهى فؤادي إرهاقاً وإتْعابا

أرضى بسجني إن أقبض له ثمنا
هو انعتاقي من دنيا بدت غابا

أسير في الدرب في آفاق وحشته
ظِلّي رفيقي وشوقي صار غلابا

وأرقب الليل تلهو فيه أنجمه
والكون يجري إلى أخراه مرتابا

أواه من ذا تراه آخذ بيدي
إلى يباب انعزالٍ ضوؤه شابا

إلى أعزّ مكان بتّ أعشقه
وأرضه تلبس الحوذان جلبابا

ما إن يريك اخضراراً شاق منظره
حتى ترى ذهبا في الزهر خلابا

فودّع الشعر واترك ما تُسرُّ به
إني سأقطع من دنياك أسبابا

○○○○○

تجربة مع المصانعة!!

إن سبر غور عقول الناس لا يتحقق إلّا بمخالطتهم مخالطة تمنحهم الثقة بأنك متفق معهم في صفاتهم، ومتحد معهم نحو أهدافهم، ومشارك لهم في جميع ميولاتهم.

والذي يمتطي أسلوب مصانعة القوم يعد واحداً من اثنين في نظر النقاد، فهو إما أن يكون مضطراً للمصانعة اضطراراً كأن لا يجد في وسط من يخالطهم مشاكلاً له في الصفة والطباع والميول فلا يرى بداً من المصانعة التي تأخذه من العزلة، وتدنيه منهم، وتبعده من الوحدة، أو أن يكون له هدف في معرفة واقع قومٍ ما فيعمد إلى الاتصاف بسلوكياتهم والتطبع بطباعهم حتى لا ينفروا منه، ويتخذونه صديقاً يبدون له سرائرهم ودقائق أخبارهم، وهذه الحالة لا يستطيع كل إنسان أن يتكيف معها لأنها تحتاج إلى دبلوماسية، وذكاء، وحكمة وتكيف مصحوب بتوازن نفسي يستقر على القياس الذي كان قد دخل به في دائرة القوم الذين أراد معرفة أخلاقياتهم وسلوكياتهم.

وبعض أهل الفلسفة وأصحاب الحكمة من الشعراء يحبذون هذا المسلك بل ويدعون إليه، وإن منهم من اتخذه فتحققت له نتائج حسنة. من أولئك الشعراء الذين جربوا ذلك اللون من المصانعة فضيلة الشيخ المفتي قطب الدين الحنفي المكي النهروالي ـ نسبة إلى نهروالة من أعمال الهند ـ المتوفى سنة ٩٩٩هـ وذلك بقوله في قصيدة طويلة ذكرها محيي الدين العيدروسي في كتابه «النور المسافر»:



أخالط إخوان الزمان بعقلهم
لأنظر ما يبدى به من عجائب

وأظهر أني مثلهم تستميلني
عذاب الثنايا سود شعر الذوائب

وإن أليم الهجر مما يسوءني
وإن لذيذ الوصل أسنى مآربي

وما علموا أن الهوى دون رتبتي
وأن مقامي فوقه بمراتب

ألا في سبيل المجد قوم عهدتهم
يرون اكتساب الفضل أزرى المكاسب

وما عندهم فضل سوى كثرة الغنى
وما المجد إلا أخذ بعض المناصب

فضائلهم محصورة في ثيابهم
وأورادهم إتقان هذي المناكب

رماني زماني بينهم يستهينني
وليس محلي غير هام الكواكب

○○○○○

الإقبال على حفظ القرآن!!

لا أقول إن انعقاد الحلقات في المساجد لدراسة القرآن وتذاكر علومه شيء يثلج الصدر ويدخل على النفس الفرح والسرور فحسب، وإنما المعنى الذي يفرح أكثر من ذلك بكثير هو أن ذلك الإقبال من الشباب على حفظ كتاب الله يبشر بوجود نواة حقيقية لصحوة إسلامية يشرق بها المستقبل.

والذي يزيد في ذلك السرور هو أننا نرى أبناء هذه الأمة وهم في عمر الزهور يتسابقون إلى حلقات دروس القرآن برغبة صادقة وعزم لا يلين، وإنك لتمر ببعض المساجد التي تنعقد فيها مثل تلك الحلقات فتطرب لسماع الأصوات الغضة وهي تتغنى بالقرآن الكريم حفظاً وتلاوة فلا تمل من سماعها والتلذذ بحسن ترجيع أصواتها الطرية.

والذي يجعل النفس تتفاءل كثيراً هو ذلك التنظيم الذي تشرف عليه بل تعده جماعات نذرت نفسها لخدمة القرآن الذي هو مصدر كل سعادة، فقيض الله لها من أهل الخير من يدعمها بالمال والنفقة.

ونحن حينما نرى الإقبال على الانضمام إلى جماعات تحفيظ القرآن الكريم من أبناء هذه الأمة المسلمة تتفتح أمامنا آمالاً عراضاً بأن مجتمعنا سيكون في يوم من الأيام المقبلة إن شاء الله مجتمعاً صالحاً وسليماً ومثالياً وصافياً من الشوائب والأدران يقدم لأهل التاريخ والإخباريين صورة ناصعة البياض، وصفحة إيمانية يشرق التاريخ بحروفها الوضاءة.

ودورنا في ذلك هو حث من لم يلحق بركب الدارسين، واستزادة



الذين منّ الله عليهم بالانضمام إلى تلك الجماعة بالمداومة على الاغتراف من معين القرآن الذي يتجدد بتجدد العصور والدهور.

قال الشاعر الدكتور زاهر عواض الألمعي قصيدة ألقاها في حفل تكريم إحدى جماعات تحفيظ القرآن الكريم، منها قوله:

هنيئاً لحفاظ الكتاب وإنهم
لرواد أجيال وأرفعنا قدرا

فحفظ كتاب اللّه مجد ورفعة
يسود به الحفاظ بين الورى جهرا

ويسمون في أوج الزمان بعلمهم
وتأتيهم الدنيا ويَعْلَون في الأخرى

ومن يتقي الرحمان يجعل له هدى
ويجعل له من أمر كربته يسرا

وإن كتاب اللّه هدي وشافع
فأحيوا بتشريعاته في الورى ذكرا

كما واصل الأسلاف في هدأة الدجى
دراساتهم للذكر والسنة الغرا

وكان كتاب اللّه ملء نفوسهم
فسادوا به الدنيا وقاموا به شكرا

فيا أمة الإسلام أحيوا تراثكم
وكونوا له ردءاً وصونوا له فكرا

○○○○○

قبول النقد عربون لبلوغ الهدف!!

من حق كل إنسان يتقن عمله مهما كان نوعه أن يكافأ بالشكر وإظهار الرضا عن عمله حتى يتفانى في مضاعفة طاقته وتقديم المزيد من كل ما هو نافع ومفيد.

كما أن النقد البنّاء يجب أن يكون له وجود في ميدان الحياة الاجتماعية حتى لا يكون للخطأ مكان متأصل فيه ثم يصبح مع طول السكوت عليه شيئاً شبيهاً بالواقع الذي يحدث الشك في نقده ومحاولة تصحيح مساره.

وإذا وجدت القناعة بأن النقد عربون لبلوغ الهدف فإن علينا إذا ما أَحْسَنَ إسكافي صنع حذاء أن نقول له مشكوراً. وإذا ما أخطأ طبيب في تعامله مع مريضه من الناحية النفسية أن نقول له: أخطأت، وأن نذكره بأن المريض يتفاءل بطبيبه إذا قرأ في ملامحه ابتسامة أو سمع منه كلمة لطيفة.

وعلى هذا النموذج من النقد والتشجيع نسيِّر حياتنا التعاملية. نستوقف المتقاعس أو المتهاون أو المتكاسل عن عمله فنقول له بأسلوب نقدي لا يجرح شعوراً ولا يثير غضباً ولا يغلق باب مفاهمة: يحسن بك أن تدع هذا وتأخذ بذاك.

ونستوقف المجدّ لنمتدحه على مثابرته وإتقانه لعمله حتى نشعره بأن نجاحه منظور إليه.

وأن مجتمعاً يرى النقد وسيلة إلى الحصول على التقدير ليعد مجتمعاً ناجحاً ومثالياً.



قرأت أبياتاً من الشعر للشاعر السعودي عبد الله آل عويد أثنى فيها على المذيع السعودي محمد الخنيني، وامتدحه على نجاحه في عمله الإذاعي، يقول في تلك الأبيات التي نشرتها صحيفة الجزيرة في عددها ٦٨٢٦ الجمعة ٢٤/١١/١٤١١هـ:

عليك سلام من أزجاك شعراً
وأهداك التهاني ما استطاعا

تذكرني الإذاعة بالخنيني
إذا ما قال أنصتنا استماعا

فعبد اللّه من هجر يهني
مذيعاً لا نطيق له وداعا

فسبحان الذي أعطاك ذوقاً
وأصبح ما تقدمه مشاعا

يسلينا من المذياع صوت
يذكرنا بمن فيها أذاعا

لعمري إن من يصغي إليه
وقد غطت برامجه البقاعا

فإنه سوف يجذبه أداء
أداء لا مثيل له سماعا

فها أنذا أعبر عن شعوري
وأسبح في خيالاتي اندفاعا

ومثل هذا المديح لكل ناجح في عمله مطلوب منا، ولهذا يجب أن نفرضه على أنفسنا.

○○○○○

على أن ليس عدلاً من كليب

هنا مقولة مفادها قولهم: أعذب الشعر أكذبه، ولعلهم يقصدون بذلك المبالغات الوصفية التي تخرج عن نطاق الواقع وتضرب في متاهات المستحيل ضرباً يوصف به صاحبها بالكذب. وإذا كان هناك اتفاق على أن المبالغة التي تخرج عن نطاق المعقول وتتعدى حدود الواقع فإن البحث عن أول كذبة وردت في الشعر ربما تكون معلومة يستفاد منها.

ونحن إذا ما أردنا البحث عن معرفة متى أخذ تطوير صناعة الشعر مساره فلا بد لنا من التماس ذلك في العصر الجاهلي وفي شعر المهلهل بالذات. لنجد النقاد يقولون: إن أبا ليلى عدي بن ربيعة خال امرئ القيس الذي ولد ونشأ في قبيلة تغلب ولقب بالمهلهل هو أول من هلهل الشعر وبذلك لقّب، كما أن أخاه كليب قد لقبه بالزير وذلك لكثرة معاقرته الخمر وزيارة النساء وله مع الحارث بن عياد حكاية أنا ذاكرها تحت عنوان «قربا مربط النعامة مني» ولما قتل أخوه كليب أثناء الحرب الطاحنة التي دارت رحاها بين التغلبيين والبكريين واستمرت عشرات السنين والتي تعرف بحرب البسوس أخذ المهلهل في التفجع على أخيه كليب في عدة قصائد يصف فيها كرم وشجاعة وسماحة كليب، ثم ينتقل بعدما يذكر محاسن كليب إلى ذكر تصميمه على أخذ الثأر لمقتل أخيه كليب في صورة كلها بلاغة ومبالغة مفرطة، خاصة عندما يأتي على وصف المعارك التي تدور بين القبيلتين المذكورتين فلقد جعل صليل السيوف في أحد أبيات قصائده تسمع باليمامة التي تبعد عن الجزيرة التي دارت رحى المعركة فيها بمسافة عشرة أيام للراحلة.

قال أبو العباس الأحول: إن هذا أول كذب سمع في الشعر،

ولقد أخذ المهلهل في إحدى قصائده التفجعية مأخذاً لم يسبق إليه، وهو التكرار الذي فسر بأنه معنى الإلحاح والتصميم على المضي فيما يشير إليه، وهذا التكرار وقع في قصيدة قالها بعدما أخذ الثأر لأخيه وقتل بجير بن همام، وهمام بن مرة وغيرهما من سادات بني بكر. فمن تلك القصيدة التي وقع فيها التكرار قوله:

على أن ليس عدلاً من كليب
إذا خاف المغارُ من المغير

على أن ليس عدلاً من كليب
إذا طُرد اليتيم عن الجزور

على أن ليس عدلاً من كليب
إذا ضاقت رحيباتُ الصدور

على أن ليس عدلاً من كليب
إذا خاف المخوف من الثغور

على أن ليس عدلاً من كليب
إذا طالت مُقاساتُ الأمور

على أن ليس عدلاً من كليب
إذا هبت رياحُ الزمهرير

على أن ليس عدلاً من كليب
إذا ما ضيم جارُ المستجير

على أن ليس عدلاً من كليب
إذا وثب المثارُ على المثير

وعلى هذا النمط من التكرار مضى في عدة أبيات غير تلك التي ذكرتها.

الصراع داخل النفس، ما سببه؟!

ونحن نسمع ونقرأ لمن لهم ارتباط بالبحث في النفس والسلوك قولهم في معرض الكلام عن الإنسان الذي يتعرض للأزمات والمعاناة: هو إنسان يعايش صراعات داخل نفسه، ومعنى هذا أن هناك أكثر من عامل وفاعل تتصارع داخل النفس، وهذا يجرنا إلى السؤال الذي يقول: لماذا الصراع داخل النفس؟ والإجابة على ذلك تتلخص في أن هناك فئة مختلفة مع فئة أخرى داخل النفس وأن كل منهما يحاول السيطرة على النفس والتحكم في توجيهها وفقاً لما تراه مناسباً لأهدافها.

والصراعات التي تحدث داخل النفس قد لا تكون مرتكزة على نقطة معينة قد تم الاختلاف عليها، وإنما هي صراعات مستمرة على الخلاف على كل شيء، ففئة مثلاً تحاول أن تحمل النفس على حب اللون الأبيض وتدعوها إلى تعشقه واتخاذه رمزاً تعرف بالميول إليه، وفئة ترى أن اللون الأسود أو الأحمر أو الأصفر أو أي لون مخالف في صفته للون الأبيض هو الذي يحسن بالنفس أن تميل إليه وتجعل منه شعاراً لها.

ولهذا نجد أن الإنسان إذا أراد شراء مركبة ـ سيارة ـ أو حتى محفظة نقود فإنه يبقى في حيرة ما بين الألوان المتعددة التي لونت بها المراكب والمحافظ حتى تتغلب الفئة التي تصارع أختها داخل النفس وتحمل صاحبها على شراء اللون الذي تميل إليه، فإن غلبت صاحبة اللون الأبيض اشترى لوناً أبيضاً وإن غلبت صاحبة الألوان الأخرى اشترى أي لون عدا الأبيض.

وفيما يقرب من هذا المعنى نظم الشاعر والمفكر الإسلامي سيد قطب قصيدة سبقها توطئة نصها: بين نفسين من النفوس الكثيرة التي تعيش في الإنسان الواحد متفرقة في بعض الأحيان، دار هذا الحوار، فأما أحدهما فتتعلق بماض عزيز لا رجعة له ولا أمل فيه. وأما الآخر فتنزع إلى العزاء بالتطلع إلى جديد، أقتطف منها قوله:

أنت أوغلت في الظلام طويلا
فمتى يا رفيق تبغي القفولا
شدما آدنا التخبط في الليل
وخفنا ظلامه المدخولا

وقوله:

يا رفيقي إذا قدرتَ فأوّب
إن هذا الظلام يضني العقولا
أنا أخشى الضياء أبصر فيها
ذكرياتي تبدّلت تبديلا
أنا أخشى النهار يكشف عني
كل وهم أروده تعليلا
الظلام الظلام أروح للقلب
ولو كان لا يريح العقولا

وقوله:

يا رفيق الحياة أبصر درباً
إن تضحي ساعتها تخييلا
أبُ من الظلمة الحبيبة وأهجر
كل ما كان في الحياة الأولى

التكتم على الاسم الصريح ظاهرة
في شعر الغزل!!

والكثير من شعراء الغزل ينتخبون اسماً معيناً من بين أسماء النساء فيجسدون خيال صاحبته أمامهم ثم يأخذون في مناجاته وكأنما هم يرونها رأي العين.

بل إن منهم من يختار أكثر من اسم حتى يوهم قارئ شعره بأنه قد هام بحب عزة، وليلى، وسعاد، وسلمى، وغيرهن من النساء، فلا يستطيع القارئ معرفة المعنية حقيقة منهن.

ومنهم من يكون مناجياً حقيقة صاحبة الاسم الذي أباح به، ومنهم من يستعير اسماً غير الاسم الصحيح لأمور أهمها إخفاء وجه الحقيقة على من يقرأ شعره التَشبيبيّ بها فيبعده الاسم المستعار عن الشك بصاحبته الحقيقية.

ومصداق ما يحدث للشعراء في هدا المجال المتعلق بالبحث عن اسم مستعار يسائله ويخاطبه بدلاً من الاسم الحقيقي لصاحبته ما حدث للشاعر والمفكر الإسلامي سيد قطب الذي قدم لقصيدته «توارد الخواطر» التي ضمها ديوانه «الشاطئ المجهول» وبلغت أبياتها خمسة عشر بيتاً ما نصه: خطر ببال الشاعر اسم معين، ثم نظر فجأة فإذا بصاحبة هذا الاسم تنظر إليه وتحييه، أما القصيدة فأقتطف منها قوله:

أفـأنـتِ ذي؟ أم ذاك طـيـف مـنـام؟
إنـــي أراك كـــطـــائـــف الأحـــلام



لما خطرت وقد سموتُ بخاطري
ألفيتُ شخصك كالملاك أمامي
فدهشتُ أو فارتعتُ أو فتصرمت
خفقات قلبي المنتشي البسام
عجباً أكنتِ هنا فأوْمَضَ خاطري
بك؟ أم سريت على جناح غرامي

وقوله:

ماذا صنعت بعالمي وخواطري
لمَّا لقيتُك كالخيال السّامي
أفأنت ساحرة تصوغ من الدجى
نوراً وتبعث في الحياة حُطامي

وقوله:

الحب بالحب يرتجلُ المنى
من غير تدبير وغير نظام
إني وثقتُ به وما هو باخل
بك يا سعاد بيقظتي ومنامي

○○○○○

صُرّ، دُر... يعلن عن اسم محبوبته بلا مواربة!!

وشاعر الغزل المولع بالتشبيب. يتحرج كثيراً من الاقتراب من أي وصف حقيقي يدل على من كان يشبب بها، ولهذا نجد في أشعار بعضهم تعميات وإشارات ورموزاً بعيدة عمن كان يركب إليها أحلام اليقظة وتحلق به أجنحة الخيال في سماء تظل أرض محبوبته. ويرجع أمر التعتيم على الاسم الصريح أو الكنية المعروفة أو الوصف الحقيقي لمن يشبب بها إلى احتمالين. الأولى منهما: الخوف من الجزاء والعقاب من محارم من كان يشبب بها. والثاني: الخشية من ابتذال الاسم لدى الرواة وفي النوادي فيسبب لصاحبته حرجاً قد يكون سبباً للقطيعة ومصدراً لفساد المحبة القائمة بينه وبينها.

والشعراء يختلفون في كيفية المحافظة على عدم البوح بالاسم الصريح الصحيح، أو بالأصح يختلفون في مدى المقدرة على الاحتفاظ بسرية الاسم في داخل نفوسهم.

يقول الشاعر ـ صر دُر ـ الذي كتبت عن شيء من جانب حياته وسبب تسميته بـ«صر دُر» في الجزء الرابع من هذا الكتاب تحت عنوان «صر در لقب وليس اسماً». أنه لم يقدر على التكتم على اسم محبوبته وأن التصريح به أمر يفرضه الإحساس الصادق بالمحبة المتغلغلة في داخله.

يقول من قصيدة له هي ضمن ديوانه المسمى بـ«ديوان صر در» والتي مطلعها:



أبـيْـنـا أن نـطـيـعـكـم أبـيـنـا
فـلا تـهـدوا نـصـيـحـتـكـم إلـيـنـا

يقول:

عجائب في الصبابة لو عقلنا
بـمـيـعـادي وآمـالـي لـويـنـا

نُـسـائـل عـن ثـمـامـات بـحـزوى
وبـان الـرمـل يـعـلـم مـن عـنـيـنـا

وقـد كـشـف الـغـطـاء فـمـا نـبـالـي
أصـرّحـنـا بـذكـرك أم كـنـيـنـا

ولـو أنـي أنـادي يـا سُـلـيـمـى
لـقـالـوا: مـا أردت سـوى لـبـيـنـي

ألا لـلّـه طـيـف مـنـك يـسـقـى
بـكـاسـات الـردى زُوراً ومـيـنـا

مـطـيـتـه طـوال الـدهـر جـفـنـي
فـكـيـف شـكـا إلـيـك وجـيءً وأيـنـا

فـأمـسـيـنـا كـأنـا مـا افـتـرقـنـا
وأصـبـحـنـا كـأنـا مـا الـتـقـيـنـا

○○○○○

لماذا وهب سلم الخاسر جميع ماله لعاصم بن عتبة!!

وإذا عرفنا أنه ليس للشاعر العباسي سلم بن عمرو مولى بني تميم بن مرة ثم مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، والملقب بسلم الخاسر، وارث فإنه من حقه أن يهب ماله بعد موته لمن يشاء من الناس.

وحكاية سلم الخاسر الذي وهب ماله كله لعاصم بن عتبة الغساني كما يرويها أبو الفرج الأصبهاني في كتابه «الأغاني» عن الحسن بن علي الذي قال: حدثني ابن مهرويه قال: وجدت في كتاب بخط الفضل بن مروان، وكان عاصم بن عتبة الغساني جد أبي السمراء الذي كان مع عبد الله بن طاهر صديقاً لسلم الخاسر كثير البرّ به والملاطفة له وفيه يقول سلم الخاسر:

الجود في قحطان
ما بقيت غسان
أسلم ولا أبالي
ما فعل الأخوان
ما ضر مرتجيه
من عثرة الزمان
من غاله مخوف
فعاصم أمان

قال: وكانت سبعين بيتاً فأعطاه عاصم سبعين ألف درهم، وكان مبلغ ما وصل إلى سلم من عاصم خمسمائة ألف درهم، فلما حضرته الوفاة دعا عاصماً فقال له: إني ميت ولا ورثة لي، وإن مالي مأخوذ فأنت أحق به، فدفع إليه خمسمائة ولم يكن لسلم وارث، قال: وكان عاصم هذا جواد.

قال الأصبهاني: أخبرني محمد بن خلف قال: حدثنا عبد الله بن أبي سعد قال: حدثني محمد بن طهمان قال: أخبرني القاسم بن موسى بن مزيد أن يزيد بن زيد قال: ما حسدت أحداً قط على شعر مدح به إلّا عاصم بن عتبة الغساني فإني حسدته على قول سلم الخاسر فيه:

لعاصم سماء
عارضها تهتان

أمطارها اللجين
والدّر والعقيان

وناره تنادي
إذ خبت النيران

صلت له المعالي
والسيف والسنان

○○○○○

قربا مربط النعامة منّي!!

و«قربا مربط النعامة مني» هو صدر بيت الحارث بن عباد بن ضبيعة بن بكر بن وائل ستة عشر مرة متوالية، والنعامة اسم فرسه.

ويقال: إن الحارث كان معتزلاً الحرب التي كانت دائرة بين تغلب وبكر، بل إنه أرسل ابنه بجيراً أو ابن أخيه إلى المهلهل الذي سبقت الإشارة إلى موقفه من تلك الحرب، حرب البسوس التي استمرت نحواً من أربعين سنة في موضوع تحت عنوان «على أن ليس عدلاً من كليب» وكانت مهمة بجير هي محاولة الصلح بين القبيلتين، لكن المهلهل رفض وساطته وطعنه بالرمح وقال له: «بؤ بشسع نعل كليب» وكأنما هو بقتله بجيراً يأخذ ثأر قتل أخيه كليب فرد بجير على مقولة المهلهل تلك بقوله: «إن رضيت بها بكر رضيتُ» ثم مات. ولما وصل النبأ إلى الحارث قال: نعم القتيل قتيلاً إن أصلح الله بين بكر وتغلب وباء كليب، فلما ذكر له ما قاله المهلهل بعد طعنه بجيراً غضب وشمر للحرب ودعا قومه إليها. وطلب فرسه النعامة، ولم يكن مثلها في خيل العرب، فجز ناصيتها وقطع ذنبها، وكان أول من فعل ذلك فاتخذت فعلته عادة إذا قتل لأحدهم عزيز وأراد أن يأخذ بثأره، وخاض الحارث الحرب بنفسه ضد تغلب حتى آخر أيامها ـ وهو يوم قِضَة أو يوم التحالق ـ فانتصر فيه نصراً ساحقاً، ووقع المهلهل في أسره وهو لا يعرفه فقال له: تدلني على المهلهل وأنت آمن، فلما استوثق المهلهل منه وعده عرّفه بنفسه، فوفى الحارث بن عباد بوعده واكتفى بجز ناصيته.

ولقد أكثر الشعراء من وصف تلك الحرب ومنهم من خطأ القبيلتين لعدم قبولهما الصلح. أما الحارث بن عباد الذي قيل: إنه مات قبل الهجرة بنحو خمسين سنة فإن أحسن شعره هو ما قاله في تلك الحرب، ومن الأبيات التي كرر فيها القول «قربا مربط النعامة مني» قوله:

قربا مربط النعامة منّي
لقحت حرب وائل عن حيال
قربا مربط النعامة منّي
ليس قولي يراد لكن فعالي
قربا مربط النعامة منّي
جدّ نوح النساء بالإعوال
قربا مربط النعامة منّي
لكريم متوج بالجمال
قربا مربط النعامة منّي
إن قتل الأحرار بالشسع غال
قربا مربط النعامة منّي
لا نبيع الرجال بيع النعال
قربا مربط النعامة منّي
لبُجير فداه عمي وخالي
قربا مربط النعامة منّي
لاعتناق الكماة يوم القتال

○ ○ ○ ○ ○

خربشة على حائط زمننا

والجدار أو الحائط، يعيش في زمننا هذا بين حالتين، حالة تجميلية وحالة تشويهية، والتشويه والتجميل يقع عليه من شعرائنا المعاصرين، فالذين يشوهونه بخربشاتهم الشعرية التي تترك في وجهه ما يشبه الثآليل القبيحة في وجه الحسناء.

هم أولئك الذين يجرؤون على عنونة أشعارهم به وذلك مثل هذا العنوان «رسوم على الحائط» لشاعر معاصر، ولكن أي شعر يا ترى رسمه على ذلك الحائط؟! إنه شعر لا تعرف رأسه من أساسه كما يقولون، قرأت تلك الرسوم وسألت أهي ترجمة حرفية لشعر أجنبي؟ فقيل لي: لا، وإنما هو الشعر الحر. قلت: صدق من سماه بالشعر الحر فهو حر نال حريته بإبوقه عن الشعر المقفى الأصيل الذي تطرب قافيته ووزنه وسيظل آبقاً حتى يهلكه الدهر، وحتى نكون على بينة من تلك الخربشات التي شوهت حائط عصرنا أسوق جزءاً من إحدى ما يسمى بالقصائد المرسومة عليه. وهو: أنا منك قلت. وأنت قلت بأنك مني. فماذا جرى يا عيون المها؟ فسرت خلف هو الشك منك، وكانت غواية، نحرت بها كل حب وقفت عليه «أنا». أنا لم أقل مثلما قلت من قبل، كلمة حب... سوى لك أنت، فماذا ترين وماذا ترين، وأنا أقول ماذا ترى أليست هذه خربشة على الحائط؟ والذي يمعن النظر في هذا الشعر إن صحت تسميته بالشعر سيجد أن صاحبه جعل نصف صفحاته صوراً كاريكاتيرية ليساعد نفسه على فهمها عندما يعيد قراءتها بعد سنوات قد تنسيه فكرة أو خاطرة تلك الخربشة أما الذين يجملون الحائط فهم أولئك الذين يتخذون منه عنواناً لعمل يستحق التخليد هكذا

العنوان «نقوش على واجهة القرن الخامس عشر» والذي ضم قصائد هي بحق نقوش على جدار الزمن.

أما آخر ما قرأته حول تلك العناوين فهي قصيدة للشاعر طارق مكاوي من الأردن عنوانها «نقش على حجر الروح» وقد نشرتها مجلة «المنتدى» في عددها ٩٤ شوال ١٤١١هـ منها قوله:

يخضل عودي متى ناديت باسمكم
أو هبّ ريح ومن أعطافكم نفحا

أمد جنحي على الأيام يسترني
فتمطر الدمع في جنبي والترحا

أهامس النفس هل يسري السهاد بها
ويتخم الحزن هذا القلب والقدحا

فيطرق القلب فوق الصمت يصلبني
ويمطر الليل في العينين ذات ضحى

والهف نفسي سهام الشوق تنخرني
والبين جلّ وفي الأحشاء قد سبحا

يا لائميّ لقد شج الجوى عللي
والقول جف وعن أغصانه نزحا

أسارر النفس والدمعات تزخر بي
والسر بات على الأهداب مفتضحا

يا رب عبدك لا توكله في زمن
غدر وسامح فناب الدهر ما سمحا

○○○○○

دجال يلقى الموت بسبب دجله!!

والدجال المبتدي يحصل له بعض المواقف الصعبة والتي ربما تقضي على حياته وذلك نتيجة لعدم إتقانه للتعامل مع الوسائل التي يقرر اتخاذها كوسيلة إيضاح لدجله. بل ربما أدت تلك الوسائل التي اتخذها لخداع الناس بأنه ساحر ماهر إلى موته.

روى الشاعر نقولا رزق الله المولود سنة ١٨٦٩م والمتوفى سنة ١٩١٥م في ديوان شعره قصة لدجال اختار ثعباناً ليدلل به على أنه ساحر، ونص القصة هو: جرت الحادثة في الإسكندرية في ١٢ يونيه سنة ١٩٠٢م وخبرها أن فتىً اتخذ التدجيل على عقول البسطاء حرفة، وادعى إخراج الثعابين من أوكارها فحمل في جيبه ثعباناً قلعت أسنانه وذهب إلى بيت في كرموز فقال لسكانه: إن في منزلكم صلاً. فدعوني أخرجه لكم، فقالوا: لك ريال إن فعلت، فأطلق الفتى ثعبانه خفية في الظلمة، واندس وراءه ليقبض عليه ويوهم الناس أنه قبض على ثعبان المنزل، ولكن حصل سوء الطالع لهذا الفتى المسكين إذ أن ثعباناً شريراً كان قد آوى إلى تلك الغرفة، فلم يكد الفتى يخطو فيها خطوة حتى تلقاه الثعبان باللدغ ولف ذنبه على عنقه ومال برأسه إلى شفتيه يقبلهما، وكان في طي تلك القبلات الموت الزؤام.

وحول هذه القصة نسج الشاعر نقولا رزق الله قصيدة قوامها واحد وأربعين بيتاً صور فيها حال ذلك الفتى السيء الحظ، من تلك القصيدة قوله:

فاحتال حتى أتى بصل
في نابه الموت والفناء



فابتزه نابه فأمسى
فارقه الخبث والعداء

وصار ذاك الفتى رفيقاً
للصل مسعاهما سواء

ومنها قوله:

حتى أتى منزلاً تداعى
منه لطول المدى البناء

وكان في سقفه خبيث
طاب له المكث والثواء

في جحره كامناً مقيماً
يصحبه الرغد والهناء

ومنها قوله:

فهب من جحره غضوباً
يهيمه الغيظ والإباء

وضم جسم الفتى إليه
كأنه للفتى رداء

○○○○○

من هو الأدق في الوصف المتخيل
أم المعاني والمختص؟!

والذي يصف المعاناة ليس كالذي يعايشها، والذي يعايش المرض ليس كالذي يتخيله والذي يحس بالألم ليس كالذي يتصوره، لأن الذي يعايش الأشياء ويعيش في خضمها ويقاوي تياراتها ووقائعها، يصفها عن إحساس وملامسة حقيقية يضع على ضوئها النقاط على الحروف كما يقولون بلا زيادة ولا نقص، أما الذي يتصور ويتخيل فإنه إما أن يزيد في الوصف من باب المبالغة، وإما قصر عن ذكر ما هو مهم وذلك لعدم ملامسته ومعايشته لواقع ما تولى وصفه.

ومن الطبيعي أو المسلَّم به أن التاجر في متجره لا يستطيع وصف حياة الفلاح بدقيقها وجليلها في مزرعته، وكذلك الفلاح لا يستطيع وصف حياة التاجر في متجره. حتى وإن أتى كل منهما على ذكر الكثير من أعمال صاحبه فإن الذي يفوت عليه ربما كان أكثر.

ومما تقدم نستطيع أن نخلص إلى القول بأن صاحب المهنة أو من يعايش المشكلة أو من يعاني من الألم هو أدق وصفاً لها وأقدر على الكلام عنها من غيره.

جاء في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة الأحقاف آية ١٥:
﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

ولو أراد رجل أن يترجم واقع الحمل والولادة ترجمة وصفية يتخللها شيء من التفصيل عن مراحل الحمل والوضع وما يصاحبهما من تغيرات نفسية فإنه لا يستطيع أن يصفه مثلما تصفه المرأة التي مرّت بمراحل الحمل وآلامه وطلق الولادة وشدتها.

وإني لا أرى أحداً يخالفني الرأي في أنه لو طلب إلى شاعر وشاعرة قد مرّت بمراحل الحمل والولادة وصف حالة الحمل والوضع لأتت الشاعرة بما لا يأتي به الشاعر من وصف للحالة. وإن كان الشاعر يغرف من نهر البلاغة ويعب بحر البديع لأنه إلى جانب آلام الحمل ومخاطر المخاض هموم وآمال تعلق على هذا الجنين الذي لا زال في ظلمات الرحم.

وحتى لا أطيل في إثبات عدم وجود مقارنة بين قول من يعايش الأمر ومن يتخيله، أنقل هنا جزءاً من قصيدة للشاعرة العمانية سعيدة بنت خاطر التي نشرتها لها المجلة العربية في عددها ١٦٦ ذي القعدة سنة ١٤١١هـ، وفيها تخاطب جنينها:

إذا ما تكورت في داخلي
وأثقلت جسماً خفيفاً خلي

وصرت تلملم روح الحياة
فلم يبق شيء سوى الآه لي

عرفت بأني نديم السهاد
وليلي طويل ولن ينجلي

وبتُّ أقلّب فكر التمني
سأحظى بليلى ترى أو علي؟

ولما توالت شهوري الطوال
وقاربتُ هولاً به مأملي





ذبـلــتُ ذبـول غـصـون الـخـريـف

ومــن تــك مــثــلــي ولــم تــذبــل

وقــد راودتــنــي شــتــى الــظــنــون

بـــعـــاق ســـأرزق أم بـــولـــي

إلــهــي أجــبــنــي بــنــجــل الأصــول

وأكـــرمـــنـــي فـــي بـــكـــري الأول

تلك جزء من القصيدة كما أسلفت فهل يستطيع رجل أن يصور هذه المشاعر؟. لا أظن ذلك.

○○○○○

جزء من الجانب الأدبي من سيرة الخنساء!!

والذي يفتح سجل التاريخ ويقلب صفحات الأدب يجد فيها ما يمتعه ويطربه من سير الأوائل الذين خلفوا لنا تراثاً أدبياً لا يقدر بثمن.

والخنساء الشاعرة الشهيرة والصحابية الجليلة رضي الله عنها علم من الأعلام التي يجب أن نقف ولو على جزء من الجانب الأدبي من سيرتها.

يروى أن عبد الملك بن قريب قال: كان يضرب للنابغة قبة من أدم بسوق عكاظ، وعكاظ نخل قريب من الطائف، والطائف مدينة كبيرة في شبه الجزيرة العربية. قال: ثم تأتي الشعراء فتعرض أشعارها فكان أول من أنشده الأعشى ثم حسان بن ثابت ثم أنشدته الشعراء، ومنهم الشاعرة الخنساء التي قال لها: والله لولا أن أبا بصير (يعني الأعشى) أنشدني آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس، فقام حسان فقال: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك، فقال له النابغة: يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول:

فإنك كالليل الذي هو مدركي
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

خطاطيف حجن في حبال متينة
تمد بها أيد إليك نوازع

قال: فخنس حسان لقوله:



قال حسان بن ثابت رضي الله عنه: جئت نابغة بني ذبيان فوجدت الخنساء بنت عمرو حين قامت من عنده فأنشدته فقال: إنك لشاعر وإن أخت بني سليم لبكاءه: وكان بشار يقول: لم تقل امرأة شعراً قطّ إلَّا تبين الضعف فيه. فقيل له: أو كذلك الخنساء؟ فقال: تلك كان لها أربع خصى، وقالوا: أجود أشعار النساء أشعار الموتورات، أي التي قتل لها قتيل فلم يدرك بدمه، وأشعر النساء في الجاهلية والإسلام الخنساء.

وقال محمد بن سلام: وجعلنا المراثي طبقة بعد العشر أولهم المتمم بن نويرة، رثى أخاه مالكاً، والخنساء بنت عمرو رثت أخويها صخراً الذي قتله بنو غطفان، ومن مراثيها قولها من أبيات تعاتب فيها فاجعات الدهر:

نعيّ ابن عمرو أتى موهناً
قتيلاً فما لي لا أجزعُ

وفجَّعني ريب هذا الزمان
به والمصائب قد تفجع

فمثلي حبيبي أنكى العيون
وأوجَعَ من كان لا يُوجع

أخٌ لي لا يشتكيه الرفيق
ولا الركب في الحاجة الجوّع

ويهتز في الحرب عند النزال
كما اهتزّ ذو الرونق المقَطَّعُ

فما لي وللدهر ذي النائبات
أكُلُّ الوزوعِ بنا توزَعُ

○○○○○

من هنا كان!!

ومن المعلوم أن بغداد كانت في عصر من العصور السالفة عاصمة الخلافة الإسلامية، خاصة في العصر العباسي الذهبي الذي ازدهرت فيه العلوم وتنوعت فيه الثقافة وقوي فيه سلطان الخلافة الإسلامية التي شغلت مساحة كبيرة في قارتي آسيا وإفريقيا. كيف لا وهو يحكي أن سحابة مرت في السماء وكان الخليفة العباسي هارون الرشيد جالساً فنظر إليها وقال لها: أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك.

ومن هذا المنطلق الحقيقي الذي أشار إلى أن العراق كان قاعدة للخلافة وميداناً للعلم والأدب والثقافة أخذ بعض الشعراء في تمجيده، خاصة الشعراء العراقيين مثل الشاعر المعروف جميل صدقي الزهاوي المتوفى سنة ١٣٥٤هـ، الذي أنشأ قصيدة طويلة قوامها خمسين بيتاً وجعل عنوانها «المستنصرية» تلك المدينة التي أحالتها يد الدهر إلى أطلال ورسوم بعد أن كانت عامرة بالسكان.

والذي استوقفني في تلك القصيدة جملة أبيات استفتحها على التوالي بـ«من هنا كان» مشيراً إلى أن المستنصرية كانت منبراً لأشياء علمية وأدبية وثقافية وإدارية. استعرض منها الشيء الكثير بعد «من هنا كان»، وذلك بقوله:

من هنا كان السلم يبسط فوق
الأرض من ظله جناحاً طويلاً

من هنا كان الدين ينشر للنا
س بياناً يفسر التنزيلا



من هنا كانت العروبة تجني
شرفاً باذخاً ومجداً أثيلا

من هنا كانت السعادة تلقي
فوق قطر العراق ظلاً ظليلا

من هنا كان العلم يسقي شباباً
ظمئوا للعلى ويسقي كهولا

من هنا كانت الخلافة تهدي
للبرايا فطاحلاً وفحولا

من هنا كان العدل يبدي سلاماً
من هنا كان الحكم يلقي عدولا

من هنا كان الشرق يهدي إلى الغر
ب ضياء به ينير العقولا

وهذه الأبيات وما بعدها قد سبقتها أبيات صدرها الزهاوي بـ«ههنا كان» والقصيدة بكاملها موجودة في «ديوان الزهاوي».

○ ○ ○ ○ ○

صخر أخو الخنساء وزوجته سليمى!!

وإذا كانت الحال في بعض الأحيان تستدعي ذكر تخلي بعض النساء عن أزواجهنّ عندما يقعدهم مرض أو تتغير حالهم بسبب عاديات الدهر فيتحول غناهم إلى فقر وعزهم إلى ذل وقوتهم إلى ضعف فينسين ما لهم من سابق جميل وحسن عشرة، فإنَّ إقامة الشاهد والدليل القاطع على ذلك يتمثل فيما فعلته سليمى زوج صخر بن عمرو الشريد أخو الخنساء الشاعرة والصحابية الجليلة، وذلك حينما لزم صخر الفراش في بيته نتيجة لدخول بعض حلقات درعه في جنبه بسبب طعنة وجهها إليه ربيعة بن ثور الأسدي في محاربة جرت بين بني سليم قوم صخر وبين أسد قوم ربيعة وذلك سنة ٦١٥م، وبقي حلق الدرع في جنبه مدة اختلف عليها فمنهم من يقول: سنتين أو أكثر ومنهم من يقول: حولاً. فمرض حيث تدملت مرضاً شديداً، ولما كان في أشد ما يكون من المرض، وأمه وزوجته سليمى تمرضانه، ضجرت زوجته منه فمرت بها امرأة فسألتها عن حاله، فقالت: لا هو حيّ فيرجى، ولا ميت فينسى، فسمعها صخر فتألم ألماً شديداً لذلك فزاد مرضه وتأثره النفسي، ولكن ما الذي يمكن أن يفعله وهو على فراش الموت؟ إنه لا يملك مقود المجازاة بل ليس في استطاعته تنفيذ ما قد يبرز أمامه من خيارات. وما يملك سوى البوح بما تجود به قريحته من شعر ينفّس به عن نفسه وهذا هو ما حصل له إذ قال الأبيات التالية التي أوردها صاحب كتاب «وفيات الأعيان». وهي:

أرى أم صخر لا تملّ عيادتي
ومَلَّتْ سليمى موضعي ومكاني

وما كنت أخشى أن أكون جنازة
عليك ومن يغتر بالحدثان

لعمري لقد نبهت من كان نائماً
وأسمعت من كانت له أذنان

وأي امرئ ساوى بأم حليلة
فلا عاش إلا في شقاً وهوان

أهمُ بأمر الحزم لو أستطيعه
وقد حيل بين العَيْرِ والنزوان

فللموت خير من حياة كأنها
مُعَرس يعسوب برأس سنان

ولما مات رثته الخنساء بمراثٍ كثيرة استهلت إحداها بقولها:

يا عين بكّي على صخر لأشجان
وهاجس في ضمير القلب حَرّان

إني ذكرت ندى صخر فهيجني
ذكرُ الحبيب على سقم وأحزان

○ ○ ○ ○ ○

الخنساء خلدت اسم أخيها صخر!!

لقد خلدت الخنساء اسم أخيها صخر في بيت من عشرات الأبيات التي رثت بها أخويها صخر ومعاوية. أما البيت الذي خلدت به اسم صخر فهو قولها:

وإن صخراً لتأتم الهداة به
كأنه علم في رأسه نار

وقد صار عجزه مثلاً يضرب لمن يعرف بصفته.

قيل: إن الخنساء ما كانت تقول في أول أمرها إلّا البيتين والثلاثة حتى قتل أخوها لأبيها وكان أحبهما إليها. وكان حليماً جواداً محبوباً في العشيرة وكان غزا بني أسد فطعنه أبو ثور الأسدي فمرض منها قريباً من حول ثم مات، وبقتل أخويها أكثرت الخنساء من الشعر وأجادت.

وقيل للخنساء: صفي لنا أخويك صخراً ومعاوية. فقالت: كان صخر والله جنة الزمان الأغبر وذعاف الخميس الأحمر، وكان والله معاوية القائل الفاعل، قيل لها: فأيهما كان أسنى وأفخر؟. قالت: أما صخر فحر الشتاء وأما معاوية فبرد الهواء. قيل لها: فأيهما أوجع وأفجع؟. قالت: أما صخر فجمر الكبد. وأما معاوية فسقام الجسد؟.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للخنساء رضي الله عنها ما أقرح مآقي عينيك؟. قالت: بكائي على السادات من مضر. قال: يا خنساء إنهم في النار. قالت: ذاك أطول لعويلي عليهم. وقالت: كنت أبكي لصخر على الحياة فأنا اليوم أبكي له من النار.

أما القصيدة التي منها البيت المتقدم فهي طويلة إذ تبلغ نحواً من ٣٦ بيتاً منها:

تبكي خناس على صخر وحق لها
إذ رابها الدهر، إن الدهر ضرار

لا بدّ من ميتةٍ في صرفها عبر
والدهر في صرفه حول وأطوار

ومنها قولها:

وإن صخراً لوالينا وسيدنا
وإنّ صخراً إذا نشتو لنحّار

وإن صخراً لمقدام إذا ركبوا
وإن صخراً إذا جاعوا لعقار

جلد جميل المحيا كامل ورع
وللحروب غداة الروع مسعار

حمالُ ألوية هباط أوديةٍ
شهاد أندية للجيش جرار

قد كان خالصتي من كل ذي نسبٍ
فقد أصيبَ فما للعيش أوطار

○○○○○

صورة من مبالغة الخنساء في رثاء أخويها!!

ولقد أشرت في موضوع سابق عنوانه: «الخنساء خلدت اسم أخيها صخر» إلى بعض إجاباتها على التساؤلات التي وجهت إليها حول مغالاتها في تفجعها وحزنها الشديد على أخويها صخر ومعاوية.

أما في هذا الموضوع فإني ذاكر تأنيب عمر بن الخطاب رضي الله عنه لها على مغالاتها في رثاء أخويها معاوية الذي هو أخوها لأمها وأبيها والذي قتل يوم حوزة الأول نحو سنة ٦١٢م، وهو يوم لسليم على غطفان قتله هاشم ودريد ابنا حرملة بن مرة.

أما صخر فهو أخوها لأبيها وقد قتل يوم كلام أو يوم ذي الأثل نحو سنة ٦١٥م، طعنه ربيعة بن ثور الأسدي فأدخل في جنبه حلقاً من الدرع فاندمل عنه حتى شق عليه بعد سنتين وكان ذلك سبب موته.

ولقد ذكرت في موضوع سابق عنوانه: «صخر بن عمرو وزوجته سليمى» شعراً لصخر قاله عندما شارف على الموت وفيه وصف لتخلي زوجته سليمى عن تمريضه.

ولما فارق الحياة أخذت أخته الخنساء تنظم الأشعار في رثائه بل إنها غالت في إظهار حزنها وخرجت من طور نظم القصائد إلى أن أخذت تطوف بالبيت وهي محلوقة الرأس وتبكي وتلطم خدها، وقد علقت نعل صخر في خمارها فرآها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهي على تلك الحال فأنبها على ذلك الفعل بل وضع خمارها الذي



علقت فيه النعل، فقالت له: إني رزئت فارساً لم يرزأ أحد مثله.

فقال لها: إن في الناس من هو أعظم مرزأة منك، وإن الإسلام قد غطى ما كان قبله. وإنه لا يحل لك لطم وجهك وكشف رأسك فكفت عن ذلك. وقالت ترثي أخاها معاوية وأخاها صخراً. من ذلك قولها من قصيدة لها:

هريقي من دموعك أو أفيقي
وصبراً إن أطقت ولن تطيقي

وقولي إن خير بني سليم
وفارسهم بصحراء العقيق

وإني والبكاء من بعد صخر
كسالكة سوى قصد الطريق

فلا وأبيك ما سَلَّيْتُ صدري
بفاحشةٍ أتيتُ ولا عقوق

ولكني وجدت الصبر خيراً
من النَّعلين والرأس الحليق

ألا هل ترجعنّ لنا الليالي
وأيام لنا بلوى الشقيق

ألا يا لهف نفسي بعد عيش
لنا بندى المخشم والمضيق

وإذْ يتحاكم السادات طراً
إلى أبياتنا وذوو الحقوق

والقصيدة أطول من ذلك.

الخنساء تصحب أبناءها في معركة القادسية

لقد عطرت سيرة الصحابية الجليلة الخنساء بنت عمرو بن الشريد صفحات التاريخ بدم فلذات كبدها الأربعة. حيث دفعت بهم جميعاً وصحبتهم إلى معركة القادسية التي انتصر فيها المسلمون على الفرس انتصاراً ساحقاً ثل عرش كسرى، والقادسية كما وصفها الباحثون والمؤرخون هي موقع لا يبعد عن الكوفة بالعراق إلّا مسافة قليلة.

قال عمر رضا كحالة في كتابه «أعلام النساء»: وحضرت الخنساء حرب القادسية ومعها بنوها الأربعة رجال. فقالت لهم في أول الليل: يا بني أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين ووالله الذي لا إله إلّا هو إنكم بنو امرأة واحدة ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها واضطرمت لظىً على سياقها وحللت ناراً على أرواقها فتيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها تظفروا بالغنم والكرامة في الخلد والمقامة.

فخرج بنوها قابلين لنصحها عازمين لقولها ينشدون الأراجيز فقاتلوا حتى استشهدوا جميعاً.



فلما بلغها الخبر قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته، فكان عمر رضي الله عنه يعطيها أرزاق أولادها الأربعة لكل واحد منهم مائة درهم حتى قبض وماتت الخنساء سنة ٢٤هـ، وقد كان رابعهم يرتجز ويقول:

لست لخنساء ولا للأخرم
ولا لعمرو ذي السناء الأقدم

إن لم أرد في الجيش جيش الأعجم
ماض على الحول خضم خضرم

إما لفوز عاجل ومغنم
أو لوفاة في السبيل الأكرم

ولا غرابة في قوله الشعر، فهو ابن الخنساء الشاعرة التي من قولها المؤثر الذي قالته عند سماعها بموت أخيها صخر:

كل امرئ بأثافي الدهر مرجوم
وكل بيت طول السمك مهدوم

لا سُوقة منهم يبقى ولا ملك
ممن تملكه الأحرار والروم

إن الحوادث لا يبقى لنائبها
إلّا الإله وراسي الأصل معلوم

إن الشجاة التي حدّثتم اعترضت
خلف اللها لم تسوّغها البلاعيم

○○○○○

على

لقد كان لي جولة سريعة في ديوان الشاعر الشيخ عبد الله بن علوي بن محمد الحداد الذي عاش حتى النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري. وقد حصلت من تلك الجولة على معلومة بأن الحداد كان ناظماً مبدعاً. وله أشعار رائعة جمعت في ديوان وسم بـ«الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم». وقد احتوى هذا الديوان على قصائد معظمها يتصف بالنصح والإرشاد.

وقد سلك في بنائها مسلك الشعراء الذين فضلوا السير في بناء القصيدة على نمط الشعر الجاهلي وصدر الإسلام الذي قلما تجد فيه قصيدة لم تكن مقدمتها أبياتاً غزلية أو وصفاً للأطلال. والشاعر الشيخ عبد الله الحداد كانت له وقفات ممتعة في شعره الذي يأخذ بلب القارئ ويحمله على مواصلة قراءة ما احتواه «الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم» من قصائد ومنظومات حسان ذات نَفَسٍ طويل.

ولقد استوقفني من تلك المطولات قصيدة بكى فيها على ذهاب أشياء كثيرة، خاصة منها ما يتعلق بتصرم أيام عمره، تلك الأيام التي جدّ في إبداء أسفه على فقدانها دون أن يستفيد منها أو يكسب في مراحل مرور حياته بها شيئاً نافعاً يجده مدّخراً له. وقد سار بقصيدته تلك سيراً أشار فيه إلى أن بكاءه ما كان إلّا على ذهاب كذا وعلى فوات كذا.

وبـ«على» صدر أبياتاً من تلك القصيدة تنوف على عشرين بيتاً متوالية منها قوله:



تفيض عيوني بالدموع السواكب
وما لي لا أبكي على خير ذاهب

على العمر إذْ ولى وحان انقضاؤه
بآمال مغرور وأعمال ناكب

على غرر الأيام لما تصرمت
وأصبحت منها رهن شؤم المكاسب

على زهرات العيش لما تساقطت
بريح الأماني والظنون الكواذب

على أشرف الأوقات لما غبنتها
بأسواق غبن بين لاه ولاعب

على صَرْفي الأنفاس في غير طائل
ولا نافع من فعل فضل وواجب

على ما تولى من زمان قضيته
وزجيته في غير حق وصائب

على فرص كانت لو أني انتهزتها
فقد نلت فيها من شريف المطالب

○ ○ ○ ○ ○

ابن زيدون يُدْعَى عليه... وابن المياهي يدعو بنفسه!!

وحكاية ابن زيدون واسمه أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون المتوفى سنة ٤٦٣هـ مع ولادة بنت المستكفي حكاية طويلة أخذت من صفحات كتب الأدب مكاناً لا بأس به، ولا أرى داعياً لذكرها هنا، ولكن الذي حملني على ذكر ابن زيدون هنا هو عامل الصلة المتمثلة في التأمين لدعوة بين ابن زيدون وابن المياهي واسمه زين الدين عبد الكريم بن عبد اللطيف المياهي، نسبة إلى المياه؛ لأنه كان هو وأبوه يتكسبان ببيع الماء، وقد توفي سنة ٩٤٠هـ، وهذا يعني أن ابن زيدون متقدم عليه بقرابة خمسة قرون.

قال ابن زيدون في قصيدته التي بعث بها إلى ولادة يسألها فيها أن تدوم على عهده ويذكر فيها حسرته على ماضي أيامه:

غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا
بأن نغصّ فقال الدهر آمينا

فالدعاء هنا جاءه من أعدائه والتأمين لاستجابة الدعا صدر من الدهر الذي يرى ابن زيدون أنه كان ضده. وهذا واضح من قوله: «فقال الدهر آمينا» وقصيدة ابن زيدون التي جاء في عرضها هذا البيت ربما عدها بعضهم من عيون الشعر ولا بأس أن أورد هنا أبياتاً منها كقوله:

نكاد حين تُناجيكم ضمائرنا
يقضي علينا الأسى لولا تأسينا



حالت لفقدكُم أيامنا فغدت
سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

وكقوله منها :

يا ساري البرق غادِ القصر واسق به
من كان صرف الهوى والود يسقينا

وكقوله منها :

كأننا لم نبتْ والوصل ثالثنا
والسعد قد غض من أجفان واشينا

سرّان في خاطر الظلماء يكتمنا
حتى يكاد لسان الصبح يفشينا

والقصيدة طويلة، فهي تبلغ نحواً من خمسين بيتاً. أما التأمين لاستجابة دعاء زين الدين المياهي على من كان يهواه ويعشقه فقد حصل من الهوى، حيث أمَّن لدعائه، وذلك بقوله :

ولقد شكوتك في الضمير إلى الهوى
ودعوت من حنقي عليك فأمنا

منيت نفسي من وصالك قبلةً
ولقد يغر المرء بارقة المنى

○ ○ ○ ○ ○

بوران ترثي أخوين كما رثت الخنساء أخوين!!

وبعد مضي تسعة قرون أو أكثر على تفجع الخنساء، واسمها تماضر بنت عمرو بن الحرث بن الشريد من بني سليم على قتل أخويها معاوية وصخر اللذين حزنت عليهما حزناً شديداً فأكثرت من رثائهما، وكان رثاءً بليغاً يهز العواطف بما فيه من صدق التعبير عما تقاسيه من الحزن. بل لقد ضرب بتفجعها وحزنها المثل، وكيف لا يضرب بها المثل وهي التي تقول في أحد مراثيها لأخيها صخر:

يا لهف نفسي على صخر وقد فزعت
خيل لخيل وأقران لأقرانِ

سَمح إذا يَسَرَ الأقوام أقدحهم
طلق اليدين وهوب غير منان

حُلاحلٌ ماجد محض ضريبته
مجذامة لهواه غير مبطان

سمح سجيته جزل عطيته
وللأمانة راع غير خوان

والقصيدة أطول من ذلك وهي موجودة في ديوان «الخنساء» أقول: بعد أكثر من تسعة قرون سطر لنا التاريخ أكثر من اسم امرأة برعت في المراثي والمدائح وغير ذلك من فنون الشعر، لكن التي أشبهت الخنساء من الشواعر من حيث فقدها لأخوين كما هي حال الخنساء هي الشاعرة

بوران بنت أثير الدين محمد بن الشحنة الحلبية والتي ولدت في حلب سنة ٨٦١هـ، وماتت أيضاً في حلب سنة ٩٣٨هـ. وقد وصفت بأنها امرأة فاضلة خيرة تقية حجت مرّتين.

أما من ناحية رثائها لأخويها محب الدين عبد البساط، وعفيف الدين فإنها قد تجاوزت ما تجاوزته الخنساء في إظهار الحزن والبوح بالمصيبة التي تمثلت في موت أخويها اللذين قيل: إن أحدهما كان عالماً والثاني كان تقياً صالحاً، وقد أشارت إلى اسميهما في الأبيات التالية التي أوردها هنا كنموذج لواقع تفجعها، تقول من تلك الأبيات:

يابَيْنُ بالغتَ في الأشجان والمحن
وجلت فينا بحد ليس بالحسن

أغلقتَ باب علوم ثم باب هدى
أخذت منّي محب الدين من وطني[1]

قد مات في غربة والشام مسكنه
يا ليتني قبل ذا أدرجت في الكفن

وقد فقدت عفيف الدين وا أسفي
فليت بعد عفيف الدين لم أكن

○○○○○

---

(١) في هذا البيت إشارة إلى ما أسلفت من أن أحد أخويها كان عالماً والآخر كان تقياً.

النصح، والناصح!!

ونحن إذا ألقينا نظرة عابرة على فلسفة النصح، ثم اتجهنا إلى فهم عقلية الناصح وجدنا في بعض الحالات تضارباً، بل تنافراً شديداً بين مفهوم النصيحة وحالة الناصح. أما كيف ذلك؟ فالإجابة عبر القول بأن الدارس لهذا الأمر يجد من المواقف الكثيرة ما يحقق له قناعة بأنه كثيراً ما تجري نصيحة عظيمة على لسان من يحتاج إليها قبل غيره من الناس.

لكن من الذي يستطيع أن يوجد لدى ذلك الناصح قناعة بأنه أحق بنصحه عمن سواه، أو قلَّ من يجرأ على أن يقول: أنت أحق باتباع ما تقول.

ثم إننا نجد في المقابل لذلك نصيحة ركيكة الأسلوب ومفككة العبارات. لكنها صادرة عن ناصح قد امتلأ قلبه بالرغبة في أن يرى الناس على ما يريد، وأن يكونوا على ما هو كائن عليه من صفاء العقيدة وسمو الأخلاق، وهذا النوع له علينا حقان، الأول: الإنصات لما يقول، والثاني: المشورة بتثقيف نفسه والتعمق في البحث عن كل ما يريد أن يقدمه وينصح به، بأي أسلوب كان في أبيات من الشعر، أو أسطر من النثر.

وهناك فئة تجهل أسلوب النصح ولا تميز بينه وبين التوبيخ أو العتاب واللوم فتلبس التوبيخ والعتاب لباس النصح حيناً، وحيناً تلبس النصح ثوب اللوم فيحصل لها الازدراء بها والسخرية منها بل إنها لتقاس بمقاييس الحمق، وينظر إليها بمنظار التهكم. والنصيحة يكون لها



وقع لدى كثير من الناس إذا جاءت في قول مطرز بالبديع وموشي بالحكمة والبلاغة.

ويحسن بنا أن نعرج في نهاية هذا الموضوع على لون من ألوان النصح لنرى نموذجاً من الأسلوب المؤثر، وليكن ذلك من أسلوب الشعر، فهذه قصيدة طويلة للعلامة الشيخ عبد الله بن عمر بن عبد الله بن مخرمة المتوفى سنة ٩٧٢هـ، منها قوله:

واسمع أخي نصيحة من ناصح
إن النصيحة ليس يخفى فضلها

انظر إلى اللّه الكريم ولذ به
واقصده في جلّ الأمور وقلّها

وإذا الأمور تضايقت وتعقدت
فاضرع إليه فإنه المرجو لها

والصدق فالزم في حديثك كله
والوعد أوف به فذاك أجلها

واترك مصاحبة الكذوب ومن
تكن عاداته عند النميمة حملها

وتغاض عن عيب الأنام فإن من
يطلب معايبها رماه بنُسْلها

واحفظ حقوق الوالدين وقم بها
والأهل والأصحاب واحمل ثقلها

وانصب لكسب المال كي تكفى به
منن اللئام في الاحتياج لذلها

○ ○ ○ ○ ○

مقدمة كتاب العباب!!

وبعض المؤلفين يحتار عندما يريد اختيار مقدمة لمؤلَّفه خاصة منهم الذين لهم مؤلفات كثيرة ويرون ضرورة كتابة مقدمة لكل منها، فهم إما أن يجعلوا المقدمة لذكر الأسباب التي دعت إلى تأليف الكتاب، أو التنويه عن محتوياته بأسلوب مشوق يشد القارئ إلى قراءة موضوعاته، أما الإطراء فإنهم لا يتجاسرون على إطراء أنفسهم لكنهم إذا رغبوا في ذلك لجؤوا إلى أصحاب الأقلام المعروفة وطلبوا إليهم كتابة المقدمة.

ومن الطبيعي أن مقدمة يكتبها غير المؤلف سوف تكون بمثابة التوابل والبهارات المشهية حتى وإن كانت الطبخة غير ناضجة. ورحم الله القدامى الذين لا ينظرون إلى الإطراء ولا يطلبون من أحد أن يقدم لمؤلفاتهم بل هم الذين يصنعون للقارئ تصوراً حقيقياً لمحتويات الكتاب.

ولقد قرأت في كتاب «النور السافر عن أخبار القرن العاشر» لمحيي الدين العيدروسي أن الشيخ صفي الدين أبو السرور أحمد بن عمر بن محمد المرادي الشهير بالمزجّد المتوفى سنة ٩٣٠هـ، الذي أفتى بحلية قهوة البن عندما خاض الناس في أمرها وصاروا بين محرِّم ومحلل[١]، والذي يهمنا من هذه الترجمة هو أن الشيخ صفي الدين المرادي المزجّد قد ألف مصنفاً في الفقه سماه «العباب المحيط بمعظم نصوص الشافعي والأصحاب».

---

(١) وموضوع القهوة أخذ مساحة كبيرة في صفحات الأدب الفصيح والعامي. وقد ألفت في ذلك كتاباً مكوناً من ثلاثة أجزاء وسميته «الصفوة مما قيل في القهوة».



قال محيي الدين العيدروسي: وهو كتاب كاسمه، وكما وصفه جامعه رحمه الله، وقد قال فيه صفي الدين شعراً منه قوله:

ألا إن الـعـبـاب أجـل سـفـر
من الـكـتـب الـقـديـمـة والـجـديـده

كـتـاب قـد تـعـبـت لـطـالـبـيـه
وكـانـت مـسـافـتـه بـعـيـده

وغصت على الخبايا في الزوايا
فـهـا هـي فـيـه بـارزة عـتـيـده

وكـم قـد رضـت فـيـه جـيـاد فـكـري
ومـرت لـي بـه مـدد مـديـده

إلـى أن بـلـغ الـرحـمٰـن مـنـه
مـرادي مـن مـواهـبـه الـمـديـده

ومنه قوله:

إلـهي اجـعـلـه لـي ذخـراً وضـاعـف
ثـوابـي مـن عـطـايـاك الـحـمـيـده

وجـد بـقـبـولـه واجـعـل جـزائـي
رضـاك وجـنّـة الـخـلـد الـمـشـيـده

○ ○ ○ ○ ○

انظريني!

ولقد عنون الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي إحدى قصائده بـ«مشهد السماء» وهي تبلغ أحد عشر بيتاً اتكأ في مطالع أبياتها عدا البيت الأول منها على كلمة «انظريني» وقد خاطب فيها سماء العراق.

والذي يقرأ ديوان الزهاوي يجد أنه من الشعراء الذين قد عشقوا الاتكاء على بعض الحروف أو الكلمات في كثير من قصائده.

أما قصيدته التي ناجى فيها سماء العراق وطلب إليها أن تنظر إليه فمنها قوله:

أنـت مـمـا تـبـديـنـه مـن صـفـاء
يـا سـمـاء الـعـراق خـيـر سـمـاء

انـظـريـنـي فـقـد أحـبـك قـلـبـي
وأحـبـتـك مـثـلـه حـوبـائـي

ولكن بأي شيء يطلب إليها أن تنظر إليه وفي أي وقت يرغب منها أن تنظر إليه، إنه يطلب إليها أن تنظر إليه ليلاً عندما تغيب الشمس وأن تبصره بعيون نجومها في غسق الليل.

انـظـريـني لـيـلاً إذا الـشـمـس غـابـت
بـعـيـون الـنـجـوم في الـظـلـمـاء

ويصرعلى أن تنظر إليه إذا جن الظلام وهجعت الخليقة:

انـظـريـنـي إذا الـخـلـيـقـة أخـفـت
مـا لـهـا فـوق الأرض مـن ضـوضـاء

ويطلب إليها أن لا تغفل عنه عندما يكون للطبيعة في أوج بهجتها المتمثل في صفاء الطبيعة إلى خرير الماء:

انظريني إذا الطبيعة أصغت
في الدياجي إلى خرير الماء

ويزيد من مطالبته لها بالنظر إليه في كل فصل من فصول السنة حتى في فصل الخريف الذي تتساقط فيه الأوراق:

انظريني إذا الخريف تراءى
آسيا من أشجاره الجرداء

وحتى إذا ما تلبدت السماء بالغيوم والسحب فإنه يصف للسماء من أين تنظر إليه:

انظريني من الفروج خلال
السحب سراً بعينك الزرقاء

ويختم القصيدة مبلغاً سماء العراق بأنه يبادلها النظر وأن عليها مواصلة ذلك:

انظريني إذا نظرت بعيني
وهي شكري إليك عند البكاء

○ ○ ○ ○ ○

توافق قصة حديثة، مع قصة قديمة!!

قال لي راشد عبد الله الرشيد وهو رجل من أهالي روضة سدير التي تبعد عن الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية بـ١٧٠كم من الناحية الشمالية الغربية، وهو عندي ثقة. قال: إن ابنته التي كانت تبلغ من العمر خمس سنوات أصيبت بالعمى فصارت تقول له قولاً معناه، لماذا طال الليل؟. فتأثر من هذه العبارة وزاد تأثره عندما رآها وهي تلتمس ثقباً في جدار كانت تطل منه على الشارع وترى من خلاله المارة. قال: فبتّ ليلة النهار الذي رأيتها فيه على تلك الحال وما طاب لي نوم فتوضأت وعمدت إلى المسجد فأخذت أصلّي وأضرع إلى الله وأتوسل أن يعيد إليها بصرها.

قال: ولما أصبحنا قامت مبصرة، وقد نظم قصيدة نبطية في ذلك لا أرى لإيرادها هنا مناسبة لأن للقصة القديمة المماثلة شعراً فصيحاً والقصة أوردها صاحب كتاب «النور السافر» عند ترجمته للفقيه محمد بن الحسن بن عبدويه المتوفى سنة ٩٤١هـ، حيث قال: كف بصر ابن عبدويه في آخر عمره، ووجد أحد تلامذته طبيباً وجاء به إليه، قال تلميذه الذي جاء بالطبيب إليه: ولما كان آخر اليوم الذي قدمنا فيه عليه دعا بابن ابنٍ له فقال له: اكتب ثم أملى عليه شعراً:

وقالوا قد دهى عينيك سوء
فلو عالجته بالقدح زالا

فقلت الرب مختبري بهذا
فإن أصبر أنل منه منالا



وإن أجــزع حــرمــت الأجــر مــنــه
وكــان خــصــيــصــتي مــنــه الــوبــالا

وإنـــي صـــابـــر راض شـــكـــور
ولـــســـت مــغــيــراً مــا قــد أنــالا

صــنــيــع مــلــيــكــنــا حــسـن جــمــيــل
ولــيــس لــصــنــعــه شــيء مــثــالا

وربــي غــيــر مــتــصــف بــحــيــف
تــعــالــى ربــنــا عــن ذا تــعــالــى

قال: ولما بلغ قوله: وإني صابر راض شكور... البيت... رد الله تعالى عليه بصره، وأضاء له المسجد وعاين ابن ابنه وهو يكتب وتكامل بصره بفضل الله تعالى فقال التلميذ: أعط الطبيب ما شرط له فقد حصل الشفاء بإذن الله تعالى لا بمداواته.

وهاتان القصتان تدخلان تحت مفهوم الفرج بعد الشدة، وهو باب واسع قيلت فيه أشعار كثيرة منها قول أحدهم:

صــبــر الــنــفــس عــنــد كــل مــهــم
إن فــي الــصــبــر حــيــلــة الــمــحــتــال

ربــمــا تــجــزع الــنــفــوس مــن الأمــر
لــهــا فــرجــة كــحــل الــعــقــال

○○○○○

جانب من مداعبة دعبل وهجائه!!

والشاعر العباسي دعبل بن علي الخزاعي الذي عاصر المأمون وهجاه ومدحه يعد من الشعراء الذين لا يشق له غبار في ميدان الشعر، ولقد أشار محقق ديوانه الدكتور محمد يوسف نجم إلى أن المصادر التي جمع منها شعر دعبل كانت شحيحة، على الرغم من أن أهل التراجم والسير يذكرون أنه كان عند ولده الحسين ستة مجلدات في كل مجلد ثلاثمائة ورقة كلها شعر دعبل... ولا أريد هنا الإطالة في البحث عن أسباب ضياع شعره أو الاحتفاظ به لدى أصحاب المكتبات الخاصة فليس هو الشاعر الذي فقد الكثير من شعر وإنما هو واحد من مئات الشعراء الذين لم يبق من شعرهم إلا مقطعاً بسيط وشوارد أبيات ضمن بقائها الاستشهاد بها لأن هذا جانب يحتاج إلى بحث عميق وتحقيق وافٍ لذا أدعه وأتجه إلى البحث في جانب من جوانب الهجاء عنده، لا لأأكد به أن دعبلاً شاعراً هجاءً فقط، وإنما لأطرح هنا في هذا الموضوع ما يشبه المداعبات حيناً وما يرقى إلى مستوى الهجاء المقذع.

فمما جرى منه مجرى المداعبة أنه كان ضيفاً لرجل فقام لحاجته فوجد الكنيف ـ وهوما يشبه الحمام اليوم ـ مغلقاً فلم يتهيا فتحه حتى أعجله الأمر فقال:

إن من ضنّ بالكنيف عن الضيـ
ـف بغير الكنيف كيف يجود

ما رأينا ولا سمعنا بحش
قبل هذا لبابه إقليد



إن يكن في الكنيف شيء تخبّا
هُ فعندي إن شئت منه مزيد

ومن هجائه الخفيف أنه روى عن محمد بن جرير أنه قال: كنت مع دعبل بالصيمرة وقد جاءني نعي المعتصم وقيام الواثق بالأمر. فقال لي دعبل: أمعك ما تكتب فيه، قلت: نعم، فأخرجتُ قرطاساً فأملى عليّ بديهاً:

الحمد للّه لا صبر ولا جلد
ولا عزاء إذا أهل البلا رقدوا

خليفة مات لم يحزن له أحد
وآخر قام لم يفرح به أحد

فمرّ هذا ومرّ الشؤم يتبعه
وقام هذا فقام الظلم والنكد

ومن هجائه المقذع وألفاظه الساقطة البذيئة الجارحة ما روي أنه عرضت له حاجة إلى صالح بن عطية الأضجم فقصر عنها ولم يبلغ ما أحبه دعبل فيها فقال يهجوه:

أحسن ما في صالح وجهه
فقس على الغائب بالشاهد

تأملتْ عيني له خِلقَةً
تدعو إلى تَزْنيةِ الوالد

ooooo

لذعات دعبلية!!

في موضوع سابق عنوانه: «جانب من مداعبات دعبل وهجائه» ألمحت إلى شيء قليل من أخبار دعبل وماله من مواقف جريئة على الهجاء والمداعبة. ولقد عنّ لي عند قراءة ديوانه الذي حوى فنوناً من المداعبات اللاذعة والمؤلمة والهجاء الصريح الممزوج بأقذع الألفاظ، أن أبحث عن اسم دعبل في قواميس اللغة لأرى مدى انطباقه على سلوكه ومنهج حياته اقتداءاً ببعض أصحاب الفراسة الذين يطبقون في بعض الأحيان الاسم على مسماه ويستشفون منه نهجه في الحياة فعمدت إلى لسان العرب مادة «د .ع .ب .ل» فإذا بابن منظور يقول فيها: الدّعْبَل: الناقة الشديدة. ثم يذكر أن دعبلاً شاعر من خزاعة، والمعني بذلك شاعرنا دعبل بن علي الخزاعي ويذكر أن ابن العربي قال: يقال للناقة إذا كانت فتية شابة: هي القرطاس والدعبلة والدعبل والعيطموس. وبهذا التعريف المعنوي لاسم دعبل قد نجد نسبة بسيطة يمكن أن نطبقها على سلوك واتجاه دعبل من حيث أن طبع الناقة يمتزج بالعنف حيناً.

ومن اللذعات الدعبلية التي اخترتها لهذا الموضوع. ما حَدّث به أحمد بن خالد بقوله: كنا يوماً بدار صالح، رجل من عبد قيس ببغداد ومعنا جماعة من أصحابنا فسقط على كنيسة في سطحه ديك طار من دار دعبل فلما رأيناه قلنا: هذا صيد فأخذناه فذبحناه وشويناه. وخرج دعبل فسأل عن الديك فعرف أنه سقط في دار صالح فطلبه منا فجحدناه وشربنا يومنا فلما كان في الغد خرج دعبل فصلى الغداة ثم جلس على باب المسجد وكان ذلك المسجد مجمعاً للناس يجتمع فيه جماعة من العلماء وينتابهم الناس فجلس دعبل وأنشد قوله:

أسَرَ المؤذن صالح وضيوفُهُ
أسر الكميّ هفا خلال الماقط[1]

بعثوا عليه بناتهم وبَنيهمُ
ما بين ناتفة وآخر سامط

يتنازعون كأنهم قد أوثقوا
خاقان أو هزموا كتائب ناعط[2]

نهشوه فانتزعت له أسنانهم
وتهشّمتْ أقفاؤهُمْ بالحائط

ومن لذعاته المؤلمة أنه لما بويع إبراهيم بن المهدي قلّ المال عنده. وكان قد لجأ إليه أعراب من أعراب السواد وغيرهم من أوباش الناس وأوغادهم فاحتبس عليهم العطاء فجعل إبراهيم يسوفهم وهم لا يرون لوعده حقيقة إلى أن خرج رسوله إليهم يوماً وقد اجتمعوا وضجوا فصرح إليهم بأنه لا مال عنده، فقال قوم من غوغاء أهل بغداد: أخرجوا إلينا خليفتنا ليغني أهل هذا الجانب ثلاثة أصوات فتكون عطاءهم، ولأهل هذا الجانب مثلها، فأنشد دعبل بعد أيام:

يا معشر الأجناد لا تقنطوا
وارضوا بما كان ولا تسخطوا

فسوف تُعْطَون حنينيّةً
يلتذّها الأمرد والأشمط[3]

---

(١) الماقط: المضيق في الحرب.

(٢) ناعط: قبيلة من همدان وأصله جبل نزلوا به فنسبوا إليه.

(٣) الحنينية: نسبة إلى حنين المغني، والمعبديات نسبة إلى معبد المغني، وفي ذلك سخرية به وبأنه لا يهب إلا الأغاني لأنه كان معنياً.



والمعبديات لقوّادكم
لا تدخل الكيس ولا تربط
وهكذا يَرْزُق قوّاده
خليفةُ مصحفه البربط[1]

○○○○○

---

(١) البربط: آلة موسيقية تشبه العود.

وماذا يريد دعبل بعد من أبي دلف

لقد رُوِيَ أن دعبلاً الخزاعي امتدح أبا دلف العجلي بقصيدة شكا فيها الغربة وسوء الحال فوجه إليه أبو دلف بجارية عذراء، فاجتهد دعبل في افتضاضها طول ليلته فلم يقدر فكتب إلى أبي دلف هذه الأبيات:

اللّه أجرى من الأرزاق أكثرها
على يديك بخير يا أبا دلف

ما خطّ «لا» كاتباه في صحيفته
كما تخطّط «لا» في سائر الصحف

بارى الرياح فأعطى وهي جارية
حتى إذا وقفت أعطى ولم يقف

ما يصنع الشيخ بالعذراء يملكها
كجوزةٍ بين فكي أدردٍ خَرِفِ

إن رام يكسرها بالسن تثلمه
وكسرها راحة للهائم الدنِفِ

وإذا أمعنا النظر في تلك الأبيات بعين ناقدة وجدنا أنها تنطوي على عدة أمور وتحتمل عدة تفسيرات فلسفية لعل أقربها إلى الذهن مداعبة أبي دلف بها. ثم إظهار البراعة في سبك المديح كيف لا، وهو نفي وجود «لا» الدالة على الرفض والامتناع عن تحقيق ما يطلب إليه بينما هي موجودة في صحف الآخرين. أما قوله: «بارى الرياح» إلى آخر البيت فهو قمة في المدح الموقوف على استمرارية العطاء الذي لا



يتوقف مثل ما تسكن الرياح وتتوقف، وإذا دخلنا على تلك الأبيات من زاوية بعيدة عن المداعبة والمديح فقد نلحظ أنها تنطوي على أمرين، الأول: أن دعبلاً ربما أنه لم تناسبه الجارية فأراد من أبي دلف أن يبدلها له للأسباب التي ذكرها وصرح بها. أو أنه كان صادقاً فيما قاله ويريد من أبي دلف أن يهبه جارية يتناسب سنها مع ما بلغه من العمر الذي أصبح معه أدرداً كما يقول.

أما أبو دلف واسمه القاسم بن عيسى بن دريس العجلي المتوفى سنة ٢٢٥هـ، والذي كان قائداً من قواد المأمون والمعتصم فإنه حينما وهب دعبلاً تلك الجارية آخذاً بمبدأ قول أحد الشعراء:

إذا شئت قوماً فاجعل الجود بينهم
وبينك تأمن كل ما تتخوّف
فإن كشفتْ عنك الملمات عورةً
كفاك لباس الجود ما تتكشف

بل إن أبا دلف الذي يتمتع بحنكة السياسة وهو الشاعر الذي لا يشق له غبار في الشعر والكتابة والأدب قد جعل نصب عينه في تفضله وبذله لأمواله قول البحتري:

وأشقُّ الأفعال أن تهب الأنـ
فس ما أغلقت عليه الأكف

○○○○○

حتى

هناك حكمة تتردد على ألسنة الناس كلما اتجه الكلام عن الزمن وعلاقته بالإنسان ومعناها: من لم يؤدبه أبواه أدبه الزمان، ومقولة أخرى تحقق واقعاً لا جدال فيه وهي: الزمان كفيل بتعليم الإنسان. وهدفي من سياق هاتين العبارتين هو الدخول، بل الوصول من خلالهما إلى عرض أمرين قد استحسنت بسطهما في هذا الموضوع وإن لم يكونا من الأهمية بمكان، فالأول منهما الوقوف بالقارئ الكريم على مطلع قصيدة للشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي المتوفى ١٣٥٤هـ، حيث ضمنه معنى العبارتين السابقتين اللتين حققتا ما للزمان من دور فعّال في تهذيب الإنسان وتعليمه وذلك بقوله:

سيهذب المستقبل الإنسان
حتى يكون أبرّ مما كانا

أما الثاني منهما فهو المضي مع الزهاوي في بعض الأبيات التي استهلها بالبيت السابق والتي اتكأ في مطالعها على «حتى» وسياقه (حتى) فرضه البيت الأول المتقدم ذكره فهو يقول بعده: إن الإنسان سيهذبه الزمان حتى يبدل قساوته برأفة وحنان:

حتى يبدل من خصومته رضى
ومن القسامة رأفة وحنانا

ويريد من الزمان أن يمعن في تهذيب الإنسان وتعليمه:

حتى يوالي غيره في أرضه
حتى يرى كل الورى إخوانا



وليس هذا فحسب بل:

حتى يكون الناس أجمعهم يداً

تجني الثناء وتزرع الإحسانا

ولا يتوقف تهذيب المستقبل للإنسان عند هذا وإنما:

حتى يكون البعض مسعد بعضهم

وجميعهم لجميعهم أعوانا

وليس هذا بالكافي من الزمان أو من المستقبل بل:

حتى يشع العلم بعد نزوره

بين الورى فينوّر الأذهانا

وإلى جانب هذا يبقى الزمان مهذباً للإنسان:

حتى تعز الأرض بعد هوانها

وتنال بعد خرابها عمرانا

وحتى:

حتى يسود الأمن في أكنافها

حتى يعم فيسعد السكانا

والقصيدة أطول من ذلك وهي موجودة في «ديوان الزهاوي».

○ ○ ○ ○ ○

عفو المأمون وعطفه

والمأمون هو عبد الله بن هارون الرشيد. ويكنى بأبي العباس ولد سنة ١٧٠ وأمه ليست بعربية واسمها (مراحل) وقد ماتت في نفاسها به.

والمأمون يعد من ذوي الفطنة والنباهة والذكاء. ولقد آلت إليه الخلافة بعد قتل أخيه الأمين محمد.

والمأمون له مواقف مختلفة الأساليب كما أن له مع الشعراء والأدباء والعلماء مداعبات ذكية وسيرة حافلة بالمواقف الأدبية. سأذكر شيئاً منها في مواضيع تأتي إن شاء الله.

ويعطر المؤرخون سيرة المأمون بصور من عفوه وحلمه وعطفه. فمن ما يروى عن عفوه أن دعبلاً الخزاعي هجاه وهجا أباه بأبيات منها قوله:

إني من القوم الذين سيوفهم
قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

رفعوا محلك بعد طول خموله
واستنقذوك من الحضيض الأوهد

وكان أن عفا عنه وأعطاه الأمان، وقيل للمأمون مرة أخرى: إنَّ دعبلاً قد هجاك، فقال: وأي عجب في هذا، هو يهجو أبا عباد فلا يهجوني أنا، فمن أقدم على جنون أبي عباد أقدم على حلمي، ثم قال لجلسائه: من كان فيكم يحفظ شعره في أبي عباد فلينشده، فأنشده بعضهم أبياتاً منها:



أولى الأمور بضيعة وفساد
أمرٌ يدبره أبو عباد

خرقٌ على جلسائه فكأنهم
حضروا لملحمة ويوم جلاد

أما عطف المأمون وعدله فقد روي أنه كان يجلس للمظالم وقد تقدم إليه في مجلس من مجالسه امرأة عليها هيئة السفر، وعليها ثياب رثة فوقفت بين يديه وقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم، فقال لها: وعليك السلام يا أمة الله. تكلمي بحاجتك فقالت أبياتاً منها:

يا خير منتصف يهدى له الرشد
ويا إماماً به قد أشرق البلد

تشكو إليك عميد القوم أرملة
عُدْي عليها فلم يترك لها سبد

قالوا: فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه وهو يقول ما منه هذين البيتين:

هذا أوان صلاة العصر فانصرفي
وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد

فالمجلس السبت إن يقض الجلوس لنا
ننصفك فيه وإلّا المجلس الأحد

قالوا: فلما كان يوم الأحد جلس، فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة فسألها المأمون: أين خصمك؟ قالت: الواقف على رأسك وأومأت إلى العباس ابنه، وتنهى القصة إلى أنه أنصفها ورد لها ضيعتها وأمر عامله بأن يحسن معاملتها وأمر لها بنفقة.

ثلاثة... وثلاثة!!

والذين يحرصون على تدوين السير الذاتية يتحسسون توافق بعض الأشياء ليشيروا إليها إشارة المكتشف لشيء غفل عنه من سبقه. ففي كتاب «الملوك والشعراء» للدكتور جبرائيل سليمان جبّور وردت إشارة إلى أن هناك تعادل ثلاثي بين ثلاثة من خلفاء بني أمية، وثلاثة من خلفاء بني العباس كتعادل زيادة في شيء ونقصان في آخر، فالثلاثة الخلفاء الذين من بني أمية هم الذين من بين الخلفاء في بني أمية أمهاتهم غير عربيات، والثلاثة الخلفاء الذين من بين الخلفاء في بني العباس أمهاتهم عربيات، فثلاثة بني أمية هم:

١ ـ يزيد بن الوليد بن عبد الملك وأمه فارسية اسمها شاهفرند بنت فيروز بن يزدجرد وأم فيروز بنت شبرويه بن كسرى، وأم شبرويه بنت خاقان ملك الترك وأم أم فيروز بنت قيصر عظيم الروم. قال ذلك السيوطي في تاريخ الخلفاء.

٢ ـ إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك أمه أم ولد، لم يذكر السيوطي اسمه وإنما قال: هو أخو مروان الحمار لأمه.

٣ ـ أبو عبد الملك محمد بن مروان بن الحكم، ويلقب بالجعدي نسبة إلى مؤدبه إبراهيم بن أدهم الجعدي، وبالحمار لأنه أصبر من الحمار في الحروب، وقيل: لقب بالحمار لأن العرب تسمي كل مائة سنة حماراً فلما قارب ملك بني أمية مائة سنة لقبوا مروان بالحمار.

أما الثلاثة الذين من بني العباس أمهاتهم عربيات فهم:



١ ـ السفاح واسمه أبو العباس عبد الله بن محمد مات سنة ١٣٦ هجرية، أمه ربطة الحارثية.

٢ ـ المهدي أبو عبد الله محمد بن المنصور أمه أم موسى بنت منصور الحميرية.

٣ ـ محمد الأمين بن هارون الرشيد أمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور، قيل: إن محمد الأمين لما ولي الخلافة بذر أموال الدولة وأما سيرته لم تكن محمودة حسب أقوال المؤرخين فقد أنفق الأموال في اللهو والترف، وزعموا أنه أجاز مرة أحد المغنين بملئ زورقه ذهباً.

قيل: إنه لما حوصرت بغداد خرج هو وخادم له اسمه كوثر فأصيب كوثر برجمة في وجهه فجعل الأمين يمسح الدم عن وجهه ثم قال:

ضربوا قرّة عيني
ومن أجلي ضربوه

يا هلال الدجن قل لي
ما لقومي جهلوه

طلع البدر نهاراً
فلذا لم يعرفوه

أخذ اللّه لقلبي
من أناس أحرقوه

ولم يقدر على زيادة فأحضر عبد الله بن التميمي الشاعر فقال له: قل عليها، فقال:

ما لمن أهوى شبيه
فبه الدنيا تتيه



وصله حلوٌ ولكن
هجره مرّ كريه

من رأى الناس له الفضـ
ل عليهم حسدوه

مثل ما قد حسد القا
ئم بالملك أخوه

فأوقر له ثلاثة بغال دراهم.

○ ○ ○ ○ ○

نهاية حياة بشار... ما سببها؟!!

إن في أخبار من سلف لعبرة. وفيما خلفوه من أدب لمتعة حتى وإن كان فيه ما فيه من مواقف فيها شيء من التعسف الذي يعقبه الندم أو يعضده البطش والتجبر

ولعل حياة أي أديب أو فيلسوف أو عالم أو كاتب أو شاعر لا تخلو من المواقف الطريفة الظريفة، أو الصعبة المخيفة، أو قاصمة الظهر المميتة، وهذه الأخيرة تمثل نهاية حياة الشاعر الأعمى بشار بن برد.

لقد روي أن بشار بن برد مدح الخليفة العباسي المهدي بن المنصور المتوفى سنة ١٦٨هـ، بشعر فيه تشبيب يدعو إلى الفسق والفجور فنهاه عن التشبيب وذكر النساء والعشق فوفد عليه بعد ذلك واستأذن، فقال الحاجب له: قد أذن لك وأمرك ألّا تنشد شيئاً من الغزل والتشبيب، فدخل وأنشد قوله الذي منه:

يا منظراً حسناً رأيته
من وجه جارية فديته
بعثت إليّ تسومني
بُرد الشباب وقد طويته
إن الخليفة قد أبى
وإذا أبى شيئاً أبيته

ومنه:

ويشوقني بيت الحبيب م
إذا ذكرتُ وأين بيته

قــام الــخــلــيــفــة دونــه
فــصــبــرت عــنــه ومــا قــلــيــتــه

ونــهــانــي الــمــلــك الــهــمــا
م عــن الــنــسـيــب ومــا عــصــيــتــه

ومنه:

أُصْــفــي الــخــلــيــل إذا دنــا
وإذا نــــأى عــــنّــــي رأيــــتــــه

وأمــيــل فــي أنــس الــنــديــم
مــن الــحــيــاء ومــا اشــتــهــيــتــه

لكن بشاراً لم ينل من الخليفة المهدي ما كان يؤمله، فلم يلبث بعد زمن أن هجا المهدي، فبلغ المهدي ما قاله بشار من هجاء فيه. فأمر بجلده فلما ضربه الجلاد سبعين سوطاً بان الموت فيه، فألقي في سفينة حتى مات، ثم رمي به في موضع يقال له: البطيحة فجاء أهله فحملوه إلى البصرة ودفن بها.

قالوا: وندم الخليفة المهدي على قتله فيما بعد، وإن كان لي تعليق ولو بعد ألف ونيف من السنين على هذه الحادثة فإن تعليقي لا يتجاوز هذه العبارة: إنها نهاية قررها لسان صاحبها على نفسه.

○ ○ ○ ○ ○

سؤال عن اليتيم!!

وأعود للكتابة عن اليتيم كلما ذكرني شاعر بقصيدة قالها في اليتيم مثل ما أعود للكتابة عن الفقر وما يحدثه من سوء حال وتعكير صفو واعتلال لمن يحط بساحته.

واليتيم ذلك الطفل الذي اختلفت الآراء في متى يظل متصفاً بصفة اليتم؟. وهل هو الذي فقد أباه أم هو الذي فقد أمه؟ هذه التساؤلات وغيرها وقف أبو حيّان التوحيدي طويلاً عند جانب منها فأدرجه ضمن ما أعده من أسئلة توجه بها إلى الفيلسوف الحكيم أبي علي أحمد بن محمد مسكويه في كتابه «الهوامل والشوامل» وهو كتاب يعد تأليفه مناصفة بينه وبين مسكويه فالأسئلة من أبي حيان سماها (الهوامل) والأجوبة من مسكويه سماها (الشوامل) ومن ضمن هوامل أبي حيان سؤاله عن اليتيم بقوله:

لم كان اليتيم في الناس من قبل الأب وفي سائر الحيوان من قبل الأم؟ فإن قلت: لأن الأم ههنا كافلة فإن الأمر في الناس كذلك وفيه سرّ غير هذا ونظر فوقه، فأجاب مسكويه بقوله: إن الإنسان من حيث هو حيوان مشارك للبهائم في هذا المعنى محتاج إلى ما يقيمه من الأقوات التي تحفظ عليه حيوانيتّه.

ومن حيث هو إنسان مشارك للفلك في هذا المعنى يحتاج إلى ما يبلغه هذه الدرجة بالتعليم والتأديب، لأن الأدب يجري من النفس مجرى القوت من البدن، والذي يقوم بالحال الأولى هي الأم، والذي يقوم بالحال الثانية هو الأب.

ولما كانت الحالة الثانية أشرف أحواله، وهي التي بها يصير هو



ما هو: أعني أن يصير إنساناً، وجب أن يكون يتمه من قبل أبيه، ولما كان سائر الحيوانات كمال حيوانيتها في القوت البدني وجب أن يكون يتمها من قبل الأم، ولعل الإنسان قبل أن يبلغ حد التعلم من الأدب، وفي حال حاجته إلى الرضاع إذا فقد أمّه سُمّي يتيماً من قبل الأم، ولم يمتنع إطلاق ذلك عليه.

والشعراء يتوجعون من حالة اليتم ويطلقون صيحاتهم الداعية إلى العطف عليه، وهذه أبيات من قصيدة للشاعر محمد طاهر الجبلاوي، عنوانها «اليتيم»:

إيه يا أيها اليتيم المعنى
زدت قلبي مما تقاسي كلوما

أنت دون الأطفال أكبرت غمي
وعهدت الأطفال تنسى الغموما

إن يكن خضرم المصائب سجناً
كنت فيه المكبل المظلوما

أو يكن معرض الحوادث أفقاً
كنت فيه دياجراً وغيوما

حكمة اللّه يا يتيم ولكن
كيف لاتسعد الحياة اليتيما

هو أولى إذا بكى بشفيع
يمسح الدمع أو يريه النعيما

هذه حالة شقاء وبؤس
هل رأى في الوجود قلباً رحيما

أيها البائس اليتيم عزاء
لست في هذه الحياة مقيما

أطوار تأليف كتاب

«الإمتاع والمؤانسة»

كيف تم تأليف كتاب «الإمتاع والمؤانسة»؟ والإجابة على هذا السؤال تأتي ضمناً لما جاء في مقدمته التي تفيد أن أبا الوفاء، واسمه محمد بن محمد بن محي البوزجاني وهو أحد العلماء المشاهير في الهندسة كان صديقاً لأبي حيان التوحيدي صاحب كتاب «الإمتاع والمؤانسة» وللوزير أبي عبد الله العارض واسمه الحسن بن أحمد بن سعدان فقرب أبو الوفا أبا حيان من الوزير ووصل به ومدحه عنده حتى جعل الوزير أبا حيّان من سمّاره ـ ٣٧ـ ليلية كان يحدثه فيها ويطرح عليه أسئلة في مسائل مختلفة فيجيب عنها إجابات شافية... بعد ذلك طلب أبو الوفاء من أبي حيّان أن يقص عليه كل ما دار بينه وبين الوزير من حديث فأجابه أبو حيان، وصار يحضر مجلس سمره كل ليلة حتى بلغ سمره معه أربعين ليلة، وكان أبو الوفا يطلب إليه أن يختم الجلسة بما يسميه ملحة الوداع، فتكون الملحة، إما نادرة لطيفة، أو أبيات رقيقة وأحياناً يحدد الوزير نوعها.

أما ملحة وداع الليلة الأولى فكان نصها: حدثنا ابن سيف الكاتب الراوية قال: رأيت جحظة قد دعا بناءاً ليبني له حائطاً فحضر فلما أمسى انقضى البنّاء إلى خره فتماكسا «أي تشاحا ويقال إذا مكسه في البيع: استحط من الثمن واستنقصه» وذلك أن الرجل طلب عشرين درهماً، فقال جحظة: إنما عملت يا هذا نصف يوم وتطلب عشرين درهماً؟ قال البنّاء: أنت لا تدري إني قد ينبتُ لك حائطاً يبقى مائة سنة. فبينما هما كذلك وجب الحائط وسقط. فقال جحظة: هذا عملك الحسن؟ قال: فأردت أن يبقى ألف سنة؟ قال: لا، ولكن كان يبقى إلى أن تستوفي أجرتك فضحك.



أما ملحة وداع الليلة الثانية والعشرين فإن الوزير قد طلب أن ينشده أبياتاً من سراة نجد ليشمّ منها ريح الشيح والقيصوم. فأنشده أبياتاً لأعرابي قديم لم يذكر اسمه منها هذه الأبيات:

مطرنا فلما أن روينا تهادرت
شقائقُ منها رائب وحليبُ

ورامت رجال من رجال ظُلامةً
وعادتْ ذُحول بيننا وذُنوب

ونصتْ ركاب للصبا فتروّحت
لهنّ بما هاج الحبيب حبيب

وطئن فناء الحي حتى كأنه
رجا منهلٍ من كرهن نحيب[1]

بني عمنا لا تعجلوا ينضب الثرى
غليلاً ويشفى المشرفين طبيب

فلو قد تولّى النبتُ وامتيرت القرى
وحُثّت ركابُ الحي حين تؤدب

وصار عيوف الخود وهي كريمة
على أهلها ذو جدتين قشيب[2]

وصار الذي في أنفه خنزوانة
ينادى إلى داعي الردى فيجيب

فعجب وقال: هذا جَنَى غرس قد جذّ أصله. ونزيح قليب قد غار مدّهُ وجزره.

---

(١) ورجا المنهل: ناحيت البئر.

(٢) وصاره يصوره أي ضمه إليه وأماله نحوه.

ألست القائل؟!!

يروى أن السفاح واسمه أبو العباس عبد الله بن محمد وهو أول ملوك بني العباس وأمه عربية، وهو أحد الثلاثة الذين كانت أمهاتهم عربيات من بين كل الخلفاء العباسيين كان يحفظ جميع أشعار الشعراء الذين وفدوا عليه وكانوا قد مدحوا قبلاً بني أمية. وقد ذكر أن أبا بجيلة دخل على السفاح واستأذنه في الإنشاد، فقال السفاح: لعنك الله. ألست القائل لمسلمة بن عبد الملك الأموي:

أمسلمةُ يا خير نجل خليفة
ويا فارس الهيجا ويا جبل الأرض

شكرتك إن الشكر حبل من التقى
وما كل من أوليته نعمةً يقضي

وألفيتُ لما أن آتيتك زائراً
عليّ لحافاً سابغ الطول والعرض

ونبّهتَ من ذكري وما كان خاملاً
ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

ثم أمره أن ينشد، فأنشد أرجوزة امتدحه فيها.

ومما تقدم نعرف أن السفاح كان شاعراً لكن أعماله كما قال الدكتور جبرائيل سليمان جبّور في كتابه «الملوك الشعراء» غطت على شعره.

وقد وصل السفاح إلى الخلافة بعد أن تغلب على مروان الأخير



آخر خليفة أموي بالشام ولم تدم خلافة السفاح أكثر من أربع سنوات مات في آخرها بالجدري سنة ١٣٦هـ.

والسفاح كان أديباً بارعاً وناقداً فطناً، قيل: إن في خطبه قوة أسلوب وبلاغة وهذا ما يعزز القول بأن له شعراً، والذين بحثوا عن أشعاره كالسيوطي مثلاً ذكروا أنه قل ما يروى له من الشعر، ومما يروى له من الشعر في بني أمية بعد أن نجح في وضع الكمين الذي قتل فيه بقية أمراء بني أمية. وصفة ذلك الكمين أنه أقام وليمة خاصة لأمراء بني أمية فلما حضروا الوليمة جميعاً أمر بضربهم بالعمد حتى قتلوا.

ومن شدة بأسه وحقده على بني أمية أنه بسط النطوع عليهم وأخذ يأكل الطعام عليها وهو يسمع أنينهم حتى ماتوا جميعاً، أما الشعر الذي روي له في مناسبة قتل بني أمية فهو قوله:

بني أمية قد أفنيتُ جمعكم
فكيف لي منكم بالأول الماضي

يُطيّب النفس أن النار تجمعكم
عُوضتمُ من لظاها شرّ معتاض

فنيتم لا أقال اللّه عثرتكم
بليث غاب إلى الأعداء نهّاض

إن كان غيظي لفوت منكم فلقد
منيتُ منكم بما ربي به راضي

○ ○ ○ ○ ○

طلب سلم الخاسر إلى أبي العتاهية أن يهجوه ثم ندم!!

وسلم الخاسر الشاعر العباسي هو سلم بن عمرو مولى بني تيم بن مرة ثم مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ذكر أبو الفرج الأصبهاني في كتابه «الأغاني» أن سلم الخاسر كان صديقاً لإبراهيم الموصلي ولأبي العتاهية الشاعر المتزهد خاصة من الشعراء والمغنيين ثم فسد ما بينه وبين أبي العتاهية وحصل بينهما بعض المهاجات التي كان البادي بها سلم.

وروي عن محمد بن العباس اليزيدي أنه قال: حدثني عمي عبيد الله والفضل عن أبيهما عن أبي محمد اليزيدي أن أبا العتاهية حضر مجلس عيسى بن عمرو، وحضر سلم الخاسر فقال له: يا أبا محمد اهجني على روي قصيدة امرئ القيس:

رب رام من بني ثعل
مخرج كفّيه في ستره

قال: فقال له: ما دعاك إلى هذا؟ قال: كذا أريد. قال أبو العتاهية: قلت له: يا هذا، أنا وأنت أغنى الناس عما تستدعيه من الشر فلتسعك العافية، فقال: إنك لتحتجز مني نهاية الاحتجاز وأراد أن يوهم عيسى أني مفحم لا أقدر على ذلك. فقال لي عيسى: أسألك يا أبا محمد بحقي عليك إلّا فعلت. فقلت:

رب مغموم بعاقبة
غمط النعمة من أشره



وامرئ طالت سلامته
فرماه الدهر من غيره

بسهام غير مبرية
نقضت منه قوى مرره

وكذاك الدهر منقلب
بالفتى حالين من عصره

يخلط العسر بميسرة
ويسار المرء في عسره

عق سلم أمه صغراً
وأبا سلم على كبره

كل يوم خلفه رجل
رامح يسعى على أثره

قال: فاغتم سلم وندم وقال: هكذا تكون عاقبة البغي والتعرض للشر فضحك عيسى وقال: قد جهد الرجل أن تدعه وصيانته ودينه فأبيت إلا أن يدخلك في حر أمك.

○○○○○

ابن الصمة يخطب الخنساء...
والخنساء ترفض خطبته!!

لقد أشرت في موضوع سبق عنوانه: «جزء من الجانب الأدبي من سيرة الخنساء» إلى أن الخنساء وهي الصحابية الجليلة كانت حياتها مليئة بألوان الأدب وبشيء من الطرف.

ففي خطبة دريد بن الصمة لها ورفضها تلك الخطبة حكاية طريفة ذكرها عمر رضا كحالة في كتابه: «من أعلام النساء» حيث قال: مرّ دريد بن الصمة بالخنساء وهي تهناء بعيراً لها ـ أي تطليه من الجرب ـ وقد تبذلت حتى فرغت منه ثم نضت ثيابها فاغتسلت. ودريد بن الصمة يراها وهي لا تشعر به فأعجبته فغدا إلى أبيها فخطبها إليه. فقال له أبوها: مرحباً بك أبا قرة إنك للكريم لا يطعن في حسبه والسيد لا يرد عن حاجته. والفحل لا يقرع أنفه، ولكن لهذه المرأة في نفسها ما ليس لغيرها، وأنا ذاكرك لها وهي فاعلة ثم دخل إليها وقال لها: يا خنساء أتاك فارس هوازن وسيد بني جشم دريد بن الصمة يخطبك، وهو ممن تعلمين ودريد يسمع فقالت: يا أبت أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح، ناكحة شيخ بني جشم هامة اليوم أوغد فخرج إليه أبوها فقال: يا أبا قُرة قد امتنعت ولعلها أن تجيب فيما بعد. فقال: قد سمعت قولكما وانصرف.

وفي رواية ابن الكلبي. قالت لأبيها: انظرني حتى أشاور نفسي، ثم بعثت خلف دريد وليدة لها فقالت: انظري دريداً إذا بال فإن وجدت بوله قد خرق الأرض ففيه بقية وإن وجدته قد ساح على وجهها فلا

فضل فيه، فاتبعته وليدتها ثم عادت فقالت: وجدت بوله قد ساح على وجه الأرض فأمسكت، وعاود دريد أباها، فعاودها فقالت له هذه المقالة المذكورة، ثم أنشأت تقول:

أتـخـطـبـنـي هـبـلـت عـلـى دريـد
وقــد طــردت ســيــد آل بــدر

مـعـاذ الـلّـه يـنـكـحـنـي حـبـركـي
يـقـال أبـوه مـن جـشـم بـن بـكـر

ولـو أمـسـيـت فـي جـشـم هـديـا
لـقـد أمـسـيـت فـي دنـيـس وفـقـر

وفي رواية أن دريد هو الذي بدأ بهجائها لما رفضت الزواج منه فلم ترد عليه فقيل لها عن ذلك، فقالت: لا أجمع عليه أن أردّه وأهجوه.

وفي رواية أن دريداً خطبها فأراد أخوها معاوية أن يزوجها منه. وكان أخوها صخر غائباً في غزاة فأبت، فأراد معاوية أن يكرهها فقالت:

تـبـاكـرنـي حـمـيـدة كـل يـوم
بـمـا يـولـي مـعـاويـة بـن عـمـرو

فـإلّا أعـط مـن نـفـسـي نـصـيـبـاً
فـقـد أودى الـزمـان إذاً بـصـخـرِ

أتـكـرهـنـي هـبـلـت عـلـى دريـد
وقــد أحـرمـت سـيـد آل بـدر

مـعـاذ الـلّـه يـرضـعـنـي حـبـركـي
قـصـيـر الـشـبـر مـن جـشـم بـن بـكـر

يـرى مـجـداً ومـكـرمـة أتـاهـا
إذا عـشـى الـصـديـق جـريـم تـمـر



سعيد بن وهب يعمي القلم
في أحجية!!

وسعيد بن وهب هو أبو عثمان مولى بني سامة بن لؤي بن نصر، مولده ونشأته بالبصرة ثم صار إلى بغداد فأقام بها، وكانت الكتابة صناعته فتصرف مع البرامكة فاصطنعوه وتقدم عندهم، وكان شاعراً مطبوعاً ومات في أيام المأمون وأكثر شعره في الغزل والتشبيب.

هكذا جاءت ترجمته في «الأغاني»، أما خير الدين الزركلي فقد أشار في كتابه: «الأعلام» إلى أن وفاته كانت في سنة ٢٠٨هـ، ولم يشر إليه ابن خلكان في «وفيات الأعيان»، ولا الكتبي في «فوات الوفيات».

وأضاف الأصبهاني في «الأغاني» إلى أن سعيد بن وهب كان فاسد الأخلاق ثم تنسك وحج راجلاً على قدميه ومات على توبته وإقلاعه عن المعاصي وعلى مذهب جميل.

وكان بعد توبته وتزهده إذا وجد شيئاً من شعره خرقه وأحرقه وكان امرءاً صدق وكثير الصلاة، وكان يزكي في كل سنة من جميع ما عنده حتى أنه ليزكي عن فضة كانت على امرأته.

وروى ابن جعفر بن قدامة قوله: حدثني حماد بن إسحاق عن أبيه، قال: حدثني عمرو بن نابة قال: كان في جواري رجل من البرامكة وكانت له جارية شاعرة ظريفة يقال لها: حسناء يدخل إليها الشعراء ويسألونها عن المعاني فتأتي بكل مستحسن من الجواب فدخل إليها سعيد بن وهب يوماً وجلس إليها فحادثها طويلاً ثم قال لها بعد ذلك:



حاجيتك يا حسنا
في جنس من الشعر

وفيما طوله شبر
وقد يوفى على الشبر

له في رأسه شق
نطوف بالندى يجري

إذا ما جف لم يجر
لدى برّ ولا بحر

وإن بلّ أتى بالعـ
ـجب العاجب والسحر

أجيبي لم أرد فحشا
ورب الشفع والوتر

ولكن صغت أبياتاً
لها حظ من الزجر

قال: فغضب مولاها وتغير لونه وقال: أتفحش على جاريتي تخاطبها بالخنى. قالت له: خفض عليك فما ذهب إلى ما ظننت وإنما يعني القلم فسرى وضحك سعيد بن وهب وقال: هي أعلم منك بما سمعت.

والألغاز في القلم كثيرة جداً ومتناثرة في كتب الأدب أذكر من ذلك قول أحد الشعراء:

طويل قصير مستطيل مخالف
رقيق غليظ ممتلئ متدور

○ ○ ○ ○ ○

القربلة: يعيره المعتوه ويخاف منه السكران

والقربلة: لقب للقاضي أبي عبد الله محمد بن عيسى من بني يحيى بن يحيى الليثي، قال عنه أبو نصر الفتح بن خاقان بن محمد بن عبد الله القيسي في كتابه: «مطمح الأنفس، ومسرح التأنس، في ملح أهل الأندلس» أنه ذكي وفطن وهو يغضب من تلقيبه بالقربلة.

أهدي إليه في يوم قفص دجاج فطلب إليه ابن شمس الضحى وكان معتوهاً إذا رد طلبه جاء من حمقه العجب العجاب فأعطاه الليثي دجاجة منها فانصرف بها مسروراً. ومر بشخص من بني زيد يلقب بديك البادية فأراد ديك البادية أن يجعل من المعتوه وسيلة إهانة واستثارة غضب للقاضي الليثي (القربلة). فقال للمعتوه: من أين لك هذه الدجاجة القربلة، أي الضعيفة. قال: هي من القاضي أبي عبد الله الليثي. قال له ديك البادية: أعدها إليه وقل له هذه قربلة فأبدلها لي بسمينة فعاد بها إلى الليثي وقال له: ما لقنه إياه ديك البادية فما كان من الليثي إلّا أن أبدلها له ثم سأله من أبلغك بأنها قربلة فوصف له الشخص فإذا به يأتي بأوصاف ديك البادية. فقال له القاضي الليثي: إن الدجاجة تحتاج إلى ديك لتكون هي وهو زوج يتناسل وأن عند ذلك الشخص الذي أبلغك بقربلة الدجاجة ديك جاءه الساعة من البادية فاذهب إليه واطلب إليه أن يعطيك ديك البادية فراح إلى الزيدي وقال: أعطني ديك البادية حتى يكون هو والدجاجة زوج يتناسل ويكثر ولده فاستشاط ديك البادية غضباً وخوفاً من أن يزيد حمق المعتوه فيأتي بما لا يرضاه قام من فوره وأعطاه ديكاً حتى لا يكرر ذكر لقبه بين الناس الذين كانوا في مجلسه.

ومن طريف ما مر على القاضي الليثي من أمور أنه بينما كان يسير في أحد الأزقة إذ عرض له فتى متأدباً يتمايل من السكر فهابه الفتى وأراد الانصراف فخانته رجلاه فاستند إلى الحائط وأطرق فلما قرب منه الليثي رفع رأسه ثم أنشأ يقول:

ألا أيها القاضي الذي عم عدله
فأضحى به في العالمين فريدا

قرأت كتاب اللّه تسعين مرة
فلم أر فيه للشراب حدودا

فإن شئت أن تجلد فدونك منكباً
صبوراً على ريب الزمان جليدا

وإن شئت أن تعفو تكن لك منة
تروح بها في العالمين حميدا

وإن أنت تختار الحديد فإن لي
لساناً على مر الزمان حديدا

فلما سمع الليثي شعره وميز أدبه أعرض عنه وترك الإنكار عليه ومضى لشأنه، والله أعلم.

وقيل لأحد: لم تركت النبيذ؟ قال: رأيت صاحبه لا يروى منه، ورأيت بعضه يدعو إلى بعض فتركت قليله لكثيره لكن أحد الشعراء يخالف ذلك حيث يقول:

اسقني بالكبير يا سعد حتى
أحسب الناس كلهم لي عبيدا

وتراني إذا انتشيت كأني
أعمر الأرض خيفة أن تميدا

لو رأى الناس في المدامة رأيي
لم يبيعوا بدرهم عنقودا



من أدب المداعبة!!

لقد غنيت المكتبة العربية بالشيء الكثير من أنواع الفكاهة القديم منها والحديث. والسبب في ذلك يرجع إلى أن المؤلفين قد جدوا في جمع شتات النكت والمداعبات التي كانت مبعثرة في ثنايا الكتب ودواوين الشعر.

والحقيقة أن القارئ يحتاج إلى راحة ذهنية وفكرية تتمثل في قطع بعض الوقت بقراءة الطرائف الظريفة والفكاهة الخفيفة. والنكت اللطيفة حتى يستعيد نشاطه للقراءة الجادة، ويقبل عليها بذهن صاف وعزم يمضي في تفهم واستيعاب ما يقرأه، وها أنذا في هذا الموضوع وما تقدمه من موضوعات فكاهية أستوقف القارئ في هذا الكتاب ليستجم بقراءة ما أودعته فيها من الطرف والنوادر والمداعبات المشوقة وفي هذا الموضوع أستعرض بل أقتطف بعضاً من أبيات قصيدة لأمير الشعراء أحمد شوقي أوردها أحمد محمد الحوفي في كتابه «الفكاهة في الأدب» وقد أشار إلى أن سبب إنشاء تلك الفكاهات يعود إلى أنه كان للدكتور محجوب ثابت حصان يرتاد به أحياء القاهرة أيام الثورة سنة ١٩١٩م وكان أصدقاؤه يسمون حصانه «مكسوني» وهو اسم بطل إرلندي مشهور انتحر جوعاً، يكنون بذلك عن هزال الحصان وجوعه وإهمال الدكتور له.

وقد استبدل به الدكتور محجوب سيارة. فنظم شوقي في ذلك قصيدة يداعب بها صديقه ويعزي حصانه وهي تقع في أربعة وثلاثين بيتاً منها قوله:

لكم في الخط سيارة
حديثُ الجار والجارة

كسيارة «شارلوت»
على السواق جبارة

إذا حركها مالت
على الجنبين منهارة

وقد تحرن أحياناً
وتمشي وحدها تارة

ولا تشبعها عين
من «البنزين» فوارة

ومنها ما عزى به الحصان بقوله:

عسى اللّه الذي ساق
إلى يوسف سيارة

فكانت خلفهم دنيا
له في الأرض كبّارة

يهيّي لك هوّاراً
كريماً وابن هوارة

قال الشارح: والهوارة قبيلة كريمة اشتهرت بالكرم، ومنها جماعة في الصعيد.

○ ○ ○ ○ ○

التسلّي بالبكاء لا ينافي الصبر

الصبر على المصائب والنوازل هو الوصية التي يُوصى بها ويُحَثُّ على التزامها.

ويرى علماء النفس أن استقرار الصبر في النفس لا يتفق مع كظم العبرة وخنقها بل يرون في ذلك ما يسبب الانفعالات النفسية التي ربما تجر دماراً للجسم والعقل معاً.

ولهذا فإن البوح المتمثل في البكاء يقي من حدوث الانفعالات النفسية ويحفظ على الأعصاب سلامتها واستقرار حالتها. لأن البكاء ليس بوحاً كلامياً بل هو عبرات صامتة خروجها من الصدر يبقى على الالتزام بالصبر.

يروى أن أبا بكر بن عياش قال: نزلت بي مصيبة أوجعتني فذكرت قول ذي الرمة:

لعل انحدار الدمع يُعقِبُ راحة
من الوجد أويشفي نجيّ البلابل

فخلوت فبكيت فسلوت.

أما الحث على التزام الصبر وحسن عاقبته فأكثر من أن يحصر وقد تناوله الشعراء من عدة وجوه. يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

إذا ما عرا خطب من الدهر فاصطبر
فإن الليالي بالخطوب حوامل

كل الذي يأتي به الدهر زائل
سريعاً فلا تجزع لما هو زائل



ويقول علي بن المقرب:

لا تجزعن لخطب ما به حيل
تغني وإلا فلا تعجز عن الحيل

وله:

لا شيء أولى بصبر المرء من قدر
لا بد منه وخطب غير منتقل

ويقول مصطفى الغلاييني:

اصبر على سود الليالي وادّرع
بعزيمة كالطود إن خطب نزل

فالصبر مفتاح النجاح ولم نجد
صعباً بغير الصبر يبلغه الأمل

ويقول آخر:

تعزّ فإن الصبر بالحرّ أجمل
وليس على ريب الزمان معوّل

وعلى هذا فإن البكاء يمثل بالنسبة للمحزون نافذة يطل منها من كان يعيش داخل غرفة مغلقة ليطلق نظره ويتركه يأخذ أقصى مداه في الأفق بل يدعه حتى يرجع إليه منتهياً من إدراك ما حوله، ثم يغلق النافذة عن طيب نفس.

○ ○ ○ ○ ○

أبو العتاهية أكبر من عروض الشعر

أبو العتاهية هو إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان ويكنى أبو إسحاق وهو مولى لعنزة... شاعر عباسي لا يُجارى في الشعر. وقد شهد له أدباء وشعراء عصره بأنه أشعر الناس بل إن سلم الخاسر قال: إن أبا العتاهية أشعر الجن والإنس. وكيف لا يكون كذلك، وهو قد سئل: هل تعرف العروض؟ فأجاب: أنا أكبر من العروض... ولا أظن أنه يختلف اثنان في أن أبا العتاهية شاعر زهد وموعظة وحكمة...

والمتتبع لشعره يدرك أنه قد أكثر من ذكر الموت وأهواله وجعله وسيلة للتزهيد في الدنيا والطمع في الآخرة... ولعل هذا دليل على أنه يعظ الناس بما يعظ به نفسه... وأقواله تصيب المقاتل وإن كان فيها نكهة فلسفية إلا أنه يطل منها على واقع الحياة ويشير من خلالها بأصبع تحدد حجم أي قضية تعالجها وهو إلى جانب هذا كله يعشق ركوب الحكمة ويمتطيها امتطاء العارف بأبعاد مدلولها ومؤثراتها على كل مرتاد لمسرح الحياة.

ولعل أصدق دليل على النهج الذي سلكه أبو العتاهية في الزهد والموعظة ما جاء في جملة أشعاره... وإذا ما أردنا أن نستشهد على ذلك فليس أقرب من قصيدته التي قالها حين رفضته عتبه... وبما أن شرطي في تحديد عدد أبيات الاستشهاد يحول دون ذكر القصيدة بكاملها فإن الأمر يقضي بأن أقتطف من أبياتها ما بدأه بـ«إذا» يقول:

وإذا اعـتـبـرتُ رأيـتُ حـطّ حـوادث

يـــجـــريـــن بـــالأرزاق والآجـــال



وإذا تناسَبت الرجال فما أرى
نسباً يقاس بصالح الأعمال

وإذا بَحَثْتُ عن التقيِّ وجدتُه
رجلاً يصدق قوله بفعال

وإذا اتقى اللّه امرؤ وأطاعه
فتراه بين مكارم ومعال

وإذا امرؤ لبس الشكوك بعزمه
سلك الطريق على قعود ضلال

وإذا دعت خُدع الحوادث دعوة
شهدتْ لهن مصارع الأبطال

وإذا ابتليت ببذل وجهك سائلاً
فابذله للمتكرم المفضال

وإذا خشيت تعذراً في بلدة
فاشدد يديك بعاجل الترحال

○ ○ ○ ○ ○

ثلاث هارون يعارضها المستعين
بثلاث

وهارون الرشيد غني عن التعريف لكنني سأتناول إن شاء الله سيرته وعدله وكفاحه وأدبه في مواضيع مستقلة آتية إما في هذا الجزء أو فيما يليه من أجزاء.

أما المستعين، فهو سليمان بن الحكم آخر خلفاء بني أمية في الأندلس في عهدهم الأول قبل دولة الحموديين.

ويروى أن المستعين استعان بالبربر في الحكم فافترق شمل الجماعة في الأندلس لأنه اعتمد على ابن حمود: وهو خصمه، أما من حيث هو أديب وشاعر فقد قال عنه أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني في كتابه الشهير «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»: وكان سليمان ممن مدت له في الأدب غاية. كفى دونها أهل الآداب، ورفعت له في الشعر راية، مشى تحتها كثير من الشعراء والكتاب، غير أن أيام الفتون ألوت بذكره، وأيدي تلك الحروب الزبون طوت بجملة شعره، وهو أحد من شرف الشعر باسمه، وتصرف على حكمه مع قعود أهل الأندلس يومئذ عن البحث عن مناقب عظمائهم، وزهدهم في الإشادة بمراتب زعمائهم... ولم أظفر له إلّا بقطعة عارض بها هارون الرشيد فتشعشعت بها الكؤوس وتهادتها الأنفاس والنفوس، وقد أثبت القطعتين معاً ليرى الفرق ويعرف الحق.

ثم أورد ابن بسام أبيات هارون الرشيد التي يقول فيها:

ملك الثلاث الآنسات عناني
وحللن من قلبي بكل مكان

مالي تطاوعني البرية كلها
وأطيعين وهن في عصياني

ثم أورد أبيات المستعين التي بلغت في جملتها عشرة أبيات وهي التي عارض بها هارون الرشيد في قوله: «ملك الثلاث الآنسات عناني» منها قوله:

عجباً يهابُ الليثُ حدّ سناني
وأهاب سحر فواتر الأجفان

وقوله:

وتملكت نفسي ثلاث كالدمى
زهر الوجوه نواعم الأبدان

هذي الهلال وتلك بنت المشتري
حسناً وهذي أخت غصن البان

حاكمتُ فيهن السلوّ إلى الرضى
فقضى سلطانهن على سلطاني

فأبحن من قلبي الحمى وتركنني
في عز ملكي كالأسير العاني

○ ○ ○ ○ ○

ممن يُقْبَل الدعاء!!

والمسلم عندما يصدق مع الله ويخلص له العبادة يجد الله إلى جانبه في كل أمر من أمور حياته، ولهذا فإنه حينما تنزل به نازلة لا يتبادر إلى ذهنه أي اسم يستنجد به، وإنما يتوجه بكليته رافعاً أكف الضراعة إلى الله بما يتيسر له من الدعاء والتوسل إلى الله بأن يخلصه مما حل به من محنة وكرب وبلاء فيجد الله سميعاً لدعوته مجيباً لتوسله.

ونحن حينما نتتبع أخبار الصالحين والتابعين والصحابة نجد فيها عبرة متمثلة في استجابة دعواتهم، وليس من سر في ذلك فالله سبحانه وتعالى يقول في محكم كتابه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

روى الحافظ ابن أبي الدنيا أن عيسى بن عبد الله التميمي حدثه بحديث متصل بأنس رضي الله عنه، أنه قال: كان رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار يكنى أبا مِعْلق وكان تاجراً يتَّجر بمالٍ له ولغيره، يضرب به في الآفاق وكان ناسكاً ورعاً، فخرج مرة فلقيه لص مقنع في السلاح فقال له: ضع ما معك فإني قاتلك، قال: ما تريد إلّا دمي؟ شأنك بالمال، قال: أما المال فلي، ولست أريد إلا دمك، قال: أما إذا أبيت فذرني أصلي أربع ركعات، قال: صل ما بدا لك، فتوضأ، ثم صلى أربع ركعات. فكان من دعائه في آخر سجدة أن قال: يا ودود يا ذا العرش المجيد، يا فعال لما يريد، أسألك بعزّك الذي لايرام، وملكك الذي لا يضام، وبنورك الذي ملأ أركان عرشك أن تكفيني شر هذا اللص، يا مغيث أغثني، يا مغيث أغثني ثلاث مرات. قال: دعا بها ثلاث مرات فإذا هو بفارس قد أقبل بيده حربة وضعها بين أذني

فرسه. فلما بَصُر به اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله ثم أقبل إليه فقال: قم. قال: من أنت بأبي أنت وأمي؟ فقد أغاثني الله بك اليوم. قال: أنا ملك من أهل السماء دعوت بدعائك الأول فسمعت لأبواب السماء قعقعة ثم دعوت بدعائك الثاني فسمعت لأهل السماء ضجّة ثم دعوت بدعائك الثالث فقيل لي: دعاء مكروب. فسألت الله أن يولّيني قتله.

وفي التوجه إلى الله بالدعاء في حال اكتراب المحنة قال الشعراء الشيء الكثير. من ذلك قول الفرزدق:

ولما رأيت الأرض قد سد ظهرها
ولم تر إلا بطنها لك مخرجا

دعوت اللّه ناداه يونس بعدما
ثوى في ثلاث مظلمات ففرجا

خرجت ولم يمنن عليك طلاقة
سوى زائد التقريب من آل أعوجا

فأصبحت تحت الأرض قد سرت ليلة
وما سار سار مثلها حين أدلجا

وقال آخر في هذا المعنى:

رب أمر تزهق النفس له
جاءها من خلل اليأس فرج

لا تكن من روح ربي آيساً
ربما قد فرجت تلك الفرج

بينما المرء كئيب موجع
جاءه اللّه بروح فبهج

رب أمرٍ قد تضايقت له
فأتاك اللّه منه بالفرج

التفجع الحقيقي للمعلّى!!

وأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي صاحب المؤلَّف الشهير «العقد الفريد» كان يتصيد كل ما هو طريف وظريف من الشعر والنثر.

وإنك لتقرأ هذا الكتاب الذي لمع عنوانه في سماء الأدب فلا تمله حتى لو أعدت قراءته مرات عديدة لا لأنه كتاب تراثي ذو أسلوب أدبي متميز فحسب وإنما لأنه نوع موضوعاته فجمع بين طياته كل ما يرضي أذواق القراء على اختلاف ثقافاتهم وتنوع مداركهم،ولهذا صار مورداً عذباً يقصده كل راغب في الأدب والسياسة والفصاحة والفكاهة.

روى في الجزء الثالث منه قصة لجارية حسناء باعها مولاها فندم على ذلك فاستقال مشتريها فوافق على الاستقالة، وفيما يلي نص الحكاية:

كان لمعلّى الطائي جارية يقال لها: وصف، وكانت أديبة وشاعرة. قال: أخبرني محمد بن وضاح، قال: أدركت معلّى الطائي بمصر وأعطى بجاريته (وصف) أربعة آلاف دينار فباعها. فلما دخل عليها قالت له: بعتني يا معلّى!! قال: نعم. قالت: والله لو ملكت منك مثل ما تملك مني ما بعتك بالدنيا وما فيها، فرد الدنانير واستقال صاحبه فأصيب بها إلى ثمانية أيام فرثاها بقصيدة طويلة منها قوله:

يا موت كيف سلبتني وصفا

قدمتها وتركتني خلفا

هلا ذهبت بنا معاً فلقد

ظفِرَتْ يداك فسمتني خسفا

وأخـذت شـق الـنـفـس مـن بـدنـي
فـقـبـرتـه وتـركـت لـي الـنـصـفـا

فـعـلـيـك بـالـبـاقـي بـلا أجـل
فـالـمـوت بـعـد وفـاتـهـا أعْـفـى

ما أصدق هذا الرثاء، وما أبلغه في نفس المعلّى، إنه التفجع الحقيقي الذي لا تشوبه مبالغة بل هو التعبير الصريح عن الحسرة والأسى الذي وصل إلى درجة فضل بها الموت على البقاء بعدها بأسلوب مؤثر للغاية.

ويواصل المعلّى البوح بحزنه على وصف فيقول من تلك القصيدة التفجعية:

يـامـوت أنـت كـذا لـكـل أخـي
إلـف يـصـون بـبـرّه الألـفـا

خـلـيـتـنـي فـرداً وبـنـت بـهـا
مـا كـنـت قـبـلـك حـامـلاً وكـفـا[1]

فـتـركـتـهـا بـالـرغـم فـي جـدث
لـلـريـح تـنـسـف تـربـه نـسـفـا

دون الـمـقـطـم لا أُلَـبّـسـهـا
مـن زيـنـة قـرطـاً ولا شـنـفـا

○○○○○

(١) الوكف: الجور والميل.

ضياع قصيدة العيد!!

ما من شاعر إلّا وتجد لمناسبة العيد قصيدة في شعره ولكن الذي تتناقله الرواة ويخلد ربما كان قليلاً أو أنه يتضائل أمام القصائد التي يقترن ذكر العيد بكلماتها وذلك مثل مطلع قصيدة المتنبي التي هجا فيها كافور الإخشيدي بقوله:

عيد بأية حال عدت يا عيد
بما مضى أم بأمر فيك تجديد

ومن طريف ذكرى العيد أن الأستاذ الدكتور محمد بن سعد بن حسين قال قصيدة في ذكرى عيد الفطر سنة ١٤١١هـ، وسلمها لمحرر إحدى الصفحات الثقافية لنشرها لكن هذا المحرر ضيعها. قال ابن حسين: وفي اليوم الخامس من شهر شوال هاتفني الصديق المحرِّر طالباً صورتها، ولم أكن صورتها، فقلت: والأصل؟ فقال في ندم المتأدب وأدب المتندم: ضاعت، فقلت: هون عليك فما هي إلا كلام، والكلام كثير فقال: ألا تحفظها أو شيئاً منها فخجلت منه ومن نفسي لكوني لا أحفظ من شعري كثيراً ولا قليلاً، قلت: انسها كما نسيتها.

ثم استطرد ابن حسين القول فقال: لقد وجدتني أترنم بأبيات تكون مرثية لها، وما أكثر ما بكيت قصائد مزقتها بيدي ثم ندمت على تمزيقها، وأظنني سأفعل مثل ذلك كثيراً، ولكن ما الذي يحملنا على التمزيق ثم الندم؟ لست أعلم. وقد أعلم ولكنني لا أبين فلماذا؟ إنها لو كانت غير مرضية ما حصل عليها ندم فلماذا؟ أسئلة ستظل حبيسة الوجدان لكونها سره المصون وضميره المكنون، قد يراها بعضهم ذات

بال وقد يراها البعض الآخر ليست بذات بال، بل ربما عدها بعضهم سفهاً أو سماجة لكنها قائمة على أي حال، ولعل أدنى جواب على ذلك هو أن فكر المرء قطعة من كيانه ليس في مقدوره التخلي عنه البتة وإن لم يرض عنه لسبب من الأسباب، ثم أورد رثاءه لقصيدة العيد التي ضيعها المحرر، ومن قصيدته الرثائية تلك قوله:

قصيدة العيد ضاعت وهي مفعمة
بالذكريات بما أوحى به العيد

نضدت أبياتها في ساعة سفرت
فيها مخدرة تهفو لها الغيد

مجلوة من بنات اللفكر أيقظها
عيد أطل فحيّته الزغاريد

ومنها قوله:

قصيدة العيد ضاعت وهي أغنية
لسالف فيه كم تحلو الأناشيد

يا درة ضيعتها غير عامدة
يمنى أمين كريم فهو محمود

في أي مهلك أوراق نبذت وما
جنيت إثماً وفيك الحق منشود

أبكيك كم درة مزقتها فمضت
فلتذهبي حيث ضاع العقد والجيد

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ ١٨ بيتاً. وقد نشرتها جريدة الرياض في عددها ٨٣٤٧ الخميس ١٨/١٠/١٤١١هـ.

○○○○○

هي في... وهي أن

نظم الشاعر صالح جودت قصيدة تكونت من عشرة أبيات استفتح كل بيت منها بـ«هي في» وقد أهداها كما يقول إلى كل حاكم عظيم.

والقصيدة في حد ذاتها تعدّ من القصائد ذات الأسلوب الخطابي الذي يوجه مباشرة إلى المخاطب، حيث خاطب القادة بمفهوم عنوان القصيدة وهو «العظمة» فقال في كل بيت منها: «هي في» ويعني بذلك العظمة ففي البيت الأول يحقق أن العظمة فيمن ليس في الحاكمين مثله في العدل في الرعية:

هي أن أراك ولا أرى في الحاكمين غرارك

وفي البيت الثاني يحقق وجود العظمة في حال الحكم وفي حال الترك.

هي في جلالك حاكما نفس الجلال وأنت تارك

وفي البيت الثالث يرى أنها تكمن في الدعاء للوئام عن مقدرة لخوض المعارك لا عن ضعف وتضعضع وانخذال:

هي في دعائك للوئام وأنت أقدر في المعارك

وفي البيت الرابع يؤكد أنها في الدعوة إلى السلام بقلب يؤمن بالانتصار.

هي في قولك للسلام وأنت تؤمن بانتصارك

وفي البيت الخامس يربط العظمة بالسمو على الأعداء بصفات الفضائل.

هي في سموّك عن عدوك بالمشاعر والمدارك

وفي البيت السادس يثبت أن العظمة في مد يد الجميل إلى الغريم عن طواعية وحسن اختيار.

هي أن تمدّ يدَ الجميل إلى غريمك باختيارك

وفي البيت السابع يربط العظمة بالعفو عند المقدرة.

هي أن تعد العفو خير وسيلة لقضاء ثأرك

وفي البيت الثامن يقرن العظمة بالرجولة المتمثلة في قوة الاحتمال والصبر.

هي أن تعظمك الرجولة في احتمالك واصطبارك

○ ○ ○ ○ ○

يقصر النقد دون هذه القافية!!

ونحن إذا ما نظرنا إلى مفهوم النقد الأدبي، وتتبعنا منه ما يتعلق بالشعر لوجدنا أنه يرتكز على عدة عوامل منها ما يعد وسيلة تشريح، ومنها ما يمثل عدسة مجهر تظهر من خلالها الصغائر التي لا يلحظها القارئ العادي أو يستشف موطنها.

وإذا ما أمعنا النظر في أجواء القصيدة لنعرف أيها تتجه نحوه وسائل النقد وأدواته لوجدنا أن القافية أو الروي وما يصيبه من مرض الإقواء والتنافر والثقل هو مصب الملاحظة ومكان تحسس قلم الناقد في بادئ الأمر، أما المناطق الأخرى من القصيدة فهي أيضاً هدف للنقد البلاغي.

وإذا كان الناقد يؤاخِذُ الشاعر على ما تشتمل عليه قصيدته من هفوات فإنه يقف متسائلاً عندما يلحظ تكرار حرف القافية أو أن يكون بين التكرار فاصلاً من المسافة تقدر في جواز الحكم بإعادة استخدامها مرة ثانية بسبعة أبيات أو أكثر فإن هناك ألفاظاً وكلمات متصلة ببعضها لا يستقيم المعنى في القصيدة أو يتم البناء إلّا بتكرارها وهذه الألفاظ والكلمات يقصر دونها قلم الناقد.

ففي القصائد الابتهالية والتسبيحية مثلاً نجد أن بعض الشعراء يجعل من لفظ الجلالة «الله» خاتمة لأبيات قصيدته الابتهالية ذات التضرع والدعاء الذي يتكرر ختمه في كل بيت به لأنها تزيد من معانيه قوة وسمواً.

وكنموذج لهذا أورد أبياتاً على النحو الذي وصفته، وهي من

قصيدة قرأتها في كتاب «الفرج بعد الشدة» لمؤلفه القاضي أبي علي المحسن بن أبي القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم داود بن إبراهيم بن تميم التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤هـ ولم ينسبها لأحد من الشعراء:

يا صاحب الهم إن الهم منقطع
أبشر بذاك كأن قد فرج اللّه

اليأس يقطع أحياناً بصاحبه
لا تيأسَنَّ فإن الكافي اللّه

اللّه حسبك مما عذت منه به
وأين أمنع ممن حسبه اللّه

من البلايا ولكن حسبك اللّه
واللّه حسبك في كل لك اللّه

هون عليك فإن القادر اللّه
والخير أجمع فيما يصنع اللّه

فرب مستصعب قد سهل اللّه
ورب شر كثير قد كفى اللّه

إذا بليت فثق باللّه وارض به
إن الذي يكشف البلوى هو اللّه

الحمد للّه شكراً لا شريك له
ما أسرع اليسر جداً إن يشا اللّه

○ ○ ○ ○ ○

شعر تحت الطلب

ومن الشعراء من تحصل له بعض المواقف الصعبة خاصة منهم الذين تكون لهم منادمة مع خاصة الناس وعلية القوم وذلك كأن يطلب إليه قول شعر في ساعته الحاضرة. فالذي يملك قدرة على تصريف الكلام والتكيف مع أي ظرف يحيط به لا يقع في مآزق محرجة بل يغرف من بحر شعره وفقاً للطلب وبمقدار المطلوب.

جاء في ديوان الحسين بن الضحاك الذي جمعه وحققه الأستاذ عبد الستار أحمد فرج نقلاً عن كتاب الأغاني قوله:

قال الواثق للحسين: قل الساعة أبياتاً ملاحاً، فقال الحسين: في أي معنى يا أمير المؤمنين؟ فقال الواثق: امدد طرفك وقل فيما شئت مما ترى بين يديك وصفه، فالتفت الحسين، فإذا ببساط زهر قد تفتحت أنواره وأشرق في نور الصبح، فأرتج على الحسين ساعة حتى خجل وضاق ذرعاً، فقال له الواثق: ما لك ويحك؟ ألست ترى نور صباح، ونور أقاح؟ فانفتح القول للحسين فقال الأبيات التالية، فلما انتهى منها ضحك الواثق وقال: سنستعمل كل ما قلت يا حسين إلّا الفسق الذي ذكرته فلا ولا كرامة:

ألست ترى الصبح قد أسفرا
ومبتكر الغيث قد أمطرا

وأسفرت الأرض عن حُلة
تضاحك بالأحمر الأصفرا

ووافاك نيسانُ في ورده
وحثك في الشرب كي تسكرا

ويـعـمـل كـأسـيـن فـي فـتـيـة
تـطـارد بـالأصـغـر الأكـبـرا

يـحـثُ كـؤوسـهـم مُـخـطَـفٌ
يـجـاذبُ أردافـه الـمـئـزرا

تـرجّـل بـالـبـان حـتـى إذا
أدار غـدائـره وفّـرا

وفـضـض فـي الـجـلـنـار الـبـهـا
ر والأبـنـوسـة والـعـبـهـرا

فـلـمـا تـمـازج مـا شـذّرتْ
مـقـاريـض أطـرافـه شـذّرا

وما الحسين بن الضحاك في هذا الموقف إلّا واحداً من الشعراء الذين حصلت لهم مواقف استلزمت منهم استنفار البدائه والقرائح والخواطر وإني لذاكر إن شاء الله شيئاً منها.

ooooo

طرفة

ولقد اعتدتُ أن أضع استراحة فكاهية في كل جزء من الأجزاء التي تقدمت وذلك محاولة لطرد السأم عن القارئ بشيء من الفكاهة الأدبية والطرف المستظرفة.

وفي هذا الجزء أنقل مما قرأته في هذا الفن الأدبي طرفة تتعلق بسرعة البديهة وحضور الذهن.

وحكاية هذه الطرفة المستظرفة هي أنه اتفق لأبي نواس، وهو الحسن بن هاني أن خرج هو ومسلم بن الوليد، والحسين بن الضحاك، والعباس بن الأحنف إلى منتزه، ومعهم يحيى بن معاذ، فأدركتهم صلاة المغرب، فقدموا ابن معاذ للصلاة فارتج عليه، وهو يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ فتعاطوا فيه القول، فقال أبو نواس:

أكثر يحيى غلطا
في ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾

فقال مسلم بن الوليد:

قام طويلاً ساهياً
حتى إذا أعيا سجد

فقال العباس بن الأحنف:

يزحر في محرابه
زحير حبلى بولد

فقال الحسين بن الضحاك:

كـــأنـــمـــا لـــســـانـــه
شـــدّ بـــحـــبـــل (مـــن مـــســـد)

وللحسين بن الضحاك هذا واسمه أبو علي الحسين بن الضحاك بن ياسر الخليع الأشقر قيل: إنه باهلي بالولاء، وقيل: إنه باهلي بالنسبة وهو من شعراء الدولة العباسية المتوفى سنة ٢٥٠هـ، حكاية مع الواثق فيها سرعة بديهة، وهي أن جارية للواثق كانت قد ماتت فرآها الواثق في النوم فقال للحسين بن الضحاك: إني رأيت فلانة في النوم فليت نومي كان طال قليلاً لأتمتع بلقائها، فقل في هذا شيئاً. فقال الحسين هذه الأبيات التي تضمنت الرؤيا وحققت رغبة الواثق:

لـيـت عـيـن الـدهـر عـنـا غـفـلـت
ورقـيـب الـلـيـل عـنـا رقـدا

وأقـــام الـــنـــوم فـــي مـــدّتـــه
كـــالـــذي كـــان وكـــنـــا أبـــدا

بـــأبـــي زَور تـــلـــفـــتُ لـــه
فـتـنـفـسـت عـلـيـه الـصّـعـدا

بـيـنـمـا أضـحـك مـسـروراً بـه
إذ تـقـطـعـت عـلـيـه كـمـدا

ㅇㅇㅇㅇㅇ

معارضة طريفة

تروي لنا كتب التراث الشيء الكثير من طريف المعارضات الشعرية المضحكة.

جاء في كتاب «مروج الذهب» للمسعودي أن أبا العباس محمد بن يزيد بن المبرد قال: وردت سرّ من رأى فأدخلت على المتوكل وقد عمل فيه الشراب فسئلت عن بعض ما وردت له فأجبت وبين يدي المتوكل البحتري الشاعر فابتدأ ينشد قصيدة يمدح بها المتوكل. وفي المجلس أبو العنبس الصّيمري فأنشد البحتري قصيدته التي منها قوله:

عـن أي ثـغـر تـبـتـسـم
وبـأي طـرف تـحـتـكـم

حَـسَـنٌ يـضـنُّ بـحـسـنـه
والـحـسـن أشـبـه بـالـكـرمْ

أفـديـه مـن ظـلـم الـوشـا
ة وإن أسـاء وإن ظـلـم

وكـأن فـي جـسـمـي الـذي
فـي نـاظـريـه مـن الـسـقـم

يـهـنـيـك أنـك لـم تـذق
سـهـراً وإنـي لـم أنـم

أقـسـمـت بـالـبـيـت الـحـرا
م وحـرمـة الـشـهـر الأصـم

والقصيدة أطول من ذلك إذ تبلغ ستة عشر بيتاً في ديوان البحتري.

ويقال: إنَّ البحتري كان إذا وقف ينشد بحضرة الملوك والأمراء يتردد في مشيته فيتقدم مرة ويتأخر أخرى ويهز رأسه ومنكبيه ويشير بكمه ويقف عند كل بيت ويقول: قد أحسنت، ثم يقبل على المستمعين ويقول: ما لكم لا تقولون أحسنت؟!!.

قال ابن المبرد: فلما انتهى مشى القهقرى للانصراف فوثب أبو العنبس فقال: يا أمير المؤمنين تأمر بردّه فقد والله عارضته في قصيدته هذه؟ فأمر برده. فأخذ أبو العنبس ينشد شيئاً لولا أن في تركه بتر الخبر لما ذكرته، وهو:

من أي سلح تلتقمْ وبأي كف تلتطمْ

أدخلت رأس البحتري أبي عبادة في الرحم

ووصل ذلك بما أشبهه من الشتم فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه وفحص برجله اليسرى وقال: يدفع إلى أبي العنبس عشرة آلاف درهم فقال الفتح: يا سيدي البحتري الذي هجي وأسمع المكروه ينصرف خائباً!! قال: ويدفع إلى البحتري عشرة آلاف درهم قال: يا سيدي، وهذا البصري الذي أشخصناه من بلده (يقصد المبرد) ألا يشركهم فيما حصلوه، قال: ويدفع إليه عشرة آلاف درهم، فانصرفنا كلنا في شفاعة الهزل، ولم ينفع البحتري جدّه واجتهاده.

○○○○○

هــي

إن البحث في معنى السعادة يولد تساؤلات أهمها يأتي بهذه الصيغة: ما هي السعادة؟ ومن هو الإنسان السعيد؟ وهل هي شيء يكتسب بالتعليم أم هي خلة يطبع عليها الإنسان؟ والإجابة على هذه التساؤلات تحتاج إلى وقفات طويلة وتحليلات فلسفية ومنطقية وسياق أمثلة واقعية.

ولقد أشرت إلى جانب يسير جداً عن بعض تلك التساؤلات وذلك في موضوع تحت عنوان «في» من هذا السِّفر. أما في هذا الموضوع فإن الشاعر الدكتور يوسف القرضاوي قد عرف لنا جانباً من معنى السعادة، فقال في أبيات من الشعر: إنها تكمن في التفاعل والتطور، وأنها الشعور بالانتصار، وأنها التلذذ بالمتاعب، حتى الذود عن الوطن يكون فيه سعادة. ولعمري إن الذود عن الوطن والانتصار على من أراده بسوء لهو أسعد السعادات، وحرية تحديد المصير والتحرك نحو أي جهة يعد أيضاً من أهم السعادات التي يتقلب فيها الإنسان.

وتعريف القرضاوي للسعادة في قصيدته «السعادة» جاء في أبيات كثيرة جداً. فمنها الأبيات التالية التي استهل كل بيت منها بكلمة «هي» يقول القرضاوي:

وهــي الــتــفــاعــل والــتــطــور
لا الــتــحــجــر والــجــمــود

وهــي الــجــهــاد وهــل يــجــا
هــد مــن تــعــلــق بــالــقــعــود

وهـــي الـــشـــعـــور بـــالانـــتـــصـــار
ولا انـــتـــصـــار بـــلا جـــهـــود

وهـــي الـــتـــلـــذّذ بـــالـــمـــتـــعـــاب
لا الـــتـــلـــذّذ بـــالـــرقـــود

هـــي أن تـــذود عـــن الـــحـــيـــا
ض وأي حـــــــر لا يـــــذود

هـــي أن تـــحـــس بـــأن كـــأ
س الـــذل مـــن مـــاء صـــديـــد

هـــي أن تـــعـــيـــش خـــلـــيـــفـــة
فـــي الأرض شـــأنـــك أن تـــســـود

هـــي أن تـــخـــط مـــصـــيـــر نـــفـــســـك
فـــي الـــتـــهـــام وفـــي الـــنـــجـــود

○ ○ ○ ○ ○

ما يدخل تحت مفهوم الفكاهة

وما يدخل تحت مفهوم الفكاهة أو إطار الطرفة، ذلك الذي يحصل من المداعبات الشعرية أو النثرية والتي لا تخلو أحياناً من الهمز الخفي إذا تعذر مجال التصريح.

والشعراء يكون لهم مدح وذم يأخذ طابع الفكاهة وصفة الطرافة خاصة إذا كان في مجال البخل وخال من التجريح والطعن في النسب والعرض.

ومن صور الذم الذي تقادم عهده وأدخله عامل زمنه تحت مفهوم الفكاهة ما قاله أبو الشمقمق من أبيات يمدح بها مالك بن علي الخزاعي ويذم سعيد بن مسلم الباهي:

قد مررنا بمالك فوجدناه
سخياً إلى المكارم يَنْمي

ورحلنا إلى سعيد بن سلم
فإذا ضيفه من الجوع يَرْمي

وإذا خبزه عليه ـ سيكفيكهم
اللّه ـ ما بدا ضوء نجم

وإذا خاتم النبيّ سليمان
بن داود قد، علاه بختم

فارتحلنا من عند هذا بحمدٍ
وارتحلنا من عند هذا بذم

وقوله: من الجوع يرمي أي يرمي نفسه من شدة الجوع. وشعراء الفكاهة والدعابة لا يدعون مشهداً أو حادثاً طريفاً يمر بهم إلّا ويودعونه في أبيات يهمسون بها في آذان من تصدر عنهم الطرائف والمشاهد الفكهة بعبارات يمتزج فيها الجد والهزل. على أنهم في بعض المواقف التي تعنيهم وترتبط بمصالحهم يغلفون الجد بالهزل أثناء تعبيرهم عنها. من ذلك ما قاله الحمدوني في شاة هزيلة كان قد أعطاه إياها سعيد بن أحمد بن خوسنداذ فاكتشف الحمدوني أنها هزيلة وأن سبب هزلها هو الجوع الذي أصابها بسبب بخل ابن خوسنداذ، وذلك بدليل أنها لما رأت العلف أقامت عليه منكبة وأخذت تلتهمه ودموعها تنسكب من شدة فرحها بالعلف. وقد صاحب دمعها تغنيّ ببيت ليس للحمدوني وهو قولها: «وقف الهوى... إلخ» وقد ضمنه الحمدوني أبياتاً منها قوله:

أسعيد قد أعطيتني أضحية
مكثت زماناً عندكم لا تطعم

مرّت على علفٍ فقامت لم ترم
عنه وغنّت والمدامع تسجم

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي
متأخر عنه ولا متقدم

○○○○○

المزح عنصر من عناصر الفكاهة!!

والفكاهة تقوم على عدة عناصر منها المداعبة الكلامية المخطوطة سواء كانت شعراً أم نثراً. وهذه عادة ما تكون بين الأدباء والشعراء المتباعدين في المكان، ومنها ما يكون لفظاً ومشافهة باللسان في المكان.

والمزاح له مخاوفه ومخاطره على العلاقات القائمة بين المتمازحين ولذلك كثر التحذير من كثرة ممارسة المزاح بل هناك مشورات بتركه وقد قيل: إنه يقلل من شأن المازح ويحط من قيمته وقدره.

أما المزح الذي لا يخرج من دائرة الأدب فقد ندب إليه ومارسه شرفاء الناس وعلماؤهم ومفكروهم في مجالسهم. والحقيقة أن الإنسان الذي يعطي المجلس الذي يضمه شيئاً من البشاشة والهشاشة يكون وبلا شك عكس صاحب الوجه المكفهر الغضوب الذي تمل مجالسته وتستثقل ساعات مقابلته.

قال رجل لعيينة: المزاح سبة. فقال: بل سبة لمن لا يحسنه. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلت عميت».

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: احموا هذه القلوب والتمسوا لها طرق الحكمة. فإنها تمل كما تملّ الأبدان، والنفس مؤثرة للهوى آخذةٌ بالهوينى، جانحة إلى اللهو أمارة بالسوء مستوطنة بالعجز. طالبة للراحة، نافرة عن العمل، فإن أكرمتها أنضيتها وإن أهملتها أرديتها. وكان النبي ﷺ يضحك حتى تبدو نواجذه وكان محمد بن



سيرين يضحك حتى يسيل لعابه والذين يجيدون فن المزاح ويستجلبون الضحك لجلسائهم يفتخرون بذلك. بل منهم من أعده صنعة، فأبان بن عبد الحميد أرسل قصيدة إلى الفضل بن يحيى يعرفه بنفسه ويعدد له فيها مزاياه. منها قوله:

أنا من بغية الأمير وكنز
من كنوز الأمير ذو أرباح

شاعر مفلق أخف من الريشـ
ـة مما يكون تحت الجناح

كاتب حاسب خطيب أديب
ناصح راجح على النّصاح

وظريف الحديث من كل لون
وبصير بحاليات ملاح

كم وكم قد خبأت عندي حديثاً
هو عند الملوك كالتفاح

كل ذا قد جمعت والحمد للّه
على أنني ظريف المزاح

وقال شاعر آخر:

إنما للناس منا
حُسنُ خلق ومزاح

ولنا ما كان فينا
من فساد وصلاح

○○○○○

العالم الجديد

و(العالم الجديد) هو عنوان لقصيدة تبلغ نحواً من تسعة وسبعين بيتاً ضمها ديوان الشاعر نسيب حمود أرسلان وقد أفرغ فيها آراءاً حرة جريئة ومقترحات أدبية وسياسية. وأوصى من خلالها بني قومه بل حضهم على العمل بمفهومها سواء منها ما يعالج القضايا الشخصية كالكذب والانحراف الخلقي أو ما يعالج قضايا اجتماعية كالتهاون بحق الوطن، وبحق الصديق، وحثهم على تجنب التقليد. وأوصاهم بتدبّر الحكمة والأخذ بها في القول والعمل، والترفع عن الدناءات والسمو إلى الغايات النبيلة ومعاهدة النفس على التمسك بمبادئ الدين والإخلاص في العمل والحذر من مفاتن المدنية، ومظاهر الحضارة الخادعة وغير ذلك مما يؤثر على الحياة الكريمة.

ولقد وقفت طويلاً عند اختيار ما أقتطفه منها: أعني بذلك القصيدة، من أبيات أوردها هنا كشاهد على قوة القصيدة ومدى تأثيرها. والتي سيرها في جحفل من الكلمات الشاعرة التي ليس للتكلف في صنعها أثر... أسمعه: وأعني بذلك نسيب، وهو يصور القتال الذي لم يقم لتحقيق مصلحة اجتماعية بالمطر الذي يرجو الناس نبته وخيره فإذا به الدمار والخراب. جرف التراب وجعل الأرض جرفاً هار لم يبق فيه نبات:

زعموا القتال لأجل منفعة الورى
دعوى تقال وما هناك شهود

قد صوّروه مطرةً تحيي الثرى
والنبت من بعد القطار يجود





فإذا الثرى قد هار حتى أنه
لم يبق منه للنبات صعيد

واسمعه وهو يصور ما آلت إليه طباع الناس حيث استبدلوا الفضائل بالكذب والزور والبهتان بل إن الأحداث منهم أصبحوا لا يعرفون معنىً للصدق. وكأنما الكذب مولود معهم:

فسدت طباع العالمين وأخلقت
حلل الفضائل والزمان جديد

وتأصل الكذب الصميم كأنه
وأبيك مو مولودهم مولود

لا عندهم شرف الحفاظ ولا لهم
قول بما هم واعدون أكيد

ثم اسمعه وهو يتجزع من انتشار الفواحش بين الناس حتى أصبحت تمارس جهرة دونما أحد يرد أو يصد أو ينكر تفشيها:

والناس قد خاضوا الفواحش
فارتمى فيها فتاهم والفتاة الرود

فشت الدعارة والزعارة جهرة
والحاكمون على العباد رقود

وإن كان لي تعليق على عنوان تلك القصيدة فإني أرى أنه من الأجدر أن يكون «ثورة نفس أبية» لأن القصيدة بجمالها وكمالها كما أسلفت تعالج أموراً لها مساس مباشر بالحياة الاجتماعية.

○○○○○

السعي... وطلب الرزق

جاء في القول المأثور: «السماء لا تمطر ذهباً» وهذا يعني أن السعي لطلب الرزق لازم وواجب محتم وأن البقاء في المكان اعتماداً على التوكل. وتحرياً لمجيء الرزق بلا حركة ولا فعل سبب لا يجدي مهما طال المكث والبقاء في المكان. بل إن ذلك يعد قيداً للكسل، وعقالاً للفقر.

وقديماً قيل: «إن في الحركة بركة» وهذا يعني أن التماس الرزق لا بد أن يكون عن طريق فعل وعمل يكون بمثابة سنارة للرزق . وسبباً للارتزاق، ولهذا فإن جميع المخلوقات قد فطرت على طلب الرزق والبحث عن مصادره والتحسس عن سبل الوصول إليه وطرق اكتسابه.

وحيث أن النهار هو ميدان الصراع وساحة الصول والجول في طلب الرزق وتحري لقمة العيش. فإنك لا ترى أي كائن حي تطلب نفسه الغذاء يمكث في مرقده أو يبقى في مكان مبيته وهو طليق يملك حرية التصرف والسعي.

فالطير مثلاً تهب من أوكارها عندما ترى النور باحثةً عن رزق يومها، والحشرات والحيوانات جميعها تخرج من عرينها وحجورها ملتمسة غذاءها. ثم إنك ترى صراعاً وتزاحماً وتدافعاً على أي موردٍ قد عذب ماؤه وطاب مطعمه.

والإنسان وهو صاحب العقل والتفكير له شأن في السعي وله طرق متعددة في اكتساب الرزق لا يمكن حصرها. وعلى الرغم من أن الإنسان يملك عقلاً ويحسن تصرفاً إلّا أنه يضرب المثل لنفسه بحرص ما عداه من



الخلوقات على طلب الرزق. ويرى أن فيها المثل الذي يجب أن يحتذي به هو، والتواصي والحث على طلب العيش والتفاخر في ذلك أمور قد مارسها الشاعر العربي ليوقظ روح الحماس في الكسول. ويشد من عضد الخامل الملول، حتى يتمنطق ويشمر عن ساعده للعمل وكسب الرزق الحلال، ومن تلك الأشعار قول نهيك بن أساف الحارثي:

أأم نُـهـيْـك ارفـعـي الـظـن صـاعـداً
ولا تـيـأسـي أن يـثـرى الـيـوم بـأس

سيكفيك سيري في البلاد وبُغْيتي
وبعل الذي لم تحظ في البيت جالس

سـأكـسـب مـالاً أو تـبـيـتـين لـيـلـة
لـصـدرك مـن وجـدٍ عـلّـي وسـاوس

ومـن يـكـسـب الـمـال الـمـقـنـع بـالـقـنـا
يـعـش مـثـريـاً أو يـؤد فـيـمـا يـمـارس

ولكن المال متى ما اكتسب فإنه يتوجب على كاسبه عدم تضييعه في الملذات، وإلى هذا ينبّه أحد الشعراء بقوله:

إيـــاك والإســـراف فـــي لـــذة
فـلـيـس لـلـمـسـرف إلّا الأسـى

فـكـم رأت عـيـنـك مـن مـسـرف
أسـرف مـن قـبـلـك قـد أفـلـسـا

وصـــار مـــن كـــان لـــه صـــاحـــبـــاً
إذا لـــقـــيـــه صـــدّ أو عـــبـــســـا

فـاقـصـد صـلاح الـمـال تـنـعـم بـه
ومـدّ رجـلـيـك بـقـدر الـكـسـا

أيـن؟!

إن تقلبات الزمان بأهله، وتتابع حوادثه توجد في الناس تحولاً من حالة إلى أخرى. كتحوّل من قوة إلى ضعف أو من ضعف إلى قوة.

والذي يقرأ التاريخ المحقق عن دولة دالت وأصبحت خبراً بعد عين. ويدلّه الوصف اللفظي على مقرها ومكان سلطانها فيعمد إلى رؤيته فلا يجد إلا أطلالاً وآثاراً «كأن لم تغن بالأمس» يقف وكله تساؤلات تتصدرها كلمة «أين الاستفهامية» وتشتمل فيما تشتمل عليه تلك التساؤلات عن السؤال عمن عمر تلك الأطلال.

وعن قوتهم كيف أقوى عليها الدهر. وخيلهم وعتادهم وجميع إبداعاتهم كيف بادت.

يقول ابن المعتز، واسمه عبد الله بن محمد المعتز بالله بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العباسي أبو العباس الشاعر المبدع، ولد في بغداد وكان مولعاً بالأدب فكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم لغة صافية وقد صنف كتباً منها «الزهر والرياض» و«البديع» و«كتاب الآداب» و«الجامع في الغناء» و«الجوارح والصيد» و«طبقات الشعراء» وله ديوان شعر، وهو من الشعراء الذين وقفوا على الأطلال وسألوا عن ساكنها وعامرها بعبارات مبدوءة بـ«أين» الاستفهامية وذلك في قصيدة طويلة منها قوله:

أين القصور التي شيدتها فَعَلَتْ
ولاح فيها سنا الأبريز فاتقدا

أين الجنان التي تجري جداولها
وتستجيب إليها الطائر الغردا



أين الرجال قياماً في مراتبهم
من راح منهم ولم يُطمَر فقد سعدا

أين الجياد التي حجلتها بدم
وكن يحملن منك الضيغم الأسدا

أين الرماح التي غذيتها مهجا
منذ مُتّ ما وردت قلباً ولا كبدا

أين السيوف وأين النبل مرسلة
يصبن ما شئت من قرن وإن بَعُدا

أين المجانيق أمثال الغيول إذا
رمين حائط حصن قائماً قعدا

أين الفعال الذي قد كنت تبدعه
ولا يُرى أن عفواً نافعاً أبدا

إنها تساؤلات كثيرة موجهة إلى ذلك الإنسان الذي غيرت حاله صروف الدهر، وإنها لعبرة، فهل من معتبر؟.

ㅇ ㅇ ㅇ ㅇ ㅇ

اجعل كتابك عمدة الأصحاب!!

والكتاب مهما تحدث الناس عنه فلن يوفوه قدره، ولن يأتوا ولوعلى بعض من وصفه... ولا أريد هنا أن أستعرض ما قيل فيه لأن ذلك شيء لا يمكن حصره في أسطر أو تناوله في مقالة، أو فصل.

وإذا لم يكن لدي شيء أضيفه إلى تمجيده فإنه من المناسب هنا أن أقف عند قيمته الأدبية لا الشرائية، لأن بعض الكتب يعد ورقها وحبرها خسارة في صنعها وتصنيفها، أما الذي منها ما يخاطب العقل مباشرة بما فيه من معرفة وثقافة وبما يحويه من توجيه وإرشاد يهذب النفس فإنه يوصى باقتنائه وبملازمته. فأصحاب الفكر والحكماء الذين ارتووا من فراته، واغترفوا من نميره قد أصبحوا به متميزين عن غيرهم من الناس من حيث الطبقية الاجتماعية، والذي يحاول من المتأخرين أن يشرح فوائد الكتاب أو يزيد على ما جاء به المتقدمون فما أراه بآت بجديد يذكر وإنما هو تأكيد لصحة ما وصف به في السابق. وهذا التأكيد يتكرر نثراً وشعراً في كثير من المؤلَّفات وهذا الشاعر نسيب بن حمود أرسلان المتوفى سنة ١٣٤٦هـ، يضمن ديوانه «روض الشقيق في الجزل الرقيق» قصيدة عنوانها «الكتاب» منها قوله:

لا تكلفنّ بصحبة الأحباب
واجعل كتابك عمدة الأصحاب

هو صاحب ما كان يوماً معرضا
عن إلفه أو باخلاً بخطاب



حر السجيّة سره كجهاره
فالخل فيه ليس بالمرتاب

ومنها قوله:

نعم الجليس المرتضى فحديثه
للسامعين سلافة الألباب

أبداً يكلم ما أردت كلامه
فعل العشير الوافر الآداب

فإذا مللت خطابه أسكته
رغماً فلم ينطق بحرف عتاب

لا يشتكي مهما دهاه من الأذى
شأن الصديق الصابر المتغابي

ومنها قوله:

هو عبد رق في فنائك طائع
للأمر من سلب ومن إيجاب

والقصيدة طويلة نوعاً ما إذ تبلغ نحواً من ثمانية عشر بيتاً.

○○○○○

السيارة في أيدي بعض السائقين
وسيلة قتل لا نقل

إن حوادث السيارات وما تخلفه من وفيات وإصابات بليغة وجسيمة منها ما يصل إلى درجة الإقعاد عن المشي والحركة الطبيعية لأمر مفزع وغاية في الخطورة. وبعض الناس يعزو الحوادث إلى السيارات نفسها. وأنه قلما يذكر أن أحداً مات أو أقعد أو شل بسبب سقوطه من على ظهر بعير أو حمار أوفرس وإن ذكر فهو قليل لا يقاس ولا بواحد في مائة مليون من حوادث السيارات التي نشهدها اليوم.

ومنهم من يعزو تلك الحوادث المفزعة إلى قائدي السيارات الذين يملكون عقولاً يديرون بها مقاود السيارات كيفما شاؤوا ويرون أن السيارة جماد لا يفعل شيئاً ما لم يستخدم.

وهذا هو الرأي الصحيح والواقع المشهود، ولكن هل قائدوا السيارات مسؤولون عن وقوع الحوادث؟ والإجابة تأتي بنعم ونسبتها ٩٩٪ من واقع الحوادث لأن كل الدراسة التي تسفر عن التحقيق في معظم الحوادث إنما تكون نتيجة تهور وسرعة جنوبية مذهلة يتجاوز بلوغها حد السيطرة على السيارة عند وقوع أي خلل مفاجئ في أي جزء من أجزائها فتكون الكارثة المفجعة لركابها بما فيهم قائدها. أو أن يكون بسبب إهمال وعدم تفقد حالة السيارة قبل الانطلاق بها أو الجهل بأصول القيادة أو عدم التذوق لفنية القيادة.

وكم تمنى من وقع في الحادث أنه لم يركب سيارة وأنه اكتفى من وسائل الاتصال والنقل بالحصان والجمل والحمار.



وكل ما كان مستخدماً في الزمن السابق كيف لا وهذا الشاعر نسيب بن حمود أرسلان يحبذ ذلك بعدما رأى أن السيارة قتلت خلقاً كثيراً من الناس في قصيدة طويلة. منها قوله:

أولى فأولى أن يقلّ جسومنا
فرس أقبُّ وناقة شمليل

نِعْمَ الهوينا مع سلامة أنفس
ومع المنية بئسما التعجيل

هذا الذي تدعونه سيارة
عبء على كل الأنام ثقيل

إني رأيت مسيرة شبه الوغى
تعلو العجاجة والدماء تسيل

أو شبه صاعقة الغمام فرعدها
رجّ الحديد وبرقها القنديل

ومنها قوله:

إن دام هذا المركب القتال لم
يك عمر حيّ في البلاد يطول

والشعرة البيضا تعود كأنها
عنقاءُ في قصص الرواة وغول

في كل أسبوع لنا من فعله
رجل إلى جبّانةٍ محمول

ooooo

المنفلوطي يشيد في شعره بموقف ابن الزبير وتحميس أمه له!!

والحديث في هذا الموضوع عن ابن الزبير وقصته مع يزيد بن معاوية والحجاج يطول... ولكن الإشارة تجدر بنا قبل الدخول في ذكر هذه القصة إلى أن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما خرجت مهاجرة إلى النبي ﷺ وهي حبلى بعبد الله بن الزبير فوضعته فلم ترضعه حتى جاءت به إلى النبي ﷺ فوضعه في حجره وحنكه بتمرة فكان أول شيء دخل بطنه ريق رسول الله ﷺ وسماه عبد الله.

أما قصة قتله فكان سببه رفضه لطلب معاوية بن أبي سفيان مبايعة ولده يزيد ما دام معاوية حياً لأن ابن الزبير يرى أنه لا يكون في رقبته بيعتين. فملخصها أنه لما مات معاوية تثاقل ابن الزبير عن طاعة يزيد فبلغ ذلك يزيداً فأقسم لا يُؤتى به إلّا مغلولاً. فبعث إليه معين بن نمير الكندي فقاتل ابن الزبير في مكة وأحرق الكعبة. ثم بلغه موت يزيد فهرب وتولى الخلافة مروان بن الحكم فلم يطل عهده فيها فتولى الخلافة عبد الملك بن مروان فعقد للحجاج في جيش إلى مكة وظهر على أبي قبيس ونصب عليه المنجنيق يرمي به ابن الزبير ومن معه في المسجد. فلما كان الغداة التي قتل فيها ابن الزبير دخل ابن الزبير على أمه أسماء وهي يومئذ ابنة مائة سنة لم يسقط لها سن ولم يفسد لها بصر. فقالت: يا عبد الله ما فعلت في حربك؟. قال: بلغوا كذا وكذا وضحك وقال: إن في الموت لراحة. فقالت أسماء: يا بني لعلك تتمناه لي!! ما أحب أن أموت حتى آتي على أحد طرفيك. إما أن تملك فتقر

بذلك عيني. وإما أن تقتل فأحتسبك، ثم ودّعها فقالت: يا بني إياك أن تعطي خصلة من دينك مخافة القتل.

وخرج عنها فدخل المسجد فقيل له: ألا تكلمهم في الصلح فقال: أو حين صلح هذا!! والله لو وجدوكم في جوف الكعبة لذبحوكم ثم أقبل على آل الزبير يعظهم ويقول: ليكن أحدكم سيفه كما يكن وجهه ولا ينكسر سيفه فيدفع عن نفسه بيده كأنه امرأة. والله ما لقيت زحفاً قط إلّا في الرعيل الأول. وما آلمت جرحاً قط إلّا أن يكون ألم الدواء ثم حمل عليهم ومعه سيفان فأول من لقيه الأسود فضربه بسيفه حتى أطن رجله. ثم أخرجهم من المسجد وهو يقول: لو كان قرني واحداً كفيته. وكان على ظهر المسجد من أعوانه من يرمي عدوه بالآجر فأصابته آجرة في مفرقه حتى فلقت رأسه فخر رأسه وصلب في جذع فجاءت أمه فقالت للحجاج: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟. فقال الحجاج: المنافق. فقالت: والله ما كان منافقاً، إن كان لصواماً قواماً براً. قال: انصرفي يا عجوز فإنك قد خرفت. قالت: لا والله ما خرفت منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج من ثقيف كذاب ومبير» فأما الكذاب فقد رأينا، وأما المبير فأنت.

ومن أقوال عبد الله بن الزبير: والله لضربة بسيف في عز أحب إلي من ضربة بسوط في ذل.

ولقد لخص الشاعر مصطفى لطفي المنفلوطي هذه الواقعة في قصيدة جيدة. منها قوله:

إن أسماء في الورى خير أنثى
صنعت في الوداع خير صنيع

جاءها ابن الزبير يسحب درعاً
تحت درع منسوجة من نجيع



قال يا أماه قد عييت بأمري
بين أسر مر وقتل فظيع

خانني الصحب والزمان فما لي
صاحب غير سيفي المطبوع

فأجابت والجفن قفر كأن لم
يك من قبل موطناً للدموع

لا تسلم إلّا الحياة وإلا
هيكلاً شأنه وشان الجذوع

إن موتاً في ساحة الحرب خير
لك من عيش ذلة وخضوع

إن يكن قد أضاعك الناس فاصبر
وتثبّت فاللّه غير مضيع

○ ○ ○ ○ ○

جانب من وصف منفعة الصديق

من أقوال المصطفى والهادي البشير محمد ﷺ المعجزة الموجزة قوله عليه الصلاة والسلام: «المرء كثير بأخيه». والذي يتمعن جيداً في مفهوم هذه العبارة النبوية الموجزة يستطيع أن يكتب تحتها فصولاً بل أبواباً وموضوعات تشتمل على تفصيل دقيق لمعاني الحياة الاجتماعية بكل ما فيها من أنواع التكافل والتقايض والتعاضد في السلم والحرب وبناء الحياة.

وفي موضوع آخر قال عليه الصلاة والسلام مبيناً مكان الصاحب من صاحبه: «الصاحب رقعة في قميصك فانظر بمن ترقعه».

والأقوال في صفة الصديق ووصف منفعته كثيرة جداً. فمن ذلك قول شبيب بن شيبة: خير ما اكتُسِبَ إخوان الصدق لأنهم زينة في الرخاء، وعدة في البلاء، ومعونة على الدهر، وشركاء في الخير والشر.

وقال آخر: أعجز الناس من قصّر في طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم.

وقال آخر: وطن نفسك على أنه لا سبيل لك إلى قطيعة أخيك وإن ظهر لك منه ما تكره فليس الصديق كالمرأة تطلقها متى شئت، ولكنه عرضك ومروءتك.

وقال الأحنف بن قيس: خير الإخوان من إذا استغنيت عنه لم يزدك في المودة. وإن احتجت إليه لم ينقصك منها، وإن ظُلِمتَ عضدك، وإن استعنت به رفدك.



وإذا ما ألقينا نظرة على الشعر وجدنا أن الشعراء قد ساهموا في وصف منفعة الصديق مساهمة فعّالة، ولكنهم مهما وصفوا تفاني الصديق الوفي مع صديقه المخلص في الصداقة فإن واقع الحال يحتمل أي أسلوب من المبالغة في الوصف. قال بعضهم:

أخوك الذي لو جئت بالسيف مصلتا
إليه به لم يستغشك في الود

وجئت تدعوه إلى الموت لم يكن
يردّك إشفاقاً عليك من الرد

يرى أنه في الود وان مقصّرٍ
وإن زاد فيه بالوفاء على الجهد

وافتخر أحدهم بأنه الصديق المثالي فقال:

ما ودّني أحد إلّا بذلت له
صفو المودة منّي آخر الأبد

ولا قلاني وإن كنت المحب له
إلّا دعوت له الرحمٰن بالرشد

ولا ائتمنت على سرٍ فبحت به
ولا مددتُ إلى غير الجميل يدي

ولا أقول نعم يوماً فاتبعها
منعاً ولو ذهبتْ بالمال والولد

ولا أخون خليلي في حليلته
حتى أغيب في الأكفان واللحد

○○○○○

وكذاك يشهد

لقد عقد ابن قيم الجوزية وهو أحد شيوخ الإسلام فصلاً من منظومته النونية المشهورة التي تقدم الحديث عنها تحت عنوان «سلعة الرحمٰن» خصصه للكلام عن صفات الله تعالى. ودحض إنكار المنكرين لتلك الصفات التي منها عظمته وقدرته وحكمته وإرادته وكماله وعلو شأنه جل جلاله وتباركت أسماؤه وصفاته وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً وقد ضرب ابن قيم رحمه الله أمثلة عديدة للمعطلة والمشبهة، والموحدة فقال رحمه الله: المعطل كنافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة. والمشبه كبائع الخمر إما أن يسكرك وإما أن ينجسك. والموحد كبائع المسك إما أن يحذيك وإما أن يبيعك وإما أن تجد منه رائحة طيبة.

وقال أيضاً: منهل المعطل كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً فرجع خاسئاً حسيراً. ومشرب المشبه من ماء قد تغير طعمه ولونه وريحه بالنجاسة تغييراً. ومشرب الموحد كأس كان مزاجها كافوراً عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً.

وقال أيضاً: شجرة المعطل شجرة الزقوم فالحلوق السليمة لا تبلعها، وشجرة المشبه شجرة الحنظل فالنفوس المستقيمة لا تتبعها، وشجرة الموحد طوبى يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها.

وقال أيضاً: ثياب المعطل ملطخة بعذرة التحريف. وشرابه متغير بنجاسة التعطيل، وثياب المشبه متضمخة بدم التشبيه وشرابه متغير بدم التمثيل، والموحد طاهر الثوب والقلب، والبدن يخرج شرابه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.



أما الأبيات التي كانت ضمن القصيدة النونية الفريدة والتي صدر كل منها وعلى التوالي بهذه العبارة «وكذاك يشهد» فهي كما يلي:

والكون يشهد أن خالقه تعا
لى ذو الكمال ودائم السلطان

وكذاك يشهد أنه سبحانه
فوق الوجود وفوق كل مكان

وكذاك يشهد أنه سبحانه المـ
ـعبود لا شيء من الأكوان

وكذاك يشهد أنه سبحانه
ذو حكمة في غاية الإتقان

وكذاك يشهد أنه سبحانه
ذو قدرة حي عليم دائم الإحسان

وكذاك يشهد أنه الفعال حـ
ـقاً كل يوم ربنا في شان

وكذاك يشهد أنه المختار في
أفعاله حقاً بلا نكران

وكذاك يشهد أنه القيوم قا
م بنفسه ومقيم ذي الأكوان

والأبيات التي استهلت بـ«وكذاك يشهد» أكثر من ذلك.

○ ○ ○ ○ ○

ما حيلة من لا يعشق

ومن الناس من ليس في قلبه مكان للعشق. وهذا النوع ما حيلته في تبرير خشونة طبعه؟ وهو يعلم أن الجفوة والجلافة من الصفات التي ربما اشترك الإنسان مع بعض الحيوانات فيها: كالضب مثلاً، إلّا أن يكون الصد منه خوفاً من الوقوع في المصائد التي ينصبها المعشوق.

أما لسان حال من لا حيلة له في العشق أو المتخوف منه فقد نقله الشاعر نسيب بن حمود أرسلان في قالب شعري منه قوله:

إذا حيّاك معشوق مليح
فوجه بلائك الوجه الصبيحُ

بل لم يكتف من اللجوء إلى إظهار الجفوة وعدم الرغبة في مبادلة العشق بالعشق مع ذوي الوجوه الصباح، وإنما أتهم لسان المليح الذي أفصح له عن الحب بأنه ليس إلّا أداة تعبر عما ما يؤذيه فقط وذلك بقوله:

لسان الحب يفصح عن أداة
ولكن قد يساكتك الفصيحُ

تضل الرشد فيه فلست تدري
أتغدو حين تغدو أم تروح

ومع هذا كله فإنه: وأعني بذلك لا حيلة في العشق، لا يتورع من إنكار حقه من حب الحياة إنكاراً يصل إلى أن يوصف بأنه جسم بلا روح:



وتنكر حق حبك من حياة
كأن الجسم لم تملكه روح

وعلى الرغم من ذلك فهو حيّ لا يجد في الأماني ما يلتذ به كسائر الناس المتمنين. كما أنه لا يجد في حسن المنظر متعة:

فلا هو بالمنى يرتاح يوماً
ولا هو بالمنية يستريح

تذبذب لا فائدة منه، وصدود لا حيلة للعشق فيه:

يميتك بالصدود ولا يبالي
على الذبّاح، قد هان الذبيح

وعلى هذه الوتيرة ينقل الشاعر نسيب أرسلان هذه الصورة التي تمثل عشقاً من طرف واحد. لأن الطرف الثاني لا حيلة له في استقبال العشق:

يطير إليه قلبك حيث أضحى
وأعجب كيف ينتهض الجريح
لأن أبدى التودد فهو حتماً
عليك بذكر خاطره شحيح

○ ○ ○ ○ ○

حتى لا يتسع الخرق على الراقع!!

ومع دوران عجلة الزمان وتلاحق الأحداث التي شملت تقارب الأمم عن طريق وسائل النقل ووسائطه الحديثة نشاهد تأثر المجتمعات التي كانت محافظة على تقاليدها وتراثها العقيدي وعاداتها المتوارثة. ذلك التأثير الذي اتجهت معه نحو مواكبة كل جديد سواء كان مادياً أم فكرياً صارفة النظر عن مدى مواءمته لأخلاقها وديانتها وأساليب حياتها الموروثة.

والذي يلقي نظرة على هذا التمازج الذي حصل بين الشعوب يعطي الحكم على أن هناك شعوباً صغيرة ذابت في خضم أنظمة وتقاليد الشعوب التي اجتاحها بعامل القوة، والكثرة، والمادة.

ونحن هنا كأمة مسلمة، وعندما أقول «نحن» فإني أعني بذلك العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه، نرى أن العالم ذا القوة المادية والفكرية قد هبَّ إلى غزونا في عقر دارنا فوجدنا أمة متماسكة صلبة. لا نرغب عن ملتنا، ولا نتنازل عن تقاليدنا، ولا نضيع تراثنا، فراح مفكروه يبحثون بكل ما أوتوا من أساليب منطقية وفلسفية مُضلّة. وأجهدوا أنفسهم في سبك الأساليب الفكرية وتغليفها بأغلفة تستهوي السذج منا ثم الذين يلونهم من حيث الإدراك ثم الذين يلونهم. وقد أوشكوا على النجاح في مهمتهم هذه. وذلك بدليل أننا نسمع من الذين هم فوق درجة السذج. قولهم: «اتسع الخرق على الراقع» وسياق هذا المثل يشتم منه رائحة الاستلام. وعلى هذا فإنه لا بد من مجابهة هذا المد الشامل المدمر وأن لا يطول زمن الإعداد لمصادمته ومقارعته

مقارعة شاملة ليست مقصورة على الدعاة وإنما تعبئة عامة لجميع الفئات حتى نقف بكل صلابة دون عقائدنا وجميع موروثاتنا الأدبية والأخلاقية ونكون أمة متميزة بشرف الإسلام وقوة الإيمان والضراعة إلى الله.

يقول الشاعر السعودي محمد أحمد باشميل في أحد مقاطع قصيدة له عنوانها «هل هذا من العروبة»:

أف لـهـا مـدنـيـةً جـلـبـت لـنـا
درن الـيـهـود وحـطـة الـعـبـارني

وثـقـافـة قـد فـرقـوا بـذيـوعـهـا
وبـهـا اسـتـبـاحـوا أكـثـر الأوطـان

وبـنـوا بـهـا جـيـلاً تـخـنـث فـاسـداً
مـتـبـذلاً فـي الـسـر والإعـلان

جـيـلاً يـرى سـنـن الإبـا رجـعـيـة
ويـرى الـبـلا فـي شـرعـة الـرحـمٰـن

ويـرى انـتـشـار الـكـفـر عـلـمـاً راقـيـاً
والـديـن داء مـفـسـد الأوطـان

ويـرى بـأن الـعـرب مـا زالـوا عـلـى
فـرش الـجـمـود ومـرقـد الـنـقـصـان

حـتـى يـصـيـر الـمـرء فـيـهـم مـطـلـقـاً
كـالـتـيـس حُـرّاً داخـل الـقـطـعـان

وهـنـا يـنـال الـعـز فـيـهـا مـقـعـداً
ويـصـيـر حـقـاً مـن بـنـي الإنـسـان

○ ○ ○ ○ ○

الحرف المنظوم تأريخ وأصالة

وليست العبرة في دوران الفلك وتتابع الأيام الذي يخلف ركاماً من العصور والأزمان والدهور التي تطوي حياة كل حي دونما توقف.

لكن العبرة تأتي من الوقوف على الأطلال والرسوم والآثار. وما ترويه صحيح الأخبار عما كان وصار. والمرجع في الاعتبار عندما تندثر المعالم والآثار هو الحرف الذي يسجل الأحداث ويرصد السِّيَرَ ويحدد المواقع. ويصف العادات والتقاليد. ولا غير الحرف الذي يطبع على صفحات التاريخ يبقى شاهد عيان لحضارة زالت ودولة دالت.

ونحن إذا ما رجعنا إلى سجلات التراث التي سطرتها أيد سادت ثم بادت وقفنا وكأننا نرى وننظر بأم أعيننا إلى ما كانت عليه الأمم السالفة من هيئة. بل إن جودة التسطير وإحكام التصوير ليجعلنا في شبه معايشة للأمم التي حَذَقَ مؤرخوها وكتابها في وصف حياتها ورسم شخصيتها.

وما دمنا نعتمد على معرفة حياة من سلف عن طريق الحرف المقروء فإن مجمل ما نستقيه من المعلومات يكون من حرفين فقط أحدهما: الحرف المنثور، والآخر: الحرف المنظوم. والبحث في أيهما أبقى وأوفى وأبلغ تصويراً قد ينصب على أن الحرف المنثور هو الذي قد رسم صورة الماضي.

لكننا يجب أن لا نغفل الحرف المنظوم ونهضمه حقه أو ننكر فضله إذ هو أقدم في تسطير التاريخ من الحرف المنثور. وحتى لا نجحد ما للحرف المنظوم من دور فعال في حفظ السير الذاتية وتاريخ



الأحداث فإنه يجدر بنا أن نذكر أن الشعر الجاهلي قد صار وما زال مصدراً معتبراً بل معتمداً للتاريخ ونقل الأحداث التي جرت في تلك الحقبة. حيث لا يوجد آنذاك حرف منثور، إلّا نادراً. ولهذا القدم وتلك الميزة خلد الشعر وتوارثته الرواة منذ نشأته من ذلك الماضي السحيق.

وفيما يشير إلى خلود الشعر يقول الشاعر السوداني إدريس محمد الجماع في قصيدة تضمنها ديوانه: «لحظات باقية»:

كم قصور قد كن سحر المآقي
ورياض مخضلة الأوراق

وجيوش تلاحمت والتقى الأبـ
ـطال بين الإرعاد والإبراق

وكؤوس قد أترعت بسلاف
في لقاء العشاق بالعشاق

ألهمت كل هذه شاعر الأمـ
ـس فغنى كالزاخر الدفاق

أين سحر القصور والجيش والجبـ
ـار أين الندمان أين الساقي

قد محا كل هذه موكب الأزما
ن حتى الصخر المشيد الراقي

سحق الدهر كل ما ألهم الما
ضين شعراً وها هو الشعر باقي

خالد الشعر ما توثق بالنفـ
ـس ومدّ الجذور في الأعماق

شيء من طرف ابن الضحاك واستماحته!!

والمواقف الطريفة التي خلفها الشعراء والأدباء وأصحاب الأقلام من أهل الفكاهات والنوادر، وأودعها المؤلفون بطون كتب السير وأسفار الأدب يجد فيها القارئ مستراحاً بل إنه ليقف عندها ضاحكاً كأنما هو يسمع بأذنيه ويرى بعينيه ذلك المشهد الطريف الذي قرأه.

ولا أخال القارئ الذي قد شغف بحب التأليف والكتابة الأدبية إلّا راصداً لكل طرفة يمّر بها حتى إذا ما أصبح في مفكرته عدداً منها بثها في أي مؤلَّف من مؤلفاته لتكون فيه بمثابة الملح في الطعام.

وها أنذا ألتقط مشهداً طريفاً وظريفاً للحسين بن الضحاك مع المعتصم ومحمد بن الحارث. وفيه أن ابن الحارث كان يحب الغبوق والمعتصم يحب الصبوح. فقال الحسين بن الضحاك فيه وفي شخص يقال له حاتم الريش الضراط. وكان حاتم الريش من المضحكين. هذه الأبيات:

حُبُّ أبي جعفر للغبوق
كفبحك يا حاتم مقبلا

فلا ذاك يعذر في فعله
وحقك في الناس أن تقتلا

وأشبه شيء بما اختاره
ضراطك دون الخلا في الملا



ويروى أنه (أي ابن الضحاك) كان عند صالح بن الرشيد. فجرى بينهما كلام على النبيذ وقد أخذ الشراب من الحسين بن الضحاك مأخذاً قوياً فرد على صالح رداً أنكره وتأوله على غير ما أراد الحسين، فهاجره، فكتب إليه الحسين بهذه الأبيات:

يا بن الإمام تركتني هملاً
أبكي الحياة وأندب الأولا

ما بال عينك حين تلحظني
ما إن تُقل جفونها ثِقلا

لو كان لي ذنب لبحتُ به
كي لا يقال هجرتني مللا

إن كنتُ أعرف زلةً سلفت
فرأيت ميتة واحدي عجلا

ومعنى البيت الأخير أنه يدعو على ولده الواحد بالموت عاجلاً إذا كان يعرف له زلة سلفت... وطلب العفو والتماس المسامحة موضوع تزخر به كتب الأدب.

وفي الاطلاع على صور العرض على المطلوب منه العفو. متعة لأنه يأتي في أساليب مختلفة بحسب اختلاف مكانة المستماح ومقدرة المستميح. ولهذا صُنّفَتْ في هذا الموضوع فصول طوال تشتمل على عدة عناوين منها: الاعتذار والاستعطاف، والصفح، والعفو، والاستماحة، وكلها تشتمل على أساليب من الجد والهزل ومن الاستماحة التي تقرب في معناها من قول ابن الضحاك لصالح بن الرشيد ما ينسب للعباس بن الأحنف قوله:

بحرمة ما قد كان بيني وبينكم
من الود إلّا عدتم بجميل

ولأ

أنشأ ابن قيم الجوزية نونية فريدة من نوعها، هي الآن أشهر من أن تذكر لا من حيث طول النفس الذي بلغ بها نحواً من خمسة آلاف بيت، وإنما لوحدة الموضوع، حيث وظفها في العقيدة الإسلامية جزاه الله خيراً فاشتملت على مناهضة أصحاب البدع ومقارعة أصحاب المذاهب الفاسدة كما اشتملت على تقريرات ووصف لأهل الجنة وغير ذلك مما ذكرت جزءاً منه في موضوعين تقدما في هذا الكتاب أحدهما عنوانه: «سلعة الرحمٰن» والآخر عنوانه: «وكذاك يشهد».

وقد كانت (وأعني بذلك نونية ابن قيم الجوزية) بغية لمن ألف بعده. حيث وجد فيها كنزاً للاستشهاد على أي موضوع له صلة بأي بحث في العقيدة.

ولقد تأثر بمنظومة ابن قيم تلك علماء كثيرون وتعشقوا نظمها وفصولها وأسلوبها ومغزاها بل ومفرداتها فراح كثير منهم ينظم على نمطها نظماً يكاد يكون معارضاً لها في الوزن والقافية والموضوع. فهذا مثلاً الإمام القحطاني واسمه أبي محمد عبد الله بن محمد الأندلسي القحطاني قد نظم على غرارها قصيدة تعرف الآن بـ«نونية القحطاني» وقد أدرج فيها أبياتاً تبلغ نحواً من أربعة وعشرين بيتاً كلها مبدوءة باللام الواقعة في جواب القسم الذي توعد به أعداء الله بالثأر منهم والتنكيل بهم جزاءاً لهم على كفرهم وعنادهم وجحودهم، وذلك بقوله:

لأقطعنّ بمعولي أعراضكم

ما دام يصحب مهجتي جثماني

ولأهجونكم وأثلب حزبكم
حتى تُغيّبُ جثتي أكفاني
ولأهتكن بمنطقي أستاركم
حتى أبلغ قاصياً أو داني
ولأهجونّ صغيركم وكبيركم
غيظاً لمن قد سبني وهجاني
ولأقصدنّ اللّه في خذلانكم
وليمنعنّ جميعكم خذلاني
ولأحملنّ على عتاة طغاتكم
حمل الأسود على قطيع الضان
ولأغضبنّ لقول ربي فيكم
غضب النمور وجملة العقبان
ولأضربنّ بصارم مقولي
ضرباً يزعزع أنفس الشجعان

والقصيدة في جملتها تبلغ نحواً من سبعمائة بيت.

○○○○○

استملاء شاعر

لقد مر بنا القول عن الحسين بن الضحاك في أكثر من موضع. أحدها تحت عنوان: «شيء من طرف ابن الضحاك واستماحته» والذي يتتبع أخبار ابن الضحاك ويستشرف سيرة حياته يجد فيها كثيراً من المواقف الطريفة الظريفة التي تستوقف القارئ وتلفت انتباهه إلى ما كان يتمتع به من ظرف وأدب.

من ذلك أنه دخل في يوم من الأيام على الحسن بن سهل في فصل الخريف وقد جاء وسمى من المطر فرش رشاً حسناً وبين يديه وصائف وغلام كالدينار. فقال:

ألـــســـت تـــرى ديـــمـــة تـــهـــطـــل
وهـــذا صـــبـــاحـــك مـــســـتَـــقـــبـــلُ

فقال الحسن بن سهل: بلى، فقال الحسين:

وتـــلـــك الـــمـــدام وقـــد شـــاقـــنـــا
بـــرؤيـــتـــه الـــشـــادن الأكـــحـــل

فقال الحسن: صدقت، فقال الحسين:

فـــعـــاد بـــه وبـــنـــا ســـكـــرةٌ
تُـــهـــوّن مـــكـــروه مـــا نـــســـألُ

فسكت الحسن. فقال الحسين:

فـــإنـــي رأيـــت لـــه نـــظـــرةً
تـــخـــبّـــرنـــي أنـــه يـــفـــعـــل

ثم قال الحسن: مه، فقال الحسين:

وقد أشكل العيش في يومنا
فيا حبذا عيشنا المشكِلُ

فقال الحسن: العيش مشكل؟!! فقال الحسين: مبادرة القصف وتقريب الألف. قال: على أن تقيم معنا وتبيت عندنا. قال:

أَلَا أيها الشادن الأكحل
إلى كم تقول ولا تفعل

إلى كم تجود بما لا نريد
منك وتمنع ما نسأل

والحسين بن الضحاك كأي شاعر من الشعراء الذين يكيلون المدائح لمن ينالون منه فضلاً وتصيبهم منه هبة ويحظون منه بصلة. وقد كان له مدائح وكان له عكسها مع معاصريه. أما الحسن بن سهل الذي استملى بديهة ابن الضحاك في الأبيات المتقدمة فقد نال من مديح ابن الضحاك أصدقه من ذلك قوله في البيت التالي الذي استهل به إحدى قصائد مدائحه:

أرى الآمال غير معرجات
على أحدٍ سوى الحسن بن سهل

○○○○○

صوت من وراء القضبان!!

لقد عنون الشاعر السوداني إدريس محمد جماع إحدى قصائده التي حواها ديوانه «لحظات باقية» بـ«صوت من وراء القضبان» بعد أن أبحر في لجتها بمجداف مصبوغ بسواد الأسى والتفجع. وأخذ يرسل النداء ويستصرخ بصوت تعصف به أعاصير الحياة فلا يرجع له صدى ولا يُسْمَعُ له أنين. ولكن ما الذي تفعل النفس إذا كان صوتها لا يتجاوز القضبان التي هي بداخلها.

وماذا عسى أن يفعل إدريس وكل شيء يقف حاجزاً دون رؤيته وصوته:

على الخطب المريع طويت صدري
وبحت فلم يفد صمتي وذكري

وفي لجج الأثير يذوب صوتي
كساكب قطرة في لج بحر

وإذا ما نزلت بساحة الإنسان نازلة أو تتابعت عليه مصائب الدنيا وتواترت عليه سهام العداء فإن فسيح الكون وواسع الأفق تتقارب أطرافه من حوله ويصير سجناً ضيقاً:

أشاهد مصرعي حيناً وحيناً
يخايلني بها أشباح قبري

وفي الكون الفسيح رهين سجن
يلوح به الردى في كل شبر



وثورة النفس إن لم تجد طريقاً يفضي بها إلى عالم تطمح في معايشته فإنها تعود بثورتها مرتدةً إلى صدر صاحبها لتحدث فيه ما يشبه البركان الذي يقذف الحمم في فضاءات واسعة. وإذا ما هدأت تلك الثورة ثم طلبتِ الحياة التي كانت عليها في السابق تعذّر ذلك عليها:

وأحــلام الــخــلاص تــشــعّ آنــاً
ويــطــويــهــا الــردى فــي كــل ســتــر

حــيــاة لا حــيــاة بــهــا ولــكــن
بــقــيــة جــذوة وحــطــام عــمــر

ويدب اليأس إلى نفس من يعيش خلف القضبان. ويتولى الإرهاق والتأزم والضجر النفسي إضعاف كل شيء كان قوياً شديداً في جسمه حتى يتضاءل تضاؤلاً يجعل العيون التي كانت تعرفه تنكره وتصدّ عنه بل لا ترغب في رؤيته حتى لا يضل أمامها شبحاً مخيفاً ومؤثراً. يصدفها عن رؤية الواقع ومشاهد الطبيعة:

تــطــالــعــنــي الــعــيــون ولا تــرانــي
فــشــخــصــي غــيــرتــه ســنــيــن أســر

يــصــم صــلــيــل هــذا الــقــيــد ســمــعــي
وفــي الأغــلال وجــدانــي وفــكــري

○ ○ ○ ○ ○

روح من الحاضر تتنفس بأنف من الماضي!!

ويكاد يطوي الناقد في عصرنا هذا قلمه وأدوات كتابته معلناً عدم وجود مادة تستحق قيمة حبر القلم واقتطاع جزء من الوقت. خاصة الذي يتابع ما تلفظه أقلام بعض الشعراء المعاصرين حيث أصبح الشعر بضاعة مغشوشة، وجداراً متكسراً عبثت فيه يد الجهل بالبناء.

وبالرغم من الفتور عن نقد القصيدة المعاصرة التي أصابها من الوهن والضعف ما لا يقوّمه قلم رقيب ولا رأي ناقد إلّا أن عين الناقد لاتغفل عن التجوال في محيط أي إصدار أو مجلة أو جريدة وكأنما هو يقول لكاتب أي قصيدة أو موضوع، لعل أو عسى، ولهذا نقرأ بين الحين والآخر بعض الموضوعات التي تتسم بطابع النقد.

وإذا ما عثر الناقد على قصيدة ذات روح معاصرة تتنفس بأنف من الماضي أبحر بزورقه في محيطها بحثاً عن عنصر الأصالة التي لمسها في تركيب لفظي أو صورة بلاغية مندفنة في أبياتها لأن ذلك هو بغيته ومطلوبه بل ضالته، فلا يتوانى في امتشاق قلمه ليسجل ملاحظاته بأسلوب فيه إطراء لشاعر تلك القصيدة وفيه طلب استزادة من تلك الأصالة التي امتزجت بها روح القصيدة.

وتناول هذا الموضوع المتعلق بحالة النقد لم يخطر ببالي. لا لأنه ليس بذي أهمية وإنما لأنه تناوله كتّاب أقدر مني.

ولأنني أسير على الأثر من حيث تتبع الجيد من الإنتاج الأدبي فقد قرأت مؤخراً قصيدة لشاعر عماني شاب اسمه سيف الرمضاني من



سلطنة عمان عنوانها «مخاض قصيدة» وقد نشرتها المجلة العربية في عددها ١٦٥ شوال ١٤١١هـ فكانت السبب من حيث تناول هذا الموضوع، وحيث أنني لا أجد متسعاً مساحياً يكفي للتجوال في أرجاء تلك القصيدة أرى أن أكتفي بما أسلفته عن النقد لأختار من أبيات قصيدة الرمضاني ما ينطق بالأصالة التي أشرت إلى أننا نوشك على افتقادها من شعرنا المعاصر، يقول مخاطباً قصيدته:

إليّ عروس الشعر والشعرُ مُضْرِبٌ
عن البوح هلا كنتِ من وعده أوفى

تتوق إلى الميدان خيلي صبابة
ويمنعها الترويض أن تتقن الزحفا

وترهقني الأشعار (لا صح وزنها)
تعللني يوماً وتقتلني ألفا

إليّ عروس الشعر فالبرد كافر
وحضنك أني جئت من ليلتي أدفا

تعالي إلى صدر من الشعر حالم
وروض من الآمال يستعذب القطفا

أطلي على دنياي نهراً من السنا
وجرحاً عروضياً يشاركني المنفى

ومنها قوله:

دعيني أجوب الآن بحرك قاطعاً
مضائق قد كانت تبادلني العطفا

دعيني أضم الفجر أرشف ما به
من الطل والأضواء أروي بها الجوفا

والقصيدة أطول من ذلك.

إبحار الشعر في العيون!!

والعيون هي واحدة من العديد من المفاتن التي تثير المشاعر وتلهب حماس العشاق وتزرع في قرائح الشعراء قصائد الغزل.

والعيون إذا لم يكن بها موضع جمال يجد فيه الشعراء منطلقاً لأساليبهم الوصفية كالحور وسواد الهدب وغير ذلك مما في العيون من جمال خلقي. فإنها ترفض الصد عنها وتفرض لها مكاناً في الغزل وذلك لما لها من لغة ساحرة وبيان تقرؤه العيون الأخرى التي تبادلها النظرات.

وحتى لا يجرني الحديث عن العيون فيفرض عليّ سرد شواهد مما قيل من رقيق الشعر وبديع النثر. أرى أن أقتصر على الوقوف على قصيدة حديثة قيلت في جمال العيون وهي من شعر محمد أحمد باطوق. وقد قرأتها في المجلة العربية في عددها ١٦٥ شوال، عام ١٤١١هـ، وقد استهلها بقوله:

عيناك منبع إلهامي وأشعاري
نهران من نغم يسري بقيثاري

وباطوق قد جعل من عيني محبوبته مصدر إلهام لأشعاره ووصفهما بالنهرين اللذين يحيط بشاطئيهما خط أسود قد رمز به إلى الكحل الذي يزيد من جمالهما:

الشاطئان بخط الكحل قد رسما
واللج أجهد مجدافي وإبحاري



أما الأهداب عند باطوق فشيء تستجيب له القريحة ويغرّد له الشعر تغريد من يستريح في جمال الطبيعة بين الأنهار والأفياء:

يغرد الشعر للأهداب وارفة
كأنه بين أفياء وأنهار

وربما لحنت العيون ما يقال فيها من أشعار على قيثارة تردد نغماتها الإغضاءات المتعمدة التي يقصد بها الإثارة:

سمراء منك أغاريدي وقافيتي
ومن عيونك ألحاني وأشعاري

إليك حرفي بجوف النور أرسله
ومن سحاب السنا غيثي وأمطاري

ولعل من أسباب تألق بعض قصائد الغزل هو ما يرد فيها من ذكر للعيون، والذي يتتبع ما قيل في العيون قد لا يخالفني الرأي لأن الشعراء قالوا وأكثروا في ذلك. بل صاحب إكثارهم تفنن بديع في وصف العيون:

فليبحر الشعر في العينين مؤتلقاً
وليكفف الشعر عن عُرًى وأوزار

فأروع الشعر ترنيم بعاطفة
معينها العذب من نور ونوار

أصون حسنك يا سمراء في خلدي
كما يصون اللآلئ جوف محار

○○○○○

ومن البلية أن!!

إذا كان لكل زمان دولة وسلطان كما يقولون. فإن المخضرمين الذين يعيشون بين زمانين. أو يعايشون دولتين أو خلافتين تكون السالفة خيراً من الخالفة. فإنهم يتذكرون زمناً مضى وانقضى مع الأولى. بل يتمنون رجوعه وذلك حينما يرون الأسافل قد أصبحت أعالي وأراذل الناس قد ملكت أمر أطايبهم وساد في الناس من لا يحسن السيادة، ونطق العي، وصمت المفوه، وانقلبت مفاهيم الموازين الفكرية والعقلية والسياسية لدى الناس.

واضطربت عقارب ساعة الزمان فقلب ظهر المجن لأهله. فاستحال حسن السجايا التي كانت معهودة فيه إلى أذايا وبلايا تتقى.

لقد وقف الشاعر السعودي عبيد عبد الله مدني المولود بالمدينة المنورة عام ١٣٢٤هـ، والمتوفى سنة ١٣٩٦هـ، من تقلبات الزمان وغيره موقفاً كله استغراب مما يحدث من عكسيات للواقع فراح يعدد البلايا في قصيدة مكونة من خمسة عشر بيتاً صدر جميع أبياتها بكلمة «ومن البلية أن»وهي موجودة في الجزء الأول من ديوانه «المدنيّات» وقد استهلها بقوله:

ومن البلية أن يسود مغفّلٌ
كأبي الذكاء وطائش مأفونُ

ومن البلية أن يسوس مشرّد
فيسف في نزواته ويمينُ

ومن البلية أن يسيطر غاشم
فيعيث وهو بغيّهِ مفتون

ومن البلية أن يغشّ مؤمَّنٌ
فيُضِلَّ في إخلاصه ويخون

ومن البلية أن يبيع ويشتري
فيما لديه الخازن المأمون

ومن البلية أن يهيمن جاهل
والويل باستطلاعه مرهون

ومن البلية أن يدير مهرج
كبر الشؤن وأن يُدار رزين

ومن البلية أن يذلّ مُفَضّلٌ
سامي الخلال وأن يعزّ مهين

وعلى هذا النمط سار عبيد مدني بتلك القصيدة حتى استكمل فيها ما كان يريد ذكره بكل وضوح في المعنى وجلاء في الصورة.

○ ○ ○ ○ ○

أي بني!!

و«أي بني» هو عنوان لمؤلَّف لمعالي الدكتور عبد العزيز عبد الله الخويطر والذي صدر منه حتى كتابتي هذا الموضوع في شهر ذي القعدة سنة ١٤١١هـ، ثلاثة أجزاء. وأنا هنا لا أريد التحدث عما احتواه هذا الكتاب بقدر ما أريد الإشارة إلى «الابن» الذي هو بمثابة الحقل الذي يحرص الأب على أن يغرس فيه من خصال الأدب ما يحرص صاحب الحقل على غرسه مما يتخيره من أطايب الشجر حتى يكون موضع اهتمام من قبل المجتمع لا أن يكون كالأرض القاحلة التي لا يأنس بها أحد.

أما الدكتور الخويطر فقد اتكأ على كلمة «أي بني» في جميع مواضيع كتابه. وهي في الحقيقة كلمة ذات جرس عاطفي ونغمة فيها تنبيه إلى تلقي وصية ناصح أو مشورة مجرب.

وقد اتخذ منها منطلقاً لجميع إشاراته الإرشادية بل جعلها مصباً لنصائحه وتوجيهاته الشاملة التي كثيراً ما تأتي في شبه قصة قصيرة اقتبسها من كتب التراث وهذب ألفاظها بأسلوب العصر الذي سلك فيه نهج المقارنة بما تعنيه من أشياء صارت تراثاً وبما هو قائم الآن من صناعات تكنلوجية حلت محلها ونظم اقتصادية وسياسية ما كانت تعرف في السابق. ولو أن الدكتور الخويطر اختار مخاطبة أخيه مثلاً بقوله: «أي أخي» فإن فرضية إملاء ما هب ودب مما ضمه كتابه من طرف وملح وفكاهة ونكت، وجد وهزل وتعليم ولفت نظر وتوجيه وتحذير وغير ذلك مما هو زاخر به كتاب «أي بني» لا يتفق في مستوى التوجيه مع مقام الأخ. ولهذا فإنه قد وفق لعنوان كتابه توفيقاً حسناً. على أنه لا غرابة في أن يؤلِّف معالي وزير المعارف الدكتور عبد العزيز الخويطر هذا النوع من التأليف. لأن تهذيب الابن وتأديبه وتثقيفه



لا يتأتى لكل أب ولهذا تبرز فوارق الثقافة بين الشباب. أما عاطفة الأبوة فتكاد تكون في درجة واحدة من حيث الإحساس والشعور لدى جميع الآباء سواء منهم المقتدر على تثقيف ابنه أو غير القادر على ذلك إلّا ما شذ. وذلك قياساً على أنه لو يصاب الابن فإن درجة الإحساس والتألم عند كل أب ستكون في مستوى واحد إذ يسهر لسهره كل منهم ويجد في معالجته.

يقول الشاعر السوري فياض شحادة نصور من قصيدة له نشرتها المجلة العربية في عددها ١٦٥ شوال سنة ١٤١١هـ:

تبكي وتشكو رعاك اللّه يا ولدي
هي الحياة وكم فيها من النكد

عيناك تهتف بي ويحي أأخذلها
بالقلب أفديك يا قلبي ويا كبد

أمضّك الداء هل تشفيك عاطفتي
ولهفتي ودموعي وارتعاش يدي

لو كنت أملك أن أفديك كنت فدى
لما تعاني من الأوجاع والكمد

ومنها قوله:

فاصبر بني على البلوى ولوعتها
فالصبر يعطيك ما ترجوه من مدد

نم يا حبيبي فقلبي ساهر أبداً
يرعى النجوم وجفني بالسهاد ندي

مع الصباح تطل الشمس دائفة
ويشرق الكون في أثوابه الجدد

أغفى على ساعدي والداء يرعشه
رباه عفوك ساعدني وكن عضدي

صور المجاعة في التلفزيون تهز مشاعر الشعراء!!

إن وسائل الإعلام في عصرنا هذا وخاصة منها الوسيلة المرئية (التلفاز) الذي عَرّبه العرب بـ«المرناة، أو الرائي» ولم يجد هذا التعريب قبولاً. إذ لم يتداوله الناس فيما بينهم كتداولهم كلمة «التلفزيون».

أقول: إن هذا الجهاز وكما نشاهده ينقل الأخبار والأحداث حية وطرية من جميع أنحاء العالم بحيث تشاهد بأم عينك أشياء لم يمض على حدوثها إلّا دقائق. هذا إذا لم يكن النقل مباشراً أما إذا كان النقل التلفزيوني مباشراً على الهواء فإن الذي يشاهده وهو في أقصى الغرب يرى ما يحدث في أي مكان توجه إليه عدسات التصوير التلفزيوني في أقصى الشرق بحيث يرى جريان الأحداث دون وسائط نقل إخباري توثق وتحقق. وبهذه الرؤية المباشرة لما يحدث في العالم من الأخبار السارة والمفرحة أو المسيئة المحزنة يحصل التأثر النفسي وتتحرك المشاعر نحو المشاهد المحزنة.

ولعل أكثر ما يثير النفس مما ينقل عبر التلفزيون من حوادث كالزلازل والانفجارات البركانية والانهيارات الأرضية وجميع الكوارث الطبيعية وغير الطبيعية مما هو من أعمال الإنسان كالحروب وغيرها. هو تلك الحوادث التي تخلف وراءها المجاعات والآثار الصحية السيئة.

والشعراء يجسدون الصورة المحزنة التي يشاهدونها في التلفزيون في أبيات يكون لها تأثير على أذن السامع.

ومن الشعراء الذين رصدوا تلك الأحداث عن طريق التلفزيون الشاعر عبد الله محمد المساوي من «أبو ظبي» الذي نشرت له «المجلة العربية» في عددها ١٦٤ رمضان سنة ١٤١١هـ قصيدة تحت عنوان «لحظة أمل» وهي كما يقول وليدة مشاهدة لما عرضه التلفزيون لبعض المشاهد عن المجاعة المؤلمة في بعض البلاد الإسلامية. يقول منها:

أقلوب بين الجوانح تأسى
لأسى الناس؟ أم صخور حملنا؟

فنرى الأم ترضع الطفل جوعاً
فوق جوع من ثديها دون معنى

مثل عرجون نخلة قد تبدى
وهو في الأصل كان كالورد حسنا

حاولت وضعه على الأرض كيما
يبدأ المشي كي تُسرّ وتهنا

فتهاوى من فرط جوع وضعف
خر في الأرض باكياً يتثنّى

شبح كله... عظام تراءت
وعيون من فرط جوع جحظن

هو والأم في المجاعة سيان
نحولاً جسماً وأذناً وعينا

مثلها مثله ألوف ألوف
تملأ الأرض تطلب الناس حسنا

○○○○○

تفضيل المرأة في أعمال السكرتارية والفندقة!!

وإذا ما نظرنا إلى المرأة كشريك للرجل في الحياة. وأن عليها أن تعمل فيما يسعها العمل فيه فإن الأمر يتطلب منا معرفة المجالات التي يمكن أن يكون للمرأة فيها دور فعال تتفق طبيعته مع ما تقره لها مبادئ ديننا الحنيف.

فالتعليم مثلاً: وأعني بالتعليم تعليم البنات، هو مجال عمل شريف للمرأة بل هو رسالة ملقاة على عاتقها نحو بنات بلدها. كما يضاف إليه بعض الأعمال اليدوية كأشغال الإبرة والتدبير المنزلي والتطبب والتمريض في عيادات الطب النسائي. وإذا ما اعتبرنا التعليم وما أسلفت ذكره أمراً مفروغاً منه ولا جدال في ضرورة تولي المرأة القيام به. فإن هناك مجالات أخرى لا بد من عرضها على مبادئ ديننا الحنيف الذي صان المرأة وارتفع بها إلى مكانتها التي افتقدتها في الجاهلية. وضمن حقوقها بتحديد ما لها وما عليها من واجبات نحو بيتها وأسرتها ومجتمعها. ولهذا فإن أي عمل تقوم به المرأة لا يتفق مع مبادئ الدين الإسلامي يعدّ مخالفة عليها ومعصية منها لأمر دينها. والذي يثير الدهشة والعجب ويدعو إلى التساؤل، هو عناد المرأة في بعض البلاد العربية وإصرارها على مزاولة العمل جنباً إلى جنب مع الرجل في جميع المجالات. بل إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة ويعم الفساد وتدمر الأخلاق والفضائل يفضلون المرأة على الرجل في بعض الأعمال وخاصة منها «السكرتارية» و«أعمال الفندقة». وهي وأعني بذلك المرأة لا تأبه بما

لتفضيلها هذا من مغازي سيئة وأهداف خسيسة. أقلها جعلها وسيلة لرفع دخل الفندق وتزاحم زبائن السوء عليه.

والغريب في الأمر أن زوج أو أب أو أخ أو أي محرم لهذه العاملة هو الذي يقوم بنقلها برضاه إلى مقر عملها الذي أستطيع أن أسميه (مكان العرض) ليس إلّا.

وإذا كان لا بد من ختم هذا الموضوع بأبيات شعرية فهاك هذا المقطع من قصيدة لمحمد أحمد باشميل عنوانها: «هل هذا من العروبة» يقول:

قمتم لتحرير الفتاة بزعمكم
فجلبتموها معرض العيدان

فلشدّ ما أرخصتموها بضاعةً
في أخجل الأشكال والألوان

وغدت لحجرات الفنادق ربّة
تُرضي النزيل برقة وحنان

وتثير في الرّواد من نسماتها
عبث الشباب وشطحة النشوان

تهتز فيما بينهم ميالة
في مشيها كالمثمل السكران

يهتز فيها كل شيء مثل ما
يهتزّ غصنٌ في النسيم الواني

هذي الديانة ليست لها
شبهٌ مضى في سيرة العُربان

كانوا على «كفرانهم وضلالهم»
يستنكرون تبذّل النسوان

من صور التقابل المختلفة القيم

ويكاد يجزم المرء بأن الحياة بجميع أشكالها المتعلقة بظروف الإنسان قائمة على أنماط من التقابل المختلفة القيم والأهداف. فالخير مثلاً يقابله الشر والإحسان تقابله الإساءة والعلم يقابله الجهل. والنور يقابله الظلام، حتى في الظروف المناخية والطبيعية نجد أن للحر مقابلاً من البرد وأن للسهل مقابلاً من الوعر. وهذه نماذج وأمثلة إذ ما من شيء إلّا وله مقابل بعكس طبيعته.

أما التقابل في حال الآخرة فقد جاء في القرآن الكريم أن للمغفرة مقابلاً من العذاب. وإن للجنة مقابلاً من النار. وقد وصف الله سبحانه وتعالى كلاً منهم في صورة تقابلية، حيث قال جل من قائل: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤].

وقال تعالى في سورة عبس من الآية ٣٨ ـ ٤٢: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

وقال تعالى في سورة النازعات من الآية ٣٧ ـ ٤١: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾، والآيات المصورة لهذا التقابل كثيرة جداً.

أما التقابل في الشعر فلا يحصر ولا يحصى، ففي تقابل المودة والجفا يقول أحد الشعراء:

إلى اللّه أشكو بخلها وسماحتي
لها عسل منّي وتبذل علقما

وفي تقابل السلم والحرب يقول حكيم بن قيس الكناني:

دعاني لشب الحرب بيني وبينه

فقلت له لا بل هلم إلى السلم

وفي تقابل النصح والعصيان يقول الحصين بن المنذر:

أمرتك أمراً حازماً فعصيتني

فأصبحتَ مسلوب الإمارة نادما

وفي تقابل التقر والتعنيف يقول أبو تمام:

إذ المرء أبقى بين رأييه ثلمةً

تُسَدُّ بتعنيف فليس بحازم

وفي تقابل البنيان والهدم، يقول عمرو بن دعبل التميمي:

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه

إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

وفي تقابل التقوى وحب الدنيا يقول أبو العتاهية:

ألا إنما التقوى هي العزّ والكرم

وحبك للدنيا هو الذّلُّ والندم

وفي مقابلة نوائب الدهر والضعف يقول لبيد بن ربيعة وقيل هو لمحمد بن عبد الله البغدادي:

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى

فكيف بمن يرمى وليس برام

وفي مقابلة الحصول على الحاجة والعزم يقول محمد الأسمر:

إذا أغلقت يوماً عن المرء حاجةٌ

فإن مفاتيح الأمور العزائم

لا... الناهية

في مجلة الشرق التي تصدر من المنطقة الشرقية بالمملكة العرية السعودية ومقرها الرئيسي (الدمام) قرأت قصيدة عنوانها: «لا... لا تفعلي» للشاعر إبراهيم عبد الله المالكي، وهو شاعر سعودي معاصر.

وقد سار في بنائها وأعني بذلك القصيدة مُصدِّراً كل بيت من أبياتها بلا الناهية. وتعامل بـ«لا» تعاملاً حسناً أوجد جواً شاعرياً. بالإضافة إلى أن أسلوبها كان مشوقاً يشد القارئ إلى الاستمرار في قراءتها حتى آخرها.

أما القصيدة من حيث موضوعها فهي قصيدة غزلية خاطب بها محبوبته مخاطبة فيها تلهف واستعطاف وترجي وترحم، وتحذير ونهي في نفس الوقت.

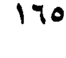
وقد زاد من جمالها وسلامة صنعها حسن إيقاعات كلماتها وتوافق عباراتها التي علل بها أسباب النهي تعليلاً ربما يجد قبولاً لدى محبوبته التي خاطبها بعموم القصيدة التي بلغت أبياتها ثلاثة عشر بيتاً منها قوله:

لا تسكبي دمعك الرقراق فوق دمي
كيلا يراق الدم القاني على جسدي

لاتكتبي فوق صخر العمر أغنية
عني لكيلا يذوب الصخر تحت يدي

ومنها يقول:

لا تركضي فوق ساحاتي فإن بها
أجداث قوم أحاطوا جثة الأسد





لا ترفعي رايتي لا ترفعي علمي
كيلا نرى ما سيجري بعد للعمد

لا ترحلي فالدروب اليوم شائكة
والبحر قد هاج حتى ضاق بالزبد

ومنها قوله:

لا تعزفي للمنى قيثارة فلنا
قوم يصيحون شوقاً آه وا كبدي

ويختمها بقوله:

لا تيأسي وابشري لا تنقصي وزدي
لا تكذبي واصدقي، لا تخلفي وعدي

○ ○ ○ ○ ○

عطلة أولياء الشيطان

وقبل أن أقرب المعنى لمفهوم «عطلة أولياء الشيطان» أرى أن أشير إلى أن الأوضاع الاجتماعية والتطور الحضاري قد فرض تنظيمات عملية يقصد بها راحة المرتبطين بعقود عمل مع المؤسسات والدوائر الحكومية من موظفين وغير موظفين، لأن المصلحة العامة التي يقصد بها رفع الإنتاج وحسن الأداء وتجديد النشاط تفرض بطبيعتها منح الأجير عطلة سنوية مقدرة الأيام.

والناس الذين ترتبط حياتهم الحركية بالأعمال الوظيفية هم الذين لا يملكون مطلق الظروف الزمنية إلّا بما يتمتعون به منها من إجازات سنوية. ولهذا فإن جميع الموظفين والعمال يفكرون فيما سيفعلونه خلال إجازاتهم وفيما يقضونها.

وعلى هذا النمط من التفكير فإن بعض الموظفين والعاملين يستهلكون إجازاتهم في القيام ببعض الترميمات والترتيبات المنزلية. والبعض الآخر يرسم خطاً سفرياً يسير عليه من بلد إلى آخر بقصد الاستمتاع بما في تلك البلدان من طبيعة وآثار قديمة وما إلى ذلك مما هي عليه من حياة اجتماعية وعمرانية. والبعض يفضل السفر إلى قريته التي شغف بحبها.

وهكذا كل يخطط كما يقولون لقضاء عطلته. وهذا شيء لا بد منه. لكن الذي يحزن النفس ويكسر القلب هو ذلك الذي يضيع عطلته في السفر إلى بلاد أجنبية من أجل ممارسة الإباحية التي يزينها له الشيطان ويجعل منها متعة يستنفد بها أيام عطلته والعياذ بالله.



وعند هذا الحد يمكن القول بأن العطلة تنقسم إلى عطلتين بالنسبة للمعطلين. فعطلة لأولياء الرحمٰن إن شاء الله وهم الذين يستغلونها في عمرة أو زيارة أو فيما يصلح شأنهم ويقوي صلة أرحامهم، وعطلة أولياء الشيطان. نعوذ بالله من الشيطان، وهم الذين أسلفت وصف قضائهم لعطلتهم.

والشعراء يساهمون في لفت نظر أولئك المنحرفين، فهذا الشاعر الشيخ محمد عقيل أحمد حنين يقول قصيدة طويلة تبلغ ٣١ بيتاً على لسان امرأة رجل يسافر أثناء عطلته للاستمتاع بالإباحيات في البلاد الكافرة من تلك القصيدة التي نشرتها له مجلة «الفيصل» في عددها ١٧١ سنة ١٤١١ قوله:

أتسألوني وهل في الأمر أسرار
تخفى علي وفيها الخزي والعار

سألتموني وعن زوجي وأين هو
زوجي مع من إلى الآفاق قد ساروا

لعطلة عطلوا فيها مداركهم
وسوء سمعتهم منها قد اختاروا

طاروا وهم يدركون اللؤم يجمعهم
في رحلة كلها إثم وأضرار

اللؤم يتبعهم فيها وينظمهم
في سلكه الشر والمنظوم أشرار

ولم يكن فعله خاف على أحد
الزوج يعلمه والابن والجار

في سمعة دنّست في عرضنا شرفا
يندى الجبين لها والفكر محتار

ماذا أجيبكم عنه وعندكم
عن سوء ما جاء إضمار وإظهار

رد على الأغلال

والرد على الأغلال... هو كتاب مكّون من جزءين يشتملان على قرابة ١٢٠٠ صفحة من القطع المتوسط وعنوانه كاملاً هو «بيان الهدى من الضلال في الرد على صاحب الأغلال» أما مؤلفه فهو الشيخ إبراهيم بن عبد العزيز السويح النجدي رحمه الله والذي كان رئيساً لمحاكم المقاطعة الشمالية: في العلا وتبوك وملحقاتها، والمتوفى في شوال سنة ١٣٦٩هـ بمكة المكرمة وبقي أن نعرف شيئاً عن الأغلال وصاحبها... فالأغلال مؤلف عنوانه بالكامل «هذه هي الأغلال» ومؤلِّفه هو عبد الله بن علي القصيمي. وحيث أنه ليس بالإمكان استعراض نقض الأغلال فقد فضلت نقل جزء من ملاحظات وردت في مقدمة النقض. إذ فيها ما يدل على خطورتها وسقط منهجها فمن تلك الملاحظات قوله: أعلم أن روح كتاب «هذه هي الأغلال» وموضوعه هو الحث على رفض الدين بل الأديان كلها. ودعوى أن الإلحاد هو أساس الرقي والتقدم كما صرح بذلك في مواضيع لا تحصر. وقد جرّه هذا المغزى الخبيث إلى ما ادعاه إخوانه من ملاحدة العصر. حيث ادعى أن الناس لا بد من أن يكونوا على ثلاث درجات. إما على دين صحيح، وإما على دين باطل، وإما على غير دين بل على إلحاد محض.

أما الدين الصحيح فقد صرح بأنه لا يعرف وأن الناس عاجزون عن معرفته، فقد سدّ هذا الباب سداً محكماً ولكنه استثنى النادر مخادعة، ومعلوم أن النادر لا حكم له فوجوده كعدمه، فعنده أن الله كلف الناس ما لا يطيقون حيث صرح بأنهم عاجزون عن معرفته، فقد

كلفهم ما هم عاجزون عنه. وأما الحالة الثانية: فإنه اجتهد غاية جهده في أن يعزو إلى الدين من القبائح والفساد وسوء السمعة ما لا يوجد فيه أبداً. وتوسل إلى ذلك ببعض كلمات للإلحادية من الصوفية ونحوهم. وعزاها إلى المسلمين ليثبت بذلك أن الدين قد فسد وأن الناس على دين باطل، ليسهل لهم الطريق إلى رفضه حيث صرح بأن الدين الباطل آلة ضعف وانحطاط وأن الإلحاد المحض لا يقف في وجه الرقي والتقدم فحصر التقدم والرقي في الدين الصحيح أو الإلحاد الصريح. والتأخر في الدين الباطل، ثم نفى معرفة الأول أي الدين الصحيح وأثبت وجود الحالة الثانية لتترك، وسهّل الوصول إلى الحالة الثالثة أي الإلحاد المحض لتسلك. بل أوجب ذلك لأن الأولى غير معروفة والثانية لا يمكن الإقامة عليها، والثالثة متيسرة والظروف تقتضيها.

والجدير ذكره أن هذا القصيمي الذي انحرف عن الصواب كان له مؤلَّفات وأعمال جليلة أبرزها «الصراع بين الإسلام والوثنية» دفاع فيه عن الإسلام دفاعاً شكر عليه، لكنه غل نفسه بأغلاله.

ولهذا قال الشيخ محمد عبد الظاهر أبو السمح إمام وخطيب الحرم المكي قصيدة طويلة عرى فيها القصيمي وأظهره على حقيقته. منها قوله:

مدحتك يا أخا الأغلال قبلا
بما ألفت من سفر الصراع

وأما الآن فاسمع من قوافي
هجائك مهلكات كالأفاعي

عزوت إلى الشرائع كل نقص
ومنك النقص في كل المساعي





وقد بارزت رب العرش جهلا
لكفر فيك أو لؤم الطباع

فمن يحميك من رب غيور
شديد البطش ذي أمر مطاع

لقد أسفرت في الأغلال حتى
سقطت وكنت طلاع التلاع

تحبذ فعل افرنج تولوا
عن الأديان والرب المطاع

وتهوى أن تعيش الناس فوضى
كأنعام تسافد في المراعي

○○○○○

التصدّي

والتصدي للخصم يتطلب من المتصدي الحصول على سلاح يفوق ما بحوزة عدوه من سلاح كأن يشهره في وجهه ويهدد بفتك.

هذا في مجال الحرب والعدوان والقتال. أما في مجال الفكر والتعارك الجدلي حول أي قضية فإن عدّة التصدي تختلف شكلاً وطبيعة وأسلوباً إذْ لا بدّ أن يكون للمتصدي لأي قضية جدلية سلاح يتملكه من سوق العلم والثقافة والمعرفة حتى يجابه به من يتصدى له، فيقرع الحجة بالحجة ويصرع الرأي بالرأي، ويبطل الادعاء بالحقيقة ويمزق قناع الخداع بالواقع.

والذي يبحث عما جرى ويجري من صراعات بين أصحاب الفكر يجد مجالاً واسعاً يستمتع بالتنقل في أجوائه خاصة إذا كان هناك باطل يتلون ثم يأخذ في التلاشي تحت مجهر الحق.

ولقد أشرت إلى هذه الصورة في موضوع سابق تحت عنوان «رد على الأغلال» لأنه موضوع يعتبر من أخطر الموضوعات التي لها مساس بالعقيدة والحياة الروحية إذْ أن المبتدع فيها والمدعي انتهج التشكيك في الدين ودعا إلى حياة غير مرتبطة بالدين الإسلامي الحنيف ورماه بالتقصير وعدم مواكبة التطور العلمي.

وقراءة في مثل الصواعق التي انهالت على صاحب هذا الفكر فيها درس ممتع. ولهذا فإن الحالة تستدعي الوقوف مرة ثانية للطلب إلى العالم الإسلامي بالدعاء للشيخ إبراهيم بن عبد العزيز السويح بالمغفرة لقاء تصديه للأفكار المنحرفة التي جاء بها عبد الله بن علي القصيمي في كتابه «هذه هي الأغلال» التي بثّ فيها سمومه حيث وصف الإسلام



بالجمود والتخلف عن مسايرة العلوم الحديثة ودعا الناس إلى التجرد منه ونبذه لأنه غل كما حلا له أن يسميه. كما دعا إلى العلمنة وعدم التقيد بأي دين فتصدى له علماؤنا الأجلاء غفر الله لميتهم وأحسن مثوبتهُ وعفا عن حيّهم وزاده فضلاً وكرماً.

أما الشيخ السويح فقد كان من أبرز المتصدين له. حيث نقض جميع ادعاءات القصيمي في كتاب سماه «بيان الهدى من الضلال في الرد على صاحب الأغلال» وقد أشرت إليه في موضوع أسلفت ذكر عنوانه في هذا الموضوع، ومما قاله الشيخ السويح شعراً في رده على القصيمي قوله:

لقد جاء في «الغل» الذي قد عملته
لنفسك قول ليس يخفى به الكفر

تحارب دين اللّه يا شرّ ملحد
وتلصق آراء به ما لها قدر

دعوت إلى الإلحاد جهدك معلناً
بأن فساد الناس ليس له أثر

سوى أنها الأسباب تجري بطبعها
وليس لرب العرش في سيرها أمر

وهذا هو الإلحاد لا شك واضح
فكيف يروج المين أو ينفع العذر

وتزعم أن الغرب ما سار وارتقى
ولا ساد إلّا حينما حله الكفر

وأن نظام الدين أخّر أهله
وليس لأهل الدين عقل ولا فكر

تجاهلت عن كل الشعوب التي هوت
وسيرتها الإلحاد والكفر والنكر

إنه ليحُزّ في النفس!!

وإنه ليحز في النفس أن ينحرف عالم بلغ من العلوم الشرعية وغيرها مبلغاً مكّنه من أن يصول ويجول بفضل علمه في عقول الناس. وأن يحترف صناعة العلم بفكره وقلمه. ثم يأخذه الغرور بنفسه فتجنح به سفينة الاستعلاء إلى شواطئ الزيغ ومرافئ الإلحاد ليستقبله الشيطان بابتسامة تنبئ عن الرضا بمستوى المقدرة التي استهواه بها.

وإنه ليحز في النفس أيضاً أن نقرأ لأحدهم مؤلفات تنافح عن العقيدة الإسلامية وتناصب العداء لمن يكدر صفو مشربها. وتبسط مفهوم صلاحها لحياة الناس عامة وتبرز عظيم نفعها لأهل الإسلام، ثم ما يلبث إلّا ويعكس أسلوبه وينقلب قلبه ويرجع في جميع ما قاله من قول حسن بل ويتحول إلى حربة هجوم. فلا يتورع عن غرزها في صدر كل مسلم، بل يحرص على تغليفها بالتأويلات الفاسدة التي يدخل بها الشكوك في نفوس الناس ليفسد عليهم دينهم الذي ارتضاه الله لهم. وإنه ليحز في النفس بالتحديد أن نقرأ كتاب عبد الله بن علي القصيمي «الصراع بين الإسلام والوثنية» الذي تصدى فيه للمذاهب الباطلة المخالفة وخاصة منها مذاهب الشيعة وأبطل بقوة الحجة جميع ادعاءاتهم ومزاعمهم ونفى تهمهم التي ألصقوها بخلفاء رسول الله ﷺ وأتباعهم.

ثم بعد ذلك نقرأ له كتابه «هذه هي الأغلال» ذلك الذي محابه جميل فضله على الإسلام. وأسقط به ما كان قد أوجبه على قراء «الصراع بين الإسلام والوثنية» من دعاء صالح له، بل أوجب عليهم هجاءه ومناصبته العداء والرد عليه كملحد خرج كافراً بالإسلام ومعادياً لأهله.

وقد توالت عليه الردود كالسيل الجارف نثراً وشعراً. وقد كان من بين الذين ردوا عليه بأسلوب شعري أصاب منه المقتل الشيخ محمد عبد الظاهر أبو السمح وخطيب الحرم المكي. منه قوله:

قولوا لهذا الملحد الدجال
أحبطت ما قدمت من أعمال

وسببت دين اللّه يا شر الورى
وأطعت كل مضلل دجال

وتقول إن الدين أخّر أهله
ثكلتك أمك من جهول قال

أو لم تر الإسلام قدّم أهله
في سالف الأزمان والآجال

يا عائب الدين الحنيف بجهله
وبأنه كسلاسل الأغلال

هات الأدلة يا جهول بنصها
واذكر لنا دعواك بالأمثال

الدين قال اللّه، قال رسوله
لا قول مبتدع وفعل ضلال

ما أنت إلّاناقل ومقلّد
للملحدين شراهة في المال

○○○○○

وإذا

ومنذ ولد نبي الهدى وسيد الأولين والآخرين وخاتم النبيين، والمدائح التي هو أهل لها ﷺ تتوالى بلا انقطاع أو توقف حتى يومنا هذا، وستظل إن شاء الله إلى أن تقوم الساعة.

وقبل أن ينبأ ﷺ كانت مدائحه مقصورة عل الإشادة بأمانته، وصدقه وحبه للخير وكفه عن الشر وأكله من عمل يده.

فهو الذي رعى غنم أهل مكة، وهو الذي اشتغل أجيراً لدى خديجة بنت خويلد قبل زواجه منها ﷺ و رضي الله عنها.

ولما أوحي إليه وصدع بما أمره الله به، وجد الشعراء الذين صدقوا بمبعثه، وآمنوا برسالته مجالاً واسعاً لامتداحه، فحسان بن ثابت وعبد الله بن الزبعري وكعب بن زهير وعلي بن أبي طالب وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم هم الذين شكلوا قاعدة عريضة لامتداحه ﷺ بالأشعار.

وإنني لا أخال المدائح التي قيلت فيه ﷺ منذ بعثته إلى يومنا هذا إلا مكونة أسفاراً تشكل بحد ذاتها مكتبة مستقلة لو جمعت، كيف لا وهناك ثلاث ذكريات تمر كل سنة هي: مولده ﷺ وهجرته والإسراء والمعراج به. وفي كل منها يمتشق الكثير من الكتاب والشعراء أقلامهم يسطرون ما يستطيعونه من مديح هو أهل له ﷺ.

ولعل أشهر قصيدة مدح بها رسول الله ﷺ هي قصيدة للشاعر أحمد شوقي والتي كرر في عدد متوالي من أبياتها... - وإذا ...- منها قولها:



فإذا سخوت بلغت بالجود المدى
وفعلت ما لا تفعل الأنواء

وإذا عفوت فقادراً ومقدراً
لا يستهين بعفوك الجهلاء

وإذا رحمت فأنت أم أو أب
هذان في الدنيا هما الرحماء

وإذا غضبت فإنما هي غضبة
في الحق لا ضغن ولا بغضاء

وإذا خطبت فللمنابر هزة
تعرو الندى وللقلوب بكاء

وإذا قضيت فلا ارتياب كأنما
جاء الخصوم من السماء قضاء

وإذا بنيت فخير زوج عشيره
وإذا ابتنيت فدونك الآباء

وإذا أخذت العهد أو أعطيته
فجميع عهدك ذمة ووفاء

○ ○ ○ ○ ○

ماذا تعني جائزة ملكة جمال العالم!!

وأهل الفساد، والذين لا يفكرون إلّا في إفساد المجتمعات نراهم يكرسون جهودهم في ابتداع مناسبات وتهيئة ظروف تحط من الأخلاق وتحطم القيم والشيم.

وليس أدل على ذلك من تخصيص جائزة لأجمل امرأة في العالم. وقد سموا تلك الجائزة بجائزة (ملكة جمال العالم) أو سيدة جمال العالم، وهي جائزة كون لها لجنة خبيثة طبيعة عملها تفقد أجساد النساء اللائي يتقدمن لنيلها، وبدعوى أن الجمال لا بد أن يشمل كل سائر أجزاء الجسد قاتلهم الله.

وإن كان ذلك ليس بغريب على أعداء الله فإنه غريب ومنكر عجيب حينما نرى أن ممن يتقدم لنيل هذه الجائزة الملعونة فتيات ونساء من بعض البلاد العربية.

فبالله كيف يصح في الذهن العربي أن هناك إنساناً يسافر بأخته أو زوجته للبلد التي تنعقد فيها اللجنة الخبيثة الملعونة ثم يقدمها لها بكل احترام ليعروها من أجل تفقد جميع أجزاء جسدها حتى تنال تلك الجائزة الملعونة. ولتتوج بتاج جمال العالم.

إنني هنا من قلب عاصمة المملكة العربية السعودية. ومن خلال هذه الأحرف أقول لأولئك في تساؤل واستغراب: أين الدين؟ وإن كنتم من الدين براء والدين براء منكم فأين الدم العربي والغيرة العربية،



والشهامة العربية، وأين جميع ما كان يعتز به العربي منذ جاهليته إلى يومنا هذا؟. هل ذرته الريح في مهب الفكر الفاسد الذي أنشأ تلك الجائزة؟ فأف، وألف أف، وآه وألف آه، من جنوحكم وانخذالكم وتهتك أعراضكم، واسمعوا هذا المقطع من قصيدة لمحمد أحمد باشميل عنوانها «هل هذا من العروبة»:

والرقص فنٌ للفتاة يزينها
وتقدمٌ في حلبة الميدان

وكذاك كشف الصدر أو ما تحته
وتبرج الأفخاذ والسيقان

وكذاك عرض الغانيات كواعبا
وكأنهنّ فصائل الغزلان

ليلجن ميدان الجمال عواريا
بين الوحوش الصم والذؤبان

شوقاً إلى تاج الجمال ويا له
تاجاً يفوح بأنتن الأدران

تباً له تاجاً ترصع بالبذا
والعار والأنجاس والخذلان

«تلكم مخازٍ عافها دين السما
وتعافها قوميّة القحطاني»

يأبى أبو جهل الكفور صنيعكم
ويفر منه عابد الأوثان

○ ○ ○ ○ ○

كيف تبنى النبي عليه الصلاة والسلام زيد بن حارثة؟!!

ومجمل ما ترويه السير كسيرة ابن هشام وابن إسحاق وغيرهما عن سبي زيد رضي الله عنه وبيعه وتبني النبي ﷺ إياه. يحصر في أن سعدى بنت ثعلبة أم زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد العزى بن امرئ القيس بن عامر بن النعمان بن عبد ود بن ثور بن كلب بن وبرة. هكذا نسبه ابن حزم في الجمهرة وغيره. وهي: أي سعدى بنت ثعلبة، امرأة من طي خرجت من بيتها تزور قومها وزيد معها، فأغارت خيل لبني القيس بن جسر في الجاهلية فمروا على أبيات بني معن رهط أم زيد فاحتملوا زيداً وهو يومئذ غلام فوافوا به سوق عكاظ فعرضوه للبيع فاشتراه منهم حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم. فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له، فتبناه رسول الله ﷺ بمكة قبل النبوة وهو ابن ثمان سنين.

وكان رسول الله ﷺ أكبر منه بعشر سنين وقد قيل بعشرين سنة، وطاف به رسول الله ﷺ حين تبناه على حِلَقِ قريش يقول: «هذا ابني وارثاً وموروثاً» يشهدهم على ذلك.

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلّا بزيد بن محمد حتى نزلت: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٥].

وتشير السير إلى أن أباه حارثة وعمه كعب جاءا إلى النبي ﷺ طالبينه منه فقال رسول الله ﷺ: «ادعوه فخيروه فإن اختاركم فهو لكم وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً».



فلما جاء وعرفهم قال للنبي ﷺ: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً أنت منيّ مكان الأب والعم. وقد زوجه رسول الله ﷺ من مولاته أم أيمن فولدت له أسامة بن زيد، وبه كان يكنى.

وقد قتل رضي الله عنه بمؤتة بأرض الشام سنة ثمان من الهجرة وكان الأمير على تلك الغزوة، ولما أتى رسول الله ﷺ نعي جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة بكى وقال: «أخواي ومؤنساي ومحدثاي».

أما والده حارثة فقد قال شعراً يوم سبي زيد من أمه، منه قوله:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل
أحي يُرجى أم أتى دونه الأجل

فو اللّه ما أدري وإن كنت سائلاً
أغالك سهل الأرض أم غالك الجبل

فيا ليت شعري هل لك الدهر رجعه
فحسبي من الدنيا رجوعك لي يحل

تذكرنيك الشمس عند طلوعها
وتعرض ذكراه إذا قارب الطفل

وإن هبّت الأرياح هيجن ذكره
فيا طول ما حزني عليه ويا وجل

سأعمل نعي العيش في الأرض جاهداً
ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل

حياتي أو تأتي على منتي
وكل امرئ فان وإن غره الأمل

سأوصي به قيساً وعمراً كليهـ
ما وأوصي يزيداً ثم من بعده جبل

حتى لا نتمذهب بأي مذهب!!

إن الذي يقف متأملاً في سلوكيات بعض الشعوب العربية والإسلامية يجد أن فيها ما يثير تعجبه من الحالات الاجتماعية السائدة في البلاد الكافرة. سواء كانت تلك البلاد شرقية أو غربية، بدليل أننا نرى تقليده لها قائم على قدم وساق.

وإذا تجاوزنا أو غضضنا النظر وصرفنا التنبيه بالأصح عن بعض تلك التقاليد لعدم مساسها بجوهر العقيدة فإننا نرى حتمية الإنكار على بعضها الآخر. خاصة منها ما يخل بالشرف والأخلاق، ويستبدل به عادات وتقاليد إسلامية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بروح العقيدة.

وحتى لا نتهوّد أو نتنصّر أو نتشيّع أو نتوثّن أو نتمذهب بأي مذهب غير مذهبنا الإسلامي السمح، فلا بد من تقوية عامل الغيرة في نفوسنا. وخاصة الغيرة المرتبطة بمحارمنا حتى لا نكون آلة مادية ومجتمعاً شهوانياً ينسب بتصرفاته الغريزية إلى الحيوان.

فاختلاط الرجال بالنساء تقليداً للكفرة الفجرة الذين لا يألون جهداً في سبيل إسقاط مجتمعنا وتحويله إلى درجات الانحطاط الخلقي أمر تقشعر منه النفوس ويندى له الجبين. والذي نشاهده اليوم من اختلاط بين الجنسين في بعض البلاد العربية والإسلامية ما هو إلّا نذير لخطر يهدد عقائدنا ويحطم كرامتنا ويفسد أخلاقنا، ويهدم شيمنا ويمزق رداء حشمتنا وعزتنا وغيرتنا، فهلا وقفنا بكل صحوة ضمير وبكل غيرة مسلم. وبكل قوة مؤمن في وجه هذا التيار الفاسد المفسد؟.

فإلى الذين يتخاذلون عن هذا الغزو الفكري والأخلاقي من أبناء



أمتنا ويستقبلونه بشيء من الرضا عنه والإعجاب به، أهدي هذا المقطع من قصيدة لمحمد أحمد باشميل عنوانها «هل هذا من العروبة» فلعل وعسى:

ماذا دهاكم هل نسيتم أنكم
في نهضة التحرير والعمران

أولستمو تدعون يعرب كلها
من ذا المحيط إلى الخليج الثاني

لتشيد بُنيان الكرامة عاليا
والعزة القعسا على الأكوان؟

فهل الكرامة ما نرى من نكسة
في الدين في الأخلاق في الإيمان؟

وهل الكرامة أن تكون فتاتكم
حصالة للأصفر الرنان

بجمالها بدلالها، دلالة
لتبيع شيئاً غالي الأثمان

أمن العروبة أن تظل فتاتكم
سكرى تراقص من تشا في الخان؟

أمن العروبة أن تعرّي صدرها
وتسهل اللذات للأخدان؟.

○○○○○

الاستعاذة بالله من الفقر!!

ولأن عاودت الكتابة عن الفقر والفقراء في هذا الكتاب مرات ومرات فلأن موضوع الفقر وحسرة الفقراء وما يعانونه من مصاعب الدنيا ومصائبها أكبر من أن يفسره تعبير كلامٍ موجز أو يغطيه موضوع أو موضوعات متعددة.

ونحن إذا ما نظرنا إلى الفقراء وجدناهم درجات وطبقات مختلفة لو تجسد في مجسم ويصبغ بجميع الألوان التي ترمز إلى الفقر لبقي جزء كبير منه عار بدون ألوان. ولو صنفنا الفقراء الذين أحاطهم الفقر بدائرته المغلقة لأصبح لدينا أصنافاً عديدة يختلف على بعدهم وقربهم من مركز الدائرة الذي يمثل عمق الفقر المدقع.

وأما الفقر من حيث نشاطه وتأثيره فهو شيء لا يؤثر تأثيراً بالغاً على عقل ولا على إدراك ولا على بصيرة. ولا يحطّ من نسب أوخلق.

وإن كان طبعه يخبّث الطباع ويغير المزاج وإنما مساوئه تنحصر في الحالة الاجتماعية داخل المنزل الذي يحطّ رحاله في صحنه هذا إذا كانت درجة قوته متذبذبة بين محيطه ومركز دائرته.

أما إذا استقر على مركز دائرته واستكمل قوته وشدة بأسه فإن أمره خطير قد يحمل الفقير على ارتكاب مخالفات خلقية تسيء إلى صاحبه.

وأما من حيث هو شيء قد ابتلي به فئة من الناس فإنه يمثل شبحاً مخيفاً يجب الاستعاذة منه بالله عندما يتراءى لهم. والفقر ورد ذكره في القرآن الكريم والسنة المطهرة. وتكاثرت فيه الأقوال المأثورة فجدّ مؤلفو



كتب الأدب والتراث الأدبي في وصفه. كما أخذ الشعراء بنصيب وافر من ذكره في أشعارهم.

فمن جيد ما قرأت من الشعر الذي وصف الفقر والفقراء قصيدة طويلة تبلغ نحواً من سبعين بيتاً للشاعر الأمير نسيب بن حمود بن يونس بن فخر الدين أرسلان المتوفى سنة ١٣٤٦هـ، منها قوله:

نبا النوم عن عينيه حين تنبهت
وساوسه والهمُّ في الليل يخشِفُ

رأى نفسه رهن الخصاصة والأذى
وأن الغواشي عنه لا تتكشف

وأن وثاق الذل في الزند محكم
وأن خناق الغم في النحر محصف

إذا استنجد الآمال عند اكتئابه
تبدّ له ستر من القار مغدف

بلاء لعمري لا يطاق وترحة
يكلّ جميل الصبر عنها ويضعف

وصفت لك الضراء يا صاحب الغنى
وهل تعرف الضراء من حيث توصف

هي الفقر ما أدراك ما الفقر إنما
لهاث الردى منه أخف وألطف

حياة بلا أنس وعيش بلا رضا
فلا الرغد ميسور ولا العمر ينزف

○ ○ ○ ○ ○

أو

ويرسل بعض الشعراء خياله ويطلق عينه بصحبته فتُلْقي العين الضوء على ما تبعد رؤيته ليلتقط الخيال صورته بعد ما يكون شيئاً شبه مجسد أمام الشاعر فيضع حوله إطاراً يحدد أبعاده. ويعطيه لوناً متميزاً من الحقيقة الوجودية التي يصبح معها وكأنه شيئاً محسوساً بالرؤية وملموساً بالتكوين.

والظواهر الطبيعية الموسمية يكون لها رصد من قبل كثير من الناس الذين يهتمون بتقريب الأشياء إلى أذهان الناس عن طريق الوصف والتشبيه وما إلى ذلك من الأساليب التي يكون لها مفهوم لدى السواد الأعظم من الناس.

والشاعر العراقي أحمد الصافي النجفي لمح في ليلة من الليالي شهاباً قد انسلخ من نجم من النجوم، فعنّ له أن يصف ذلك الشهاب الثاقب ويشبهه بأقرب الأشياء فصنع قصيدة طويلة أكثر في بدايات عدد من أبياتها «أو» من ذلك قوله:

كأن ساقط النجوم أرقم

قد ساب في بحر الظلام وانطلق

أو كقذيفة رماها مدفع

أو هو كالسهم من القوس مرق

أو لهب في فحمة الليل سرى

أو هو جيب للدجى قد انخرق

أو سطر نور خط في لوح الدجى

أو هو ميزاب من الضوء انهرق

أو هو عفريت سما إلى السماء

ليدخل الخلد فخر واحترق

أو هو قرن الشمس ناطح الدجى

أو هو سيف لحشا الظلماء شق

أو رمح نور طعن الظلام أو

نهر من النهار في الليل اندفق

أو كعمود الفجر لاح فارعاً

جبين زنجي الظلام فانفلق

ο ο ο ο ο

الرغبةُ في البقاء لا تدفع الموت!!

والرغبة في البقاء على قيد الحياة هو مطلب كل كائن حي، بل من أجله كان الصراع بين المخلوقات المتجانسة والمتماثلة في التكوين الخلقي، وربما وقع بين غير المتجانسة. وحب الحياة ربما أفقد صاحبه الحياة. قيل: إنَّ أحد أبناء الوجهاء أصيب بالبدانة فأخذ الأطباء في علاجه ولم يجد فيه العلاج إلّا أن طبيباً واحداً تولى أمر معالجته علاجاً نفسياً حيث قال له: أنت ووالدك تطلبان دواء يخفف البدانة من جسمك وأنت لا تعلم إنه لم يبق في عمرك إلا أشهر قليلة فيما يبدو لي من ملامحك ولونك. فخاف ذلك البدين وأخذت به الهواجس المخيفة كل مأخذ. وهام في أودية الهم والتفكير في الموت حتى ذاب شحمه وتعرق جسمه وبعد أيام زاره الطبيب فإذا به قد هزل ونحف. فقال له الطبيب: إني أرى أن احتمال دنو أجلك قد امتد إلى سنوات فيما أقرأه من ملامحك. وبذلك خفف من وزنه.

وقرأت في مقدمة ديوان ابن شهيد أن والده واسمه أبي مروان عبد الملك بن أحمد الأشجعي الذي ولد في عام ٣٢٣هـ، قد رأى وهو في صباه رؤيا وكأنما هو يبتلع سبعين ديناراً واحداً بعد الآخر. وذهب إلى أقدر مفسري الأحلام في عصره يسأله الرأي. فقال: إن كل دينار يمثل عاماً. ومعنى الحلم إذن أنه سيعيش سبعين عاماً. وكان ذلك بالطبع مصدر سعادة له لما كان شاباً فلما ابتدأت نهاية الفترة تقترب خطوة خطوة صار ذلك مصدر قلق وفزع. وعاد صاحبنا يسأل نفسه إن لم يكن قد أخطأ في عدد السنين وكان المتملقون من حوله يزيدون من تردده ويخلطون عليه الأمر. ولكن هل من مَفَرٍّ من الموت؟ والأجوبة

على هذا السؤال كثيرة ومتعددة في معناها فالشاعر أحمد شوقي يقول في إجابته:

خلقنا للحياة وللممات
ومن هذين كل الحادثات

ومن يولد يعش ويمت كأن لم
يمرّ خياله بالكائنات

ومهد المرء في أيدي الرواقي
كنعش المرء بين النائحات

وما سلم الوليد من اشتكاء
فهل يخلو المعمر من آذاة

ولو أن الجهات خلقن سبعاً
لكان الموت سابعة الجهات

والشاعر إبراهيم الألبيري يقول:

وما يعرف الإنسان أين وفاته
أفي البر أم في البحر أم بفلاة

ويقول شاعر الفلسفة وفيلسوف الشعراء أبو العلاء المعري:

ولا بد للإنسان من سكر ساعة
تهون عليه غيرها السكرات

ويقول أبو العتاهية:

يُعَمّر بيت بخراب بيتٍ
بعيش حيّ بتراب ميت

○ ○ ○ ○ ○

هكذا سنة الشعر!!

وإن كثيراً من الشعراء ليحاولون في كل مناسبة التأكيد لغيرهم من الناس بأن الكثير من شعرهم ما هو إلّا تخيل لا يرسم للواقع صورة حقيقية، ولا حتى لماض كان شاهداً في يوم من الأيام. وإنما هو نتاج هواجس وتخيلات تتراءى للشاعر وكأنما هي أشياء اتصلت بها عينه ودرجت على أرض واقعها رجله فأخذ في تفصيل أوصافها بما يملكه من براعة في نسج الأحداث الوهمية التي لا أصل لها في واقعه. وبما يملكه من وصف بلاغي يخيل للقارئ أن الشاعر قد عايش تلك الأحداث التي صنع منها قصيدة بديعة يهز المشاعر بأسلوبها وجودة معانيها.

والقارئ الذي يقرأ قصيدة مصطفى لطفي المنفلوطي التي يقول في بعض أبياتها:

وما أنس من الأشياء لا أنس ليلة
جلاها الدجى قمراء في ساحة القصر

كأن النجوم في أديم سمائها
سفائن فوضى سابحات على نهر

كأن الثريا في الدجنة طرة
مرصعة الأطراف باللؤلؤ النثر

ومنها:

وفي القصر بين الظل والماء غادة
تميس بلا سكر وتنأى بلا كبر

تـريـك عـيـونـاً نـاطـقـات صـوامـتـاً
فما شئت من خمر وما شئت من سحر

لهوت بها حتى قضى الليل نحبه
وأدرجه المقدار في كفن الفجر

أقول: إن القارئ الذي يقرأ مثل هذه القصيدة لا ينثني عن المراهنة بأن شاعرها قد عايش ما ذكره في أبياتها. وأن فقده لها قد أوجد في نفسه دافعاً لتسجيل ذكرياتها ليسلي بها قلبه ويخفف بها من معاناته التي ترهق حاله. لكن الشاعر المنفلوطي يفاجئ القارئ بعد هذا التقرير الذي لا يقبل الشك بأن كل ما أسلفه في الأبيات ما هو إلّا من نسج الخيال وليس للواقع فيه موضع أصبع واحدة. وإنما هي سنة الشعر التي يطبق مبادئها الشعراء اسمعه وهو يمسح كل ما تقدم مما ذكرته وما لم أذكره من الأبيات التي تضمنتها القصيدة:

بعمرك ما راحت بلبي صبابة
ولا نازعتني مهجتي سورة الخمر

ولا هاجني وجد ولا رسم منزل
عفا ولكن هكذا سنة الشعر

○○○○○

هذا هو الفجور

«هل هذا من العروبة» هذا عنوان كتيب صغير في حجمه كبير في فائدته ومدلوله. أصدره الكاتب السعودي المعروف محمد أحمد باشميل.

وأنا هنا لا أريد أن أتحدث عن المؤلف أكثر مما ذكرت لأن هدفي هو إبراز ما كان يهدف إليه المؤلف من إثارة روح الغيرة في نفوس الرجال على نسائهم وبناتهم وجميع محارمهم. وذلك حينما رأى بوادر تبذل بعض النساء في بعض البلاد العربية ذلك التبذل الذي ظهر من خلال تصرفاتهن وانحسار الهيبة من الرجال عندهن.

بل إنه حصل بالفعل في بعض البلدان العربية الاختلاط في العمل وفي الدراسة بين الجنسين الأمر الذي أدى إلى السفور وتمزيق ثياب الوقار والجلال والحشمة وأصبحت المرأة وكأنها ما أمرت بارتداء الجلباب بالصفة التي نصت عليها الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب: ٥٩].

ولقد علق باشميل على بيت شعر استهل به قصيدة عنوانها «الفتاة الجامعية والسواح الأجانب» بقوله: في بعض البلاد العربية انتقت مصلحة السياحة سرباً من حسان الجامعيات ليرافقن السواح الأجانب كدليلات ومرشدات. وذلك تشجيعاً للسواح وليزداد الدخل القومي. ومع هذا نزعم بأننا عرب نرفض العار ونعمل على بعث التراث العربي المجيد. ثم تساءل قائلاً: فهل عملنا هذا هو من التراث العربي

الضائع؟ والجواب من كل مسلم غيور يتلخص في القول بأن هذا هو الفجور.

ولا بأس من أن أختم هذه العجالة بمقطع من نفس القصيدة التي تقدم ذكرها ومنها قوله:

وغدت لسواح الفرنجة مرشداً
تضع الخطوط بعودها الفتان

وعبيقها الفواح يبعث فتنة
تدع الحليم بجانب الحيران

فخلوا بها وخلت بهم في عزلة
إبليس فيها كامل السلطان

فهل الثقافة ذي التي جئتم بها
وهل العروبة ترتضي بهوان

هذي الدياثة عينها لا ترتضيـ
ـها شيمة الهمجيّ في الغيران

ما بالكم بالغُرّ من ذي يعرب
أحفاد كعب أوبني النعمان

من يحفظون بسيفهم أعراضهم
لو حام فيهم حائم الخوّان

«مجدٌ» مع الفوضى تلاشى رسمه
وكرامةٌ ضاعت مع الحدثان

○ ○ ○ ○ ○

عبارة تخلد قصيدة

ومن القصائد ما يستهوي القارئ ويجره إلى إيداعها في فكرته بعد التعليق عليها بما يناسب قيمتها الاجتماعية. ونحن نقرأ الكثير من التعليقات والدراسات التي تنحصر في قصيدة واحدة من بين عشرات، بل مئات القصائد لشاعر واحد. فالمعلقات مثلاً أخذت شهرة وامتازت على جميع أشعار أصحابها، وغير المعلقات نجد أن بائية ذي الرمة تميزت عن سائر شعره. ومقصورة ابن دريد اشتهرت شهرة واسعة، ونهج البردة لشوقي أخذت مكاناً واسعاً في صفحات الأدب. وهكذا بقية نوادر القصائد التي بلغ الإعجاب بها حد معارضتها كقصيدة «ليل الصب» للحصري التي عارضها أكثر من مائة شاعر.

ولا أريد أن أمضي في سرد تلك النوادر لكن الإشارة تجدر هنا بأن تلك القصائد كانت سبباً لشهرة أصحابها.

واستدلالاً على أن بعض القصائد يحظى باهتمام قرائها، أنقل هنا تعليقاً على قصيدة أبي الفضل يوسف بن محمد النحوي أوردته «مجلة اليمامة» في عددها ١١٤٨ الأربعاء ٤ رمضان سنة ١٤١١هـ، ونصه: لا أشك أن اليسر والعسر شأنان دنيويان متلازمان لا انفكاك لهما. فوجود العسر بين ظهرانينا يفضي إلى ترقب هطول اليسر على العسر فيمنحه رعشة الأمل وانتفاضة الفرج كما انتفض العصفور بلله.

«اليسر» ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٦﴾.

والدنيا لا تدوم على حلاوتها ولو دامت لما صار لحلاوتها حلاوة. فإنما تعرف حلاوتها بتذوق مرارتها، ويستمتع بنشوتها بالمعاناة



من آلامها، ويبتهج بأفراحها بالحزن من أتراحها ويفرح ليسرها بالضيق من عسرها ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

وكثيراً ما نتمثل عند النكبات بالمقولة التفاؤلية «اشتدي أزمة تنفرجي» وهي حقاً عبارة ضخمة في مدلولها جميلة في سبكها متراصة في إيقاعها لأنها هي مطلع قصيدة النحوي. ثم أوردت المجلة القصيدة التي بلغت أبياتها ٢٧ بيتاً. أقتطف منها قوله:

اشتدي أزمة تنفرجي
قد آذن ليلك بالبلج

وظلام الليل له سُرُجٌ
حتى يغشاه أبو السُّرج

وسحاب الخير له مطر
فإذا جاء الإبانُ تجي

وفوائد مولانا جمل
بسروح الأنفس بالمهج

والخلق جميعاً في يده
فذوو سعة وذوو حرج

ونزولهم وطلوعهم
فإلى درك وعلى درج

ومعايشهم وعواقبهم
ليست في المشي على عوج

حكمٌ نُسِجَتْ بيد حكمتْ
ثم انتسجتْ بالمنتسج

○○○○○

واقتصار الإنسان على التفكير في خلقه وتكوينه وترابط أعضائه ومسؤولية كل عضو عما يخدم صاحبه فيه كفاية لتثبيت الإيمان الحقيقي بأن خالق هذا الجسم على تلك الهيئة حقيق بأن يعظم ويعبد.

قال تعالى في سورة الذاريات آية ٢١: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾. قال الطبري في تفسير هذه الآية: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك قال بعضهم: معنى ذلك: وفي سبيل الخلاء والبول في أنفسكم عبرة لكم ودليل لكم على ربكم. أفلا تبصرون إلى ذلك منكم!!.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وفي تسوية الله تبارك وتعالى مفاصل أبدانكم وجوارحكم دلالة لكم على أن خلقتم لعبادته.

قال (وأعني الطبري): قال ابن زيد: وفينا آيات كثيرة. هذا السمع والبصر واللسان والقلب لا يدري أحد ما هو أسود أو أحمر. وهذا الكلام الذي يتلجلج به. وهذا القلب أي شيء هو، إنما هو مضغة في جوفه يجعل الله فيه العقل. أفيدري أحد ما ذاك العقل وما صفته وكيف هو؟.

قال: والصواب من القول في ذلك أنْ يُقال: معنى ذلك: وفي أنفسكم أيضاً أيها الناس آيات وعبر تدلكم على وحدانية صانعكم. وأنه لا إله لكم سواه. إذ كان لا شيء يقدر على أن يخلق مثل خلقه إياكم ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ أفلا تنظرون في ذلك فتتفكروا فيه. فتعلموا حقيقة وحدانية خالقكم.

وللشعر دور في الحث على التأمل في جميع الأشياء من حولنا



تأملاً يقرر بطبيعة الحال بأن كل ما في هذا الوجود هو من تدبير الخالق وصنع يده.

يقول الشاعر الإسلامي الشيخ الحبيب المستاوي المتوفى سنة ١٣٩٥هـ، من قصيدة له عنوانها «تأملات» وقد تضمنها ديوانه «مع الله» وفيها صدر عدة أبيات بكلمة «رأيتك» وذلك مثل قوله:

رأيتك يا ربي بنور بصيرتي
وأدركت سرّ الخلق فيما تكور

رأيتك في ذاتي تقيم كيانها
على أسس ترضيك أنت المخير

رأيتك في قلبي تنظم نبضه
وتغمره بالنور أنت المقدر

رأيتك فيما كان فيه من الهوى
تطهره بالدين أنت المطهر

رأيتك في الأوصاب كَشّر نابها
فاجليتا عنّي وطبك أخبر

رأيتك في أكلي وشربي ولذتي
رأيتك في نومي وما أتفكر

رأيتك في دفع الأذى عن طعامنا
وإخراجه وهو الوباء المكدر

رأيتك في أهلي تؤمن سيرهم
فيعطى لنا البيت السعيد المنوّر

○ ○ ○ ○ ○

البناء الملون للقصيدة

في ديوان الشاعر ولي الدين بن حسن سري باشا يكن المتوفى سنة ١٩٢٢م، قصيدة عنوانها «شاعرة تهاجر شاعراً» وليس الذي حملني على الوقوف عند تلك القصيدة أو التعليق عليها. عنوانها الصارخ فحسب وإنما الذي جعلني أتأنى في قراءتها تلك الظاهرة الشعرية الغريبة التي أستطيع أن أفسرها بمقدرة ولي الدين يكن، على التلاعب بالألفاظ، الأمر الذي جعلني أتصوره وهو ينظم هذه القصيدة بالذات كذلك البناء الماهر الذي وضع أمامه أكواماً هائلة من الطوب والحجر فصار بمهارته وذوقه الفني يداخل بين الطوب والحجر مداخلة متقنة جميلة حيث جعل فيما بين كل حجرتين طوبة أو فيما بين كل طوبتين حجرة فأصبح لا يغيب عن نظر الممعن في بنائه حجرة أو طوبة.

وبهذا التصوير الجميل بنى ولي الدين يكن قصيدته التي استهلها بقوله:

تمسين ناسية وأمسي ذاكراً
عجباً أشاعرة تهاجر شاعرا

وبعد هذا المطلع الجميل نجد أن صدر كل بيت فيها يضم كلمة أو كلمتين أوأكثر من ذلك بينما تلاحظ أنه نقل تلك الكلمات إلى عجزه بطريقة سحرية لا يتسرب إليها قلم الناقد الذي يرى في تكرار الكلمة الواحدة في البيت مأخذاً على شاعر قد يصل إلى وصف البيت بالركاكة.

وتأكيداً لما أشرت إليه من نقل الشاعر ولي الدين يكن بعض

كلمات صدر البيت إلى عجزه بشكل جذاب وبمهارة شعرية جيدة وإحكام قوي تدثره البلاغة وحسن السبك، يقول في البيت الثاني من تلك القصيدة:

فهل الملائك كالحسان هواجر
إن الملائك لا تكون هواجر

فانظر كيف وفق لاستخدام (الملائك) و(الهواجر) في صدر البيت وعجزه. أليست هذه براعة؟ ويقول في البيت الثالث:

إن كنت لا أسعى لدارك زائراً
فلكم سعى فكري لدارك زائراً

وتلاحظ كيف فعل ب(أسعى) و(دارك) و(زائر) في صدر البيت وفي عجزه، أما البيت الرابع فيقول فيه:

وأخو الوفا يصون منه غائباً
أضعاف ما قد صان منه حاضرا

وبعد أن أبدع في نقل: (يصون) من الصدر إلى العجز نراه يقول في البيت الخامس:

يصيبك طير الروض في ترجيعه
يا ليتني في الروض أصبح طائرا

وكما نرى فقد أوجد ل(طير) و(الروض) مكاناً في عجز البيت كما أخذ وضعهما في صدره. ويقول في البيت السادس:

ويهز منك الزهر في زفراته
نفساً تظل لها النفوس زوافرا

وتلاحظ هذا النمط العجيب. فزفراته في الصدر جاء بها زوافر في العجز، ويقول في البيت السابع والثامن:

قد عشت دهرك بالمحاسن صبية
وقضيت دهري بالمحاسن حائرا

إنا اقتسمنا السحر فيما بيننا
للّه ساحرة تساجل ساحرا

ولولا شرط التأليف الذي لا يسمح لي أكثر من الاستشهاد بثمانية أبيات لأوردت القصيدة كلها والتي تبلغ خمسة عشر بيتاً.

○○○○○

هيئة الأمم... مع من... وعلى من؟!!

إن السؤال الذي يفرض نفسه عندما نريد الحديث عن عصبة الأمم المتحدة وهيئتها القائمة الآن هو: مع من تكون الهيئة إذا عرضت عليها قضية تظلم؟ وعلى من تكون إذا صيغت قراراتها؟ والإجابة على هذا التساؤل يدخل ضمناً في قولنا: إننا إذا عرفنا أن جميع القضايا العربية التي فتح لها إضبارات مند تأسيس الهيئة لم تحل بعد وإنما يتردد كل قرار يتخذ بشأنها بين أصوات المد والجزر فالجزر هو الدويلات التي زادت في مجموعة الهيئة فقط.

والمد في نظر السياسيين هوالدول التي لها الكلمة المسموعة والصوت المستجاب وهذه لا ترغب على الإطلاق في حل أي قضية بين العرب وخصومهم لتضمن لجوء أحد أطرافها إليها. أما في فجر نشوء الهيئة فقد كانت بل حلت بقيامها المصيبة الكبرى حيث اتخذ قرار بتقسيم معظم الدول العربية إلى دويلات كل واحدة أوأكثر من واحدة تحت انتداب دولة من دول العصبة إذ انتدبت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا لرعاية شؤون تلك الدويلات وكأنما هي ممتلكات يرثها قصر لم يبلغوا سن الرشد بعد.

وعلى هذا المفهوم مضت سنون والشعوب العربية تئنُّ تحت هذا الانتداب اللعين، الأمر الذي حمل الشعوب العربية على أن يضحوا بمئات الآلاف من أبنائهم في سبيل القضاء على هذا الانتداب وغسل أثر الاستعمار.

أما هيئة الأمم فقد جعلت في أذنها اليمنى طينة وفي اليسرى عجينة إزاء هذا الاستعمار المبطن بكلمة «الانتداب» ولم تعد تنظر في

أي تظلم يرفع إليها من العالم العربي وإن نظرت إليه بفعل كثرة الأصوات المؤيدة (فالفيتو) جاهز لإحباط أي قرار عادل.

ومن الذين انتقدوا هذا الموقف من الشعراء الشاعر نسيب حمود أرسلان وذلك في قصيدته: «عصبة الأمم» والتي منها قوله:

لا تطلب الإصلاح من «جيناف»
هل ترتجي ثمراً من الصفصاف
لا شيء في الدنيا أشد مضاضة
من ظلمها الموسوم بالإنصاف

ومنها قوله:

قالوا بأن الانتداب عبارة
ترمي إلى الإرشاد والإسعاف
ما بالهم قد صيروها سلطة
تجري مع الأعنات والأعناف

ومنها قوله:

قالوا بأن الانتداب وسيلة
كبرى إلى العمران والإتراف
فعلام قد ضاقت بنا أوطاننا
وجلت عيال الناس بالألاف

ومنها قوله:

قد شاء أهل الغرب أن يتحكموا
في العالمين بحجة الإشراف
نبذوا الشرائع والعهود وجازفوا
بمصالح الضعفاء كل جزاف

حياة البدو في نظر الجزائري

والأمير عبد القادر الجزائري الذي عاش طول حياته في معمعة الحروب وميادين المعارك تطيب له في بعض الأحيان الوقفات التأملية التي كثيراً ما تتمخض عن إبداع شعري تدوي قافيته في أرجاء الأدب.

والذي يقرأ ديوان الجزائري يجد فيه مطلبه مهما كان ميوله. فهو مزيج من الفخر والنسيب والمساجلات والمناسبات وغير ذلك مما يشبع رغبة المتذوق للشعر.

وإذا ما تتبعنا سيرة الأمير عبد القادر الجزائري وجدناها عامرة بكل فنون الأدب ومقومات الرجولة والبطولة والفروسية. وإقدام الجزائري على منازلة أعدائه وهم الفرنسيون الذين يفوقونه عدة وعتاداً قد أوقعوه عدة مرات في الأسر.

وفي توطئة لقصيدة له عنوانها «ما في البداوة من عيب» وردت الإشارة إلى أنه كان أسيراً في «امبواز» وكان موضع التكريم من علماء فرنسا وعظمائها الأمر الذي جعلهم يراسلونه ويراسلهم وهو في السجن. وقيل: إنه ذات مرة بعث إليه بعض أمراء فرنسا يسألونه رأيه فيما اختلفوا فيه. هل البدو أفضل من الحضر؟ فكان رده عليهم بالقصيدة المشار إلى عنوانها آنفاً والتي تبلغ نحواً من اثنين وثلاثين بيتاً. منها قوله:

يا عاذراً لامرئٍ قد هام في الحضر
وعاذلاً لمحب البدو والقفر

لا تَذْمُمَنَّ بيوتاً خف محملها
وتمدحنّ بيوت الطين والحجر



لوكنت تعلم ما في البدو تعذرني
لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر
أو كنت أصبحت في الصحراء مرتقياً
بساط رملٍ به الحصبا كالدّرر
أو جلت في روضة قد راق منظرها
بكل لون جميل شيق عطر
تستنشقنّ نسيماً طاب منتشقا
يزيد في الروح لم يمرر على قذر

ومنها قوله:

قال الألى قد مضوا قولاً يصدقه
نقل وعقل، وما للحق من غير
«الحسن يظهر في بيتين رونقه
بيت من الشّعْرِ أو بيت من الشّعَر»

ومن هذه القصيدة وأخواتها يتضح أن عبد القادر الجزائري له مساهمة في كل فن من فنون الأدب والشعر. وقد تطرق في تلك القصيدة إلى وصف منازل البدو ومرتبعاتهم وطريقة حياتهم مع مواشيهم، ومواقفهم الفروسية.

○ ○ ○ ○ ○

الحب من طرف واحد بلوى

هل يحب المرء من لا يحبه؟. إن الإجابة على هذا السؤال متشعبة بالطبع لأنها تأخذ مناح وتعليلات فلسفية تطوح بمن يريد الإجابة الكافية الشافية لأن الحب من طرف واحد فيه ما يوجب البحث عن سر عدم تبادل الطرفين حباً بحب ونحن إذا ما التمسنا تعليلاً لوجود الحب من طرف واحد فلا بد من القول بأن ذلك الحب المنفرد الذي غرسته نظرة عين أو سماع أذن فتمثل جمال الصورة وحسن الصوت وعذوبته في نفس الرائي أو السامع تمثلاً مَسَّ شغاف قلبه وحرك مشاعره فحب صاحبه الذي لم يشعر بأنه حرك بجماله أو عذوبة صوته ساكناً وأوجد تولهاً في قلب رائيه وسامعه.

والحب من طرف واحد يكون غالباً هو أشد الحب عذاباً وأسىً وحرقة لأن طرفاً واحداً هو الذي يصطلي بالنار أما الآخر فكما أسلفت لا يشعر بذلك الشعور الذي ينتاب محبه ولا يحس بإحساسه.

أما إذا كان الحب متبادلاً بين الطرفين فإن السؤال السابق يختفي بجميع علاماته واستفهاماته لأن لغة الإحساس به بين الطرفين تأتي بشيء يخفف الأسى. فتبادل التشاكي ربما يكون بلسماً شافياً ودواءاً ناجحاً لما يقاسيه قلباهما من شوق وتوجد وتلهف للقاء والمحادثة، والعامة يعدون الحب من طرف واحد بلوى من البلايا لذا نراهم يدعون به على بعضهم فيقولون: «الله يبلاك بحب من لا يحبك».

وشعراء الغرام لهم في هذا الموضوع أقوال متعددة وآراء صريحة منها ما يكون نتاج تجارب مروا بها ومنها ما يكون طيف خيال لا يرهق النفس ولا يدمي القلب.

ولقد رسم الشاعر السعودي يحيى توفيق صورة تقريبية للحب من طرف واحد في قصيدة منها قوله:

كلف أن تحب من لا يحس
أنت تأسو جراحه وهو يقسو

وهوان أن تستنيم لغر
بك يلهو فلا يصون ويأسو

فترفع إن شئت في العيش عزا
عن هوى النفس لا تذلك نفس

ويمضي في تلك القصيدة فيقول:

كنت عبداً لها أسير هواها
وبقلبي يلوب حزن وتعس

خدعت بالهمس الندي فؤادي
والفؤاد العميد يسهيه همس

ما درى القلب عندما بك غنى
إن هذا الوداد زيف ونحس

فجمال الوجود حب كريم
بين قلبين لا خداع ودس

أنت ما أنت غير سم زعاف
ميت الروح من يمت فيه حس

○○○○○

وهل

يقف الشاعر المتأمل أمام الطبيعة فيطلق لسانه إما مصوراً لما يشاهده من ظواهر كونية أو متسائلاً عما يدور حوله من أشياء في عالمه الأرضي.

والشاعر العراقي علي بن جعفر محمد الشرقي حصل له وقفة تأمل خلالها في الكون البعيد. حيث مدّ بصره إلى النجوم حصل له وقفة... تأمل خلالها في الكون البعيد. حيث مدّ بصره إلى النجوم السابحة في الفضاء البعيد. والتي لقبها ببنات السديم. وأخذ يسائلها عن سر وجودها وكنه تكوينها في أسلوب فلسفي بديع. صاغه في قصيدة بلغت تسعة وعشرين بيتاً وجعل عنوانها «مناجاة النجوم» ووالى في سبعة أبيات منها التساؤل بـ(هل) في صدر كل بيت.

وقال لابنة السديم: ويعني بابنة السديم «النجم»، مبدياً حيرته فيما يراه منها وموجهاً سؤالاً لها: هل هي أم الأرض التي تقلنا أم أنها عاقر لم ينفصل منها كوكب أو نجم آخر؟.

نشدتك يا بنت السديم تحيراً
فهل أنتِ أم الأرض أم أنت عاقرُ

ويسأل أنجم السماء عن طبيعة تركيبها وعناصرها:

وهل أنتِ يا شهب السماء بسيطة
طلعت لنا أم ركبتك العناصر

وهل أنت ذاك النجم أول خلقه
إلى يومنا أم أنت يانجك آخر؟

ثم ينتقل إلى سؤال آخر يتعلق بالجاذبية:

وهــل لــك الــجــاذبــيــة مــاســكٌ
وهـل لـك لـلـتِّـسْـع الـسـوائـر عـاشـر

ثم يسأل الأنجم عن مادة تركيبها. وما هي الذرات الدقيقة التي تكون منها جسمها حتى صار ماثلاً للعين بالشكل الذي نراه:

وهــل أجــســام نــســجــن دقــائــقــاً
مـنـظـمـة قـد ألـفـتـهـا الـجـواهـر

ثم يطمع في معرفة ما إذا كانت تلك النجوم مأهولة بسكان كسكان الأرض.

ويسأل هل فيها نبت وأنهار؟. وهل فيها أطلال بالية وأماكن عامرة كما في كوكبنا الأرضي:

وهل فيك كالأرض العريضة ساكن
ونــبــتٌ وأنــهــار وبــالٍ وعــامــر

ويمضي في فلسفة السؤال إلى الرغبة في الإفادة عما إذا كان في تلك النجوم مظلوم تغمطه ظالم. ومغدور غدر به غادر، كما هو الحال على كوكبنا الأرضي:

وهـل فـيـك مـظـلـوم تـسـكـع حـائـراً
وهـل فـيـك مـغـدور وهـل فـيـك غـادر

ثم يعود في تقرير ما يحيط بتلك النجوم من أسرار لا يصل إلى فهم معناها عقل الإنسان فيقول:

أراك ومــا أبــصــرت إلّا ســوافــراً
مـحـجـبـة لا تـجـتـلـيـك الـخـواطـر

عشق مفردات الأبيات

وإذا تتبعنا تاريخ الزعماء والحكماء والعلماء والأدباء وجدنا أن الكثير منهم قد استحسن شيئاً من مفردات أبيات الشعر، وصار يأتي على لسانه في كل مناسبة وآونة وحين بعض منها. وقد كان الزعيم عبد القادر الجزائري يردد هذا البيت:

إذا جهلت مكان الشعر من شرف
فأي مفخرة أبقيت للعرب

واستصحاب الأمير الجزائري لهذا البيت يشهد له بقوة الحس الشعري لديه وحسن تذوق مفردات الأبيات. ولا غرابة في ذلك فالأمير عبد القادر الجزائري الذي قضى أيام حياته كلها في تجارب على مستوى الزعامة حتى توفي عام ١٣٢٤هـ فهو إلى جانب مباشرته المعارك الضارية بنفسه ومزاحمة الأبطال في ميادين القتال يملك مقومات الشعر التي أهلته إلى الوقوف في صف عظماء شعراء أهل عصره فكان شبيهاً بعنترة في فروسيته وشعره.

وللأمير الجزائري ديوان شعر مطبوع ضم قصائد متنوعة الأهداف ومختلفة الاتجاهات فهو قد أخذ بنصيب من الفخر والغزل والمساجلات والمناسبات وغير ذلك من شعر التصوف.

قال الأستاذ ممدوح حقي وهو يقدم ديوان الجزائري: وتظهر على شعره سمات النحاة والبلاغيين، والعروضيين، والفقهاء، وفي باب المساجلات نجد أن الشاذلي قد بعث إليه بقصيدة استهلها بقوله:



سلام عليكم طال شوقي إليكم
وقلبي سواكم في البرية ما أحب

فأجابه الأمير الجزائري بأبيات منها قوله:

خليلي لا تندم على العتب للحب
فإن خفيف الحب أنفع بالطب
فما ذاك مكروه ولا بمحرم
بشرع الهوى بل ذاك فرض على الصب
سبيل الهوى هجر ووصل وفرقة
وجمع وخلفٌ بالزيارة والعتب
وهذي دواع للعقاب كثيرة
لذا كان طول العتب ألزم للحب
وقد قيل: يبقى الود ما العتب باقياً
فللّه ما أحلى مقال ذوي اللب
إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضى
فأين حلاوات الرسائل والكتب

○ ○ ○ ○ ○

إمعان النظر في خلق الله
يقود إلى طاعة الله!!

ينطلق البعض منا في ميدان الحياة بدافع الحرص على جمع المال فيسلبه الحرص على الاتجار وتوسيع موارده قدراً كبيراً من التفكير في أمر دينه ومصيره الأخروي، ويأخذ منه اللهو بزينة الحياة والانشغال بها مأخذه فلا يقف الوقفة التأملية التي يسأل فيها نفسه عن مصيره ومآله. ولا يمعن النظر في خلقه وتكوين ذاته الإمعان الذي يجعله يمد طرفه إلى الأفق ليتفكر في عظمة صنع الخالق. ثم يعود ببصره إلى الأرض التي سطحها الله وفرشها له بكل ما تريده نفسه وتعشقه.

قال تعالى في سورة الذاريات الآية ٢٠ و٢١: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

والتفكير فيما خلق الله وأوجده مدعاة للإيمان بالله. بل أن فيه كسراً وتثبيطاً لغلث المادة.

ولهذا فإن الحث على التفكير في مخلوقات الله، والتذكير بآياته واجباً شرعياً على كل داعية حتى يستشعر الناس عظمة الله المتجلية في صنعه. ويتذوقون بواقع المصير ومنتهى الحياة حلاوة القناعة وراحة النفس، ورضا الضمير.

قال تعالى في سورة الروم آية ٥٤: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾.



وطبيعة التفكير فيما خلق الله، لا تمنع من مواصلة السعي لاكتساب المال الحلال والمتاجرة النزيهة القائمة على القواعد الإسلامية التي تنبذ الغش والربا وجميع الأساليب التي تشوب التجارة وتفسد صفوها بسبب إعطائها الأولوية على العبادة وأداء الواجبات.

قال تعالى في سورة الجمعة آية ١١: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

ومثلما يجب على أصحاب المنابر والدعاة من حث الناس على التفكير فيما خلق الله فإنه يقع على الشعراء كفل من ذلك الحث، إذ أن من الناس من يكون للشعر تأثير في نفسه أبلغ مما سواه من الكلمات المنثورة، لذا نجد الأمير الصنعاني واسمه محمد بن إسماعيل يقول من قصيدة يمجد الله فيها ويثني عليه:

من ذا الذي يبسط البسيطة للورى
فرشاً وتَوّجَهَا بسقف سمائه

من ذا الذي جعل النجوم ثواقبا
يهدي بها السارين في ظلمائه

من ذا أتى بالشمس في أفق السما
تجري بتقدير على أرجائه

أسواه سوّاها ضياء نافعاً
لاوالذي رفع السما ببنائه

من أطلع القمر المنير إذا دجى
ليل فشابه صبحه بضيائه

من طول الأيام عند مصيفها
وأتت قصاراً عند فصل شتائه

من ذا الذي خلق الخلائق كلها
وكفى الجميع ببره وعطائه

وأدرّ للطفل الرضيع معاشه
من أمه يمتص طيب غذائه

○○○○○

الجزائري... كافح بقلمه كما كافح بسيفه

والمعروف أن الأمير عبد القادر الجزائري قد قضى حياته في مصادمة الفرنسيين بالسلاح. ولكن هل كان له منازلة بالقلم؟. هذا هو ما نريد معرفته من خلال هذا الموضوع ومن واقع تقليب صفحات حياته المليئة بكفاح قلمه.

لقد ذكر الأستاذ ممدوح حقي في مقدمة ديوان الجزائري قائلاً: لقد راسل الجزائري علماء العالم الإسلامي. سائلاً ومستفسراً ومجادلاً ومجيباً. وناقش علماء فرنسا وسواهم مناقشة تشير إلى دراسته العميقة للعهد القديم والأناجيل. حيث ردّ على الجنرال «دوماس» هجومه على القرآن الكريم الذي يسمح للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة بقوله: فلو كان في فعل ما ذكرته ضرر ما فعله الأنبياء عليهم الصلاة السلام. ففي التوراة وفي الإصحاح التاسع والعشرين أن يعقوب تزوج ليّا وراحيل وفي الإصحاح ٢٦ أن عيصو اتخذ نساء منهن يهوديت، وبسمات، وفي سفر التكوين الإصحاح الرابع: فأخذ له «لامك» امرأتين اسم أحدهما «عادي» واسم الأخرى «صالي».

وقولكم: ويتخذون: أي العرب، ما يقدرون عليه من الجواري كذلك هوحلال في شرع الإسلام وفي الشرائع القديمة وفعله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ففي الإصحاح ٢٦ من التوراة أن سارة امرأة إبراهيم كانت لها أمة مصرية اسمها هاجر. فقالت لبعلها: هو ذا حرمني الرب الولد فادخل على أمتي، فدخل بها فحبلت، وفي الإصحاح ٣٠

أن راحيل أعطت أمتها «نبها» إلى يعقوب وولدت له ولدين. وكذلك امرأته «ليّا» أعطته «زلفا» وولدت له ولدين.

وفي الإصحاح ٢٢ أن سرية «ناصور» أخي إبراهيم اسمها «روما» ولدت له «طابخ» و«حاجم» و«ناخس» و«معكا» وكان لنبي الله داود عليه السلام عدة كثيرة من الجواري ولابنه سليمان مئة امرأة وثلاثمئة سرية.

والعرب يحبون أولاد الجواري ويقولون: ليس قوم أكيس من أولاد الجواري لأنهم يجمعون بين عز العرب وعلو همتهم وبين العجم وكمال عقولهم، إلخ.

وهكذا يمضي الأمير عبد القادر عارضاً النصوص من قلب التوراة التي يؤمن بها خصمه الجنرال النصراني ويعتبرها كتابه المقدس فيدمغه بالحجة البالغة ويكعمه بالدليل الذي لا يقبل الجدل.

وهذا الكفاح القلمي ما هو إلا بجانب كفاحه الحربي الذي ترسم جزءاً منه هذه الأبيات من قصيدة قالها عندما ضاقت نفسه من الأسر واشتاق إلى أهله وأصحابه:

ماذا على ساداتنا أهل الوفا
لو أرسلوا طيف الزيارة في خفا

يترصد الرقباءَ حتى يغفلوا
ويكون مانعُ وصلنا ليلاً غفا

فإذا تمكنت الزيارة خفية
يأتي مواعد وصلنا متلطفا

ويكون قبل حلوله أفرشته
خدي وطاء للنعال وللحفا



ومنها قوله:

قلبي الأسير لديكم، والجسم في
أسر العداة معذباً ومكتفا

حاشاكم لجميل ظني فيكم
أن تشمتوا فيّ العدو المرجفا

ولطالما لام العذول بحبكم
وأطال عتبي ناصحاً ومعنفا

ولكم جنى كيما يصرّف وجهتي
عن وجه ودكم ولم يك مُصرفا

○ ○ ○ ○ ○

اكتساب الإخوان والصفح عن هفواتهم!!

وحياة الناس بطبعها وطبيعتها تفرض عليهم الألفة والمؤانسة فيما بينهم. أما عنصر استمرارية تلك المؤانسة والائتلاف فإنه يكمن في التحاب والتواد والتسامح. ولهذا فإن دوام التآخي يكتسب بالصفح عن الزلات. والعفو عن الهفوات.

وفي مجال اكتساب الإخوان أكثر الحكماء والفلاسفة والكتاب والشعراء من الحديث. فلا تكاد تقرأ كتاباً أدبياً إلّا وجدت فيه أقوالاً وآراءاً مدعمة بالتجارب المؤيدة للواقع. فمن تلك الأقوال التي تدور حول الحض على اكتساب الإخوان ما روي عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: يا بنيّ: ليكن أول شيء تكسبه بعد الإسلام خليلاً صالحاً. فإنما مثل الخليل الصالح كمثل النخلة إن قعدت في ظلها أظلك وإن احتطبت من حطبها نفعك. وإن أكلت من ثمرها وجدته طيباً.

وقال آخر: ينبغي لصاحب الكريم أن يصبر عليه إذا جمعتهما قسوة الزمان فليس ينتفع بالجوهرة النفيسة من لم ينتظر نفاقها.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لا تقطع أخاك على ارتياب، ولا تهجره دون استيعاب، وقال آخر: لا تقطع أخاك إلّا بعد العجز عن إصلاحه.

وقال الأحنف بن قيس: من حق الصديق أن يحتمل له ثلاث: ظلم الغضب، وظلم الوالد، وظلم الهفوة.



وقال ابن المعتز: كما أن جلاء السيف أسهل من طبعه كذلك استصلاح الصديق أسهل من اكتساب غيره:

وللشعراء في هذا المجال أقوال: قال ابن الحداد المغولي:

اشدد يديك على أخيك تكن به
في كل أمر تبتغيه قديرا
لو لم يكن بأخ أخ متأدباً
لم يتخذ موسى آخاه وزيرا

وقال شاعر آخر:

اقبل أخاك ببعضه
قد يقبل المعروف نزرا
واصبر عليه فإنه
إن ساء عصراً سرّ عصرا

وقال آخر:

تكثر من الإخوان ما استطعت إنهم
عماد إذا استنجدتهم وظهور
وليس كثير ألف خل وصاحب
وإن عدواً واحداً لكثير

ويقول الشاعر عبد القدوس هاشم الرفاعي:

فإذا ظفرت بصاحب
لك في الصداقة غير غادرْ
فاحرص على كنز الوفاء
فإنه في الناس نادرْ

لهفي

لقد نظم الشاعر العراقي أبو المكارم عبد المحسن بن محمد بن علي بن المحسن بن محمد بن صالح بن علي بن الهادي النخعي قيل: إنه كان يوصل نسبه من أسرة أمه إلى الإمام موسى الكاظم ولد في حي الدهانة ببغداد سنة ١٨٦٥م ونشأ في الكاظمية من أعمال الزوراء ولهذا سمي بها.

ولقد قضى الشطر الأخير من حياته في مصر وتوفي في مصر الجديدة من ضواحي القاهرة في اليوم الأول من شهر مايو سنة ١٩٣٥م. قلت: لقد نظم قصيدة رثاء شاملة لعدد من أصدقائه الذين تذكرهم فرثاهم بها فجاءت قصيدة طويلة قوامها مائة وسبعين بيتاً. وقد كان من بين من رثاهم الشيخ محمد عبده.

وفي أحد مقاطع تلك القصيدة الطويلة التي تعد من أطول قصائد الرثاء اتكأ الشاعر عبد المحسن الكاظمي على عبارة التلهف حيث صدر بها عدداً كبيراً متوالياً من الأبيات بلغت أربعة عشر بيتاً كلها مبدوءةٌ بـ«لهفي».

والشاعر عبد المحسن الكاظمي ليس هو الشاعر الأول الذي يتكئ على كلمة واحدة فيجعلها صدراً لعدد من أبيات قصيدته بل هناك الكثير من الشعراء الذين استطابوا ذلك. وقد رصدت شيئاً يسيراً من هذا وضمنته الجزء الثالث من كتابي هذا «الأدب المثمن». أما الكاظمي فمن أبياته التلهفية قوله:

لهفي لقاسم لم يكن
يوم القضاء بمقسم



لهفي لقاسم ليس يقضي
في الملم المبهم

لهفي له لا يستشار
ولا يرى بمحكم

لهفي لأحمد وهو ير
دم في الصعيد المردم

لهفي لسيما طلعة
خفيت على المتوسم

لهفي على العلم المفا
رق فيه خير معلم

لهفي على الأخلاق عا
د نسيمها لم ينسم

لهفي على الآمال آ
ل بها الردى للمعقم

○ ○ ○ ○ ○

البحث عن مخرج من الضائقة

قلَّ من الناس من لا تمسّه الشدائد وتنزل بساحته الضائقات والمصائب، فالخوض في غمار الحياة وخضمها يأتي على الإنسان بألوان من المعاناة. كما يأتي عليه بأنواع من الانبساط ورغد العيش وسعة الرزق. ولهذا نجد كلاً يرسم الحياة ويصورها وفقاً لواقع منهجه وسيرة حياته. فالمسرور يصف الحياة بالصفاء والنقاء. ويصورها داخل إطار مذهب بأبهى الأوان التي توحي بالمتعة النفسية والرضا عن الواقع الذي يعيشه.

أما الذي تتعذب نفسه بألم المعاناة من قسوة الحياة وألوان المكايدة فإنه يقف على قدم حائرة. ويخطو برجل متعثرة لأنه كلما همّ بسلوك درب ما وجد بالإضافة إلى التوائه وعورة وأشواكاً. فيحفر مشاعره وأحاسيسه التي لم تلتذ برخاء. ولا بصفاء ولا برضاء نفسي على تلك الصخور التي ترتطم بها أقدامه، لكنه لم يقطع الأمل فيما يجلب إليه السرور.

والمسلم الذي تحيط به ظروف قاسية. وتحط ببابه النكبات العاتية يستند في مد الأمل في انفراجها إلى مفهوم الآيتين الكريمتين: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾.

ثم يمضي في الطريق وهو ينشد قول الشاعر إبراهيم بن عباس الصولي:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى
ذرعاً وعند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها
فرجت وكان يظنها لا تفرج

وإذا كان لكل شيء نهاية فإن نهاية اشتداد البلى وعنفوان النوازل وتناهي قوة الضائقات بداية ترقب الفرج والمخرج من الضيق إلى الفسحة، ومن الكآبة إلى السرور، يقول الشاعرعبد الله بن الزبير الأسدي:

لا أحسب الشر جاراً لايفارقني
ولا أحزُّ على ما فاتني الودجا

وما نزلت من المكروه منزلة
إلّا وثقت بأن ألقى لها فرجا

أما أبو الحسن بن فارس فيؤكد في بيتين له أنه ما نزل به مكروه إلّا كان مؤشراً على حلول الفرج. يقول:

وقالوا كيف حالك قلت خير
تقضى حاجة ويفوت حاج

إذا ازدحمت هموم الصدر قلنا
عسى يوماً يكون لها انفراج

وفي هذا المعنى أحفظ قولاً لشاعر لم يحضرني اسمه. وهو قول يفيض بالحكمة المتعلقة بانفراج الضائقة بسبب التوجه إلى الله ودعاؤه. يقول ذلك الشاعر:

وإني لأدعو اللّه والأمر ضيق
عليّ فما ينفك أن يتفرجا

وكم من فتى ضاقت عليه وجوهه
أصاب لها في دعوة اللّه مخرجا

شعر منكر

ومن الشعراء من يطغى عليه لسانه حين يتعرض لمن ينكر عليه قبيح فعله. فيأتي بشعر منكر يرفضه كل مسلم صادق الإسلام.

والشاعر إذا كان غارقاً في الهوى ومنغمساً في اللهو وسالكاً طريق الفسق والفجور والعصيان فإنه لا يبالي بالتظاهر بارتكاب المعاصي بل ولا يتورع من قول المنكر وتوجيه الشتائم للذين ينكرون عليه سلوكه المعوج من الدعاة والناهين عن المنكر.

اسمع أحدهم وهو يعترف بمخالفته بل يفتخر بذلك ويتمادى في عصيانه الذي أملاه عليه الشيطان الذي أوحى إليه بأن يقول بأنه يمارس شيئاً نافعاً هو بمنفعته أدرى من غيره. وذلك بقوله:

الدن لي والكأس والقرقف
وللفقيه الكتب والمصحف
لا تنكروا حالي، ولا حاله
كل بما ينفعه أعرف

ثم يذكر الشاعر بعد ذلك أن معرفته بمنفعة الخمر فوق معرفة الفقيه بها والسبب في ذلك أن الفقيه لم يتذوقها مثل ما تذوقها هو، ولذا اعتبر الفقيه غير منصف في نهيه عنها:

لكنه ينكر أذواقها
وماله ذوق ولا ينصف
كم يزدري الراح وشرابها
أخشى على هذا الفتى يقصف



ولم يكتف بذلك... وإنما نراه يطلب إلى الفقيه أن يتركه وحاله لا لأنه مصر وسافه لنهي الفقيه. ولكنه يرى أن الفقيه يضعف عن إدراك منفعة الخمر:

دعـنـي وحـالـي يـا فـقـيـه الـورى
فـأنــت عــن إدراكــهــا تــضــعــف

هــيــهــات أن يــدرك طــعــم الــهــوى
مــن لــم يــكــن فــي ذوقــه يــلــطــف

وتلك مفاحلة عمياء، ومغالاة في الإصرار على البقاء على ارتكاب المعاصي كيف لا وهو يتبع قوله السابق بقوله:

لـلـعـشـق سـر لـم يـزل غـامـضاً
لـغـيـرأهـل الـحـب لا يـكـشـف

فـيـا نـديـمـي اشـرب عـلـى رغـمـه
ودعــه فــي إنــكــاره يــرســف

والقصيدة أطول من ذلك.

○○○○○

مماحكة شعرية

نشرت جريدة «اليوم» في عددها ٦٣٩٥ الثلاثاء، جمادى الآخرة سنة ١٤١١هـ دراسة عنوانها «عيون الأحساء تتدفق شعراً» للأستاذ عبد الله الشباط وعند ذكره لعين «نجم» بالأحساء قال: تقع هذه العين في مرتفع من الأرض على حافة النطاق العمراني من جهة الغرب على بعد ميل ونصف غربي مدينة المبرز.

وكان أبناء البادية القادمين من الصحراء للتسوق من أسواق الأحساء يألفون النزول حول هذه العين. وكان الأهالي يخرجون إليها بين حين وآخر للنزهة والاستحمام وكانت ولا تزال منطلقاً لقوافل الحج التي تغادر الأحساء بواسطة الجمال قديماً، والسيارات حديثاً حيث يتواعد المسافرون والحجاج بأن تكون الرحلة الأولى لهم عين نجم فيخرج الأهل والأصدقاء لوداعهم ولاستقبالهم حين قدومهم.

وقد وصفها (فيدال) بقوله: نبع متوسط الحجم ماؤها حار كبريتي. تقع على بعد حوالي كيلو مترين غرب المبرز قرب جبل (أبو غنيمة) كان النبع خلال الحكم العثماني مفضلاً جداً لفاعليته الملاحية.

وقد بنى الأتراك عليها قبة كبيرة وأمكنة صالحة للاستحمام داخلها. ولعلماء الأحساء مساجلات شعرية في عين نجم ولعل أول من سجل من تلك المساجلات قصيدة الشيخ أبي بكر الملا التي منها هذه الأبيات:

يا عين نجم فِقْتِ آبار الحسا
بحرارة وبخار ماء يصعد



زِنْتِ البلاد لأن فيك دلالة
عظمى على توحيد رب يعبد

إذ كان حمامات أصحاب القرى
يحتاج قاصدها لنار توقد

ودخان مائك ليس فيه مدخل
للخلق بل تقدير مولى يوجد

قال عبد الله الشباط: ولما أنشأ الشيخ أبو بكر الأبيات، أرسل إليه الشيخ عبد الله ابن الشيخ أحمد آل عبد القادر أبياتاً يعتب عليه وعلى الشيخ عبد الله بن الشيخ أحمد بن عبد اللطيف حيث لم يرسل إليه ليجتمع بهما في عين نجم، منها قوله:

«يا عين نجم فِقْتِ آبار الحسا
بحرارة وبخار ماء يصعد»

ونزاهة ونظافة في مائها
والمدح في أوصافها يتزايد

والجسم يكتسب الشفا من حرها
قولاً قديماً للأطباء يعهد

لكنني أشكو الجفا من سيد
فاق الأنام وفضله لي يشهد

ومضى فيها يمتدح أبا بكر الملا وقد رد عليه أبو بكر بأبيات شاطره فيها المدح ومبادلة الشعور بما يكنه له من محبة.

○○○○○

عين نجم بالأحساء

كانت عين نجم عارمة بالمتنزهين والزوار الذين يستحمون في مائها الكبريتي الحار الذي يجدون فيه شفاء لكثير من الأمراض «الروماتزمية» وغيرها، ويقضون فيها فترات نقاهة وانتزاه.

ولكون عين نجم معلماً طبيعياً من معالم الأحساء فقد فرضت تلك العين بطبيعتها على أهل الأحساء أن يقيموا عليها القباب ويُنشؤوا حولها الاستراحات لراحة قاصديها.

وفي عهد الإمام فيصل بن تركي آل سعود رحمه الله هجا هذه العين الشيخ أحمد بن مشرف وحبذ هدم قبابها خشية أن تكون مكاناً مناسباً للاختلاط أثناء الاستحمام ومحلاً للفساد. فتحاشى الإمام فيصل رحمه الله وقوع ما أشار إليه الشيخ أحمد بن مشرف فأمر بهدم القباب فهدمت عام ١٢٧٧هـ. وقد كان هناك تأييداً لهدمها.

قال الأستاذ عبد الله الشباط في دراسة له عن عيون الأحساء: وبعد أن فتح الملك عبد العزيز رحمه الله الأحساء أعيد بناؤها. واستردت شهرتها بعد أن أصلحت حماماتها. كما أضيف إليها مجلس خارجي لاستقبال ضيوف الحكومة، وأضيفت إليها مؤخراً حمامات عدة لطالبي الاستحمام وعمل بها منتزه كبير يقصده الأهالي بين حين وآخر.

وقد أشاد بها الشيخ المرحوم عبد العزيز بن حمد آل مبارك في قصيدة منها قوله:

ردوها فهذا حيث تنبسط النفس
ويستحسن المرآى وينهب الأنس





فللّه عين جل مبدع صنعها
ومن خلقه سبحانه الحين والأمس

تفكر أخي في صنع ربك واعتبر
بما قد ترى في الماء يدركه الحس

عجبت لشيخ راح يعكس مدحها
بذم ويأبى اللّه ما حقها العكس[1]

حبست ركابي قاصفاً في قبابها
ثلاثة أيام وقل لها الحبس

وشاطرني منها السرور عصابة
كهول وشبان وانعامة حمس

غطارفة ما ضرّ من راح يجتلي
محاسنهم ألا تقابله الشمس

تدور علينا من جنى العين قرقفَ
مشعشعة حمراء يصبو بها القس

وعين نجم ليست العين الوحيدة بالأحساء ففي الأحساء العديد من العيون التي تبهج النفس وتسر النظر بمرآها وتدفقها.

○ ○ ○ ○ ○

(١) لعله يقصد الشيخ أحمد بن مشرف الذي هجا عين نجم كما تقدم.

قالوا!!

والذين فسدت عقائدهم وهدموا دينهم من المعطلة والملاحدة والمبتدعين. أخذوا على أنفسهم عهداً بأن يهلكوا الناس كما هلكوا... وذلك بجر الناس بأساليبهم وفصاحتهم التي تسهل المروق من الدين وبما يبطّنوا به من مغالطات، وافتراءات على الله، وتشكيك في صفات الله.

وأخشى ما يخشاه علماء المسلمين من أولئك الملاحدة الضالين هو تأثير أساليبهم وزخرف قولهم على عامة الناس ومن يعجبهم المنطق ولهجة الخطابة وينقادون لما تطرب له آذانهم من بهرج القول ورنين العبارة لا إلى ما يوافق عقيدتهم ويوثق ارتباطهم بخالقهم وكافل رزقهم ومسير حياتهم.

وعلماء المسلمين قد جندوا أنفسهم منذ أن ظهرت الفرق المخالفة. ووقفوا بصادق إيمانهم وقوة عقيدتهم أمام تلك الفرق الضالة يقارعونهم الحجة بالحجة ويدحضون مفترياتهم وأباطيلهم بالنصوص الدامغة. ولكن الخشية هو أن يتحول أولئك الملاحدة والمبتدعين إلى عدم المواجهة واللجوء إلى الطعن في الخلف، وبث السموم في الأشياء الخفية التي لا يلقى لها بال. ولا يتوقع أن يؤتى الشباب المسلم ذكوراً وإناثاً من زاويتها، ولهذا فنحن نطالب علماء عصرنا بأن تكون عين الحذر شاملة بنظراتها ساحة المجتمع بأسره ليكون هجومنا على أعدائنا ودفاعنا عن عقيدتنا متواصلاً يسلم السلف للخلف عتاده وقوته لتبقى قلاع الإسلام شامخة قوية تتساقط أمامها قوى الإلحاد. ولتبقى التقاولات والمصادمات التي تحقق انتصار الإسلام على أعدائه قوية كما كانت في عهد أسلافنا.

وأجدها مناسبة أدخل بها من زاوية الحث على مواصلة مجابهة المعطلة فأنقل صورة من صور التقاولات التي يجابه بها شعراء الإسلام دعوى المعطلة والمبتدعة. وهي صورة التقطتها من قصيدة للشيخ محفوظ بن أحمد بن حسن الكلواذي المولود سنة ٤٣٢هـ، والمتوفى سنة ٥١٠هـ، والمشهور بأبي الخطاب الحنبلي رحمه الله، والتي أورد جزءاً منها الشيخ صالح إبراهيم البليهي في كتابه «عقيدة المسلمين والرد على الملحدين والمبتدعين» من تلك القصيدة:

قالوا بما عرف المكلَّفُ ربه
فأجبت بالنظر الصحيح المرشد

قالوا فهل رب الخلائق واحد
قلت الكمال لربنا المتفرد

قالوا فهل تصف الإله... أَبِنْ لنا
قلت الصفات لذي الجلال السرمدي

قالوا فهل تلك الصفات قديمة
كالذات، قلت كذاك لم تتجدد

قالوا فهل للّه عندك مُشَبَّهٌ
قلت المشَبِّهُ في الجحيم الموقد

قالوا فهل هو في الأماكن كلها
قلت الأماكن لا تحيط بسيدي

قالوا فتزعم أنه على العرش استوى
قلت الصواب كذاك أخبر سيدي

قالوا فما معنى استواه، أَبِنْ لنا
فأجبتهم، هذا سؤال المعتدي

ذبول الأماني

ما من إنسان سويّ إلّا ويخالج نفسه أمنيات تختلف قوة دفعها إلى الرغبة في تحقيقها من شخص إلى آخر كما تختلف سمتها بحسب اختلاف الظروف التي تحيط بصاحبها وتدعوه إلى التطلع إليها.

وإذا ما تصورنا الأمنيات وافترضناها كائناً حياً يتجه نحو المتمني فإن الأمر يتطلب تمهيد الطريق السائرة فيه تلك الأمنيات بفعل عامل الأمل حتى لا تنحرف أو تتحول إلى طريق معبدة وتترك صاحبها الذي فرشت أيامه لها بساطاً سندسياً بأيدي التطلعات وأنامل التوقع والرجاء فيما ستجلبه الأمنيات من سعادة ورخاء لصاحبها.

وتكثر الأحاديث عن الأمنيات وكيفية امتطائها فيأتي بما هو إيجابي منها وما هو سلبي. فالإيجابي يكون بطبيعة الحال محققاً لصاحبه ما يجعل الحياة نزهة لرحلة العمر. أما السلبي منها فهو الذي كثيراً ما يكون مصدر بوح ومنطلق تذمر، وموضوع إحساس.

والأمنيات التي يرجىٰ منها تحقيق الحب وتثبيت مبدئه بين المتحابين تبرز في أقوال الشعراء بصورة ربما كانت أكثر وضوحاً وأعمق تأثيراً في نفس المتمني.

قالت الشاعرة سهام إسماعيل حجي في هذا الموضوع، قصيدة عنوانها «أمنيات العمر» ونقد نشرتها مجلة «القافلة» التي تصدر من الظهران بالمملكة العربية السعودية وذلك في عددها الخامس من المجلد التاسع والثلاثين جمادى الأولى سنة ١٤١١هـ، منها قولها:



وغدا الحب بقايا زورق
حطمته الريح والموج انحسر
وتمادى البحر في تحطيمه
وشراع القلب في اليم انكسر
وبدا الملاح شيخاً فانياً
دائم التحديق فيما قد عبر

* * *

ما الذي تعزف يا شعر وقد
جلل الشيبُ فؤادي واعتصر
هذه الأوتار يا شعري غدت
في ارتخاء بعد وعثاء السفر
أين مني اليوم أزهار ذوت
في خريف بثبوركم زأر
أين مني اليوم أحلام مضت
كسراب كم تخطانا ومر
أمنيات العمر ضاعت من يدي
مثل قبض الريح وانداح الأثر

ooooo

على لسان الكلب... قال ابن غانم!!

ويظهر الشيخ عز الدين بن عبد السلام بن أحمد بن غانم أدب الكلب وما له من صحبة ووفاء وذلك في إحدى مواضيع كتاب «كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار»فيقول: بينما أنا مستغرق في لذة الخطاب منصت للجواب إذ ناداني كلب على الباب. يلقط من المزابل ما يسقط من اللباب. فقال: يا من هو من وراء الحجاب يا محجوباً عن المسبب بالأسباب يا مسبلاً ثياب الإعجاب تأدب بأدبي. فإن فعل الجميل دأبي، وحسن نفسك بسياستي، واسمع ما أقول لك من فراستي وما عليك من خساستي، فإني إن كنت في الصورة حقيراً تجدني في المعنى فقيراً لا أزال واقفاً على أبواب سادتي غير راغب في سيادتي فلا أتغير عن عادتي، ولا أقطع عنهم مادتي. أطرد فأعود، وأضرب ولست بالحقود، وأنا حافظ للود باق على العهود. أقوم إذا كان الأنام رقود، وأصون والخوان ممدود، وليس لي مال معدود ولا سماط ممدود، ولا رباط معهود، ولا مقام محمود، إن أعطيت شكرت، وإن منعت صبرت، لا أرى في الآفاق شاكياً، ولا على ما فات باكياً، إن مرضت فلا أعاد، وإن متُّ فلا أحمل على الأعواد، وإن غبت فلا يقال ليته عاد، وإن فقدتّ فلا تبكيني الأولاد، وإن سافرتُ فلا أستصحب الزاد، لا مال لي يورث ولا عقار فيحرث. إن فقدت فلا يبكى علي، وإن وجدت فلا ينظر إلي، وأنا مع ذلك أحوم حول حماهم. وأدوم على وفاهم، عاكف على مزابلهم، قانع بطلهم دون وابلهم، فإن أعجبك خلالي فتمسك بأذيالي، وتعلق بحبالي، وإن أردت وفاقي فتخلق بأخلاقي ويتبع ابن

غانم هذا النثر الذي غلب عليه طابع السجع بأبيات من الشعر على لسان الكلب، يقول فيها:

وتعلّم حفظ المودة منّي
وتمسّك إلى العلا بحبالي

أنا كلب حقير قدرٍ ولكن
لي قلب خالٍ من الأدغالي

أحفظ الجار في الجوار ودأبي
أن أحامي عليهم في الليالي

وتراني في كل عسر ويسر
صابراً شاكراً على كل حالي

لا يبالى علي إن متُّ جوعاً
أسقتني الأيام مرّ النكالي

لا يراني الإله أشكو لخلق
إذ على اللّه في الأمور اتكالي

أحمل الضيم فيه صوناً لعرضي
وفراري من مُرذل السّؤالي

فخلالي على خساسة قدري
في المعالي يفقن كل خلالي

○ ○ ○ ○ ○

قال... وقلت

وإذا ما أطال الشاعر الوقوف عند التقاول في قصيدة ما فإن تلك القصيدة تتحول بأسلوب ذلك التقاول إلى موضوع قصصي تقل فيه نسبة الإبداع الشعري، وتنعدم فيه الرمزية والمعاني التحويرية التي كثيراً ما يقف أمامها القارئ باحثاً عما يعنيه الشاعر وما يرمي إليه من قصد.

وإذا كان للتقاول خصائص ومميزات. فإن من خصائصه وضوح المعنى الذي يكشفه أسلوب، قال، وقلت، أو قلتُ، وقال.

أما من حيث الأسلوب نفسه فإنه لا يخرج بطبيعته ومفهومه عن الاستجواب، والإجابة، وقد يلعب الخيال دوراً مهماً في كثير من التقاولات التي نقرؤها لكثير من الشعراء. لأن بعض الشعراء يفترضون الإجابة على تساؤلهم افتراضاً يتفق مع تخيلاتهم، ويناسب مقاصدهم سلباً أو إيجاباً.

ومن صور التقاول هذا أنقل هنا أبياتاً من قصيدة للشاعر بهاء الدين محمد مهدي بن علي الصيادي الشهير بالرواس المتوفى سنة ١٢٨٧هـ. وأحسبه هو ذلك الذي غالى في تمجيد الشيخ أبي العباس أحمد بن أبي الحسن علي بن أحمد بن يحيى بن حازم مغالاة أشرت إليها في موضوعات تضمنها الجزء الخامس من هذا الكتاب «الأدب المثمن» يقول في تلك الأبيات التي صدّر كل واحد منها بكلمة. قال:

وخاطبني من أيمن الحي قائلاً
يقال بكم مُضنى، فقلت: يقال

فقال على المضْنَى يُصال تهجّما
بشرع الهوى معنى، فقلت: يصال



فقال: يُهال القلب منه إذا رأى
علامة هجران، فقلت: يُهال

فقال: يُخال الموت في وجناته
غراماً لمن يهوى، فقلت: يخالُ

فقال: يُسال الدمع من بحر جفنه
إذا ما رأى الوادي، فقلت: يُسال

فقال: يُغال الجسم منه تلهفا
لآرام وادينا، فقلت: يغال

فقال: يُحال الدمع منه كما الدّما
ويحفر اخدودواً فقلت: يُحال

فقال: يُنال الوصل إن كان هكذا
فبشّره يا هذا فقلت: يُنال

والقصيدة طويلة نسبياً إذ تبلغ نحواً من سبعة وثلاثين بيتاً، وهي موجودة في ديوان بهاء الدين الصيادي «مشكاة اليقين ومحجة المتقين».

○○○○○

لغة الطفل مفتاح سر سعادة أبويه

ولغة الطفل التي لم تعد بعد تتجاوز الحروف السهلة المخارج كا«بابا وماما» وغيرها مما لا يتعثر باللثغة التي لا تقومها السنون، ولا يكاد يفهمها إلّا أبواه، هي من إحدى الوسائل التي يحقق بها الطفل مطالبه، لأن رنينها في آذان أبويه يحدث في نفسيهما بهجة وسروراً ينزان بالسخاء له ويستدران كفيهما استدراراً يتثمل في البذل المادي والمعنوي، والحسي العاطفي نحوه.

ولغة الطفل التي تفيض بكل ما تعنيه البراءة من معنى هي من مفاتيح جاذبيته ولهذا فإن أبوي الطفل لا يملّان حديثه الذي ينقصه الكثير من الصياغة والتركيب اللفظي الصحيح كما أسلفت.

قيل: إن رجلاً ارتكب ذنباً فسجنه الوالي فأراد ذلك الرجل شراء سجنه بمبلغ من المال فرفض الوالي وأصر على سجنه عدة سنوات، لكنه بعد ما مضى منها الكثير رأى الوالي أن يقبل منه شراء سجنه فأرسل إليه في ذلك، فرفض الرجل ذلك، فسأله الوالي عن سر رفضه؟. فقال الرجل: أردت أن أشتري سجني يوم كان لي صبي صغير مبتدئ في الكلام يخطئ في تركيب الجملة ويصيب بكل براءة فأشتاق إلى كلامه وأسر به بل أطرب منه أشد الطرب.

أما اليوم فقد كبر ولم يعد في لسانه تتعتع أو لثغة تشنف أذني. ولهذا فإنه سيان عندي أطلق سراحي، أم بقيت في السجن. والحقيقة أن لغة الأطفال تجلب السعادة إلى نفوس آبائهم بل ربما أزالت عنهم الاكتئابات النفسية وشرحت صدورهم، وبعثت فيهم روح الانبساط.



ومهما طال التعبير عما يخالج نفوس الآباء من مشاعر نحو أطفالهم فإنه لا يستقصى ولا يوقف له عند حد ولقد حاول أحد الآباء وهو الشاعر إبراهيم عبد الله مفتاح البوح بشيء من المشاعر التي يكنها لابنه فقال في ذلك أبياتاً منها قوله:

فرح يهمي على هدب الليالي
وضُحى يمتد صحواً وظلال

جاء يجري حاضناً لعبته
أبيض الحلم طفولي الخيال

وارتدت لُثغتُه شيطنةً
وإيماءً «هب لي يا بابا ريال»

راح يعدو مترعاً تشعله
فرحةٌ «يا بائع الحلوى تعالْ»

فاحتوى الشارع في قبضته
واحتواه الصخب في سرب العيال

هذه اللغة التي تبخسها
ثمن النطق اشتعالُ للكمال

فاسقنيها ـ قبل أن تنضجها
سنوات العمر ـ أحلى ما يقال

اسقنيها قبلة ألصقها
فوق خديك حناناً وابتهال

○○○○○

يا رب صل على النبي

والصلاة على النبي ﷺ من الأمور المكلف بها الإنسان المسلم وقد ورد في القرآن الكريم أمر بالصلاة على النبي ﷺ ففي سورة الأحزاب آية ٥٦ جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ۝٥٦﴾.

وقد قال ﷺ: «من صلى عليَّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً» ومن الآية المتقدمة ومن هذا الحديث يتحقق لنا أن الصلاة على النبي عبادة يجزى بها الإنسان جزاء مضاعفاً.

وقد قال ﷺ: «صلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم، أو ما معناه». وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «صلاتكم عليّ مجوزة لدعائكم ومرضاة لربكم، وزكاة لأعمالكم».

وعن زيد بن حارثة أنه قال: قال ﷺ: «صلوا عليَّ ثم قولوا: اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد».

وبالإضافة إلى أن الصلاة على النبي ﷺ عبادة فهي أدب مع رسول الله ﷺ، ولهذا فإن المسلمين يرطبون ألسنتهم عند اختتام أي قول أو فعل بالصلاة على النبي ﷺ. ونلمس هذا في ختم الرسائل والمؤلفات، التي تسبق نقطة النهاية فيها عبارة «وصلى الله على محمد» وكذلك الشأن في كثير من القصائد التي تخصص الأبيات الأخيرة منها للصلاة على النبي ﷺ. أما الشيخ البرعي فقد استهل جميع أبيات قصيدة له بقوله: «يا رب صلي على النبي» من ذلك قوله:

يا رب صل على النبيّ المجتبى
ما غرّدت في الأيك ساجية الربا

يا رب صل على النبيّ وآله
ما اهتزت الأثلات من نفس الصبا

يا رب صل على النبيّ وآله
ما لاح برق في الأباطح أو خبا

يا رب صل على النبيّ وآله
ما أمَّتِ الزّوّار نحوك يثربا

يا رب صل على النبيّ وآله
ما قال ذو كرم لضيف مرحبا

يا رب صل على النبيّ وآله
ما كوكب في الجو قابل كوكبا

يا رب صال على الذي أدنيته
من قاب قوسين الجنان لأقربا

باللّه يا متلذذين بذكره
صلوا عليه كما أحق وأوجبا

○○○○○

ما احتفظ به أهالي سدير مما اندثر
من وصف السحاب والمطر!!

وتدرج على ألسنة أهالي منطقة سدير القابعة في وسط نجد بالجزيرة العربية ألفاظ تتعلق بوصف السحاب والمطر، ويحسبها بعض الناس لغة عامية. بينما هي لغة صحيحة لكنها اندثرت لعدم استخدامها في المحادثات والرسائل والمذكرات، والمكاتبات الوصفية والأدبية.

ومن تلك الألفاظ التي ما زالت دارجة على ألسنة سكان منطقة سدير قولهم في وصف المطر الخفيف الضعيف: مطر دث الأثر، ودثّ لغة صحيحة جمعها كما هو في المعاجم دثاث. ويقولون: «مطر يسح سحيح» وسح المطر لغة صحيحة.

ومن وصفهم للسحاب الممطر قولهم: سحاب مُهَدّب، والمهدب من السحاب هو ما تدلى من السحاب في إعجازه فكان كالهدب له.

ويصفون المطر الخفيف فيقولون: هو طش، ورذاذ، وهي لغة صحيحة ويصفون الضعيف المتوالي فيقولون: هو هتف، وبريم.

ويقولون: إذا أخذ المطر الخفيف في الاستمرار في النزول ساعات أو أيام «ديّمَتْ» والديمة لغة صحيحة وهي مطر يبقى أياماً لا يقلع. ويصفون السحاب بأنه كثير الرباب، والرباب لغة صحيحة مفرده ربابة وهو قطع من الغيم تتعلق بالسحاب الممطر.

ويقولون عندما يرون قطع الغيم متناثرة في السماء: «ظهر جزع في السماء» والجزع هو القزع وهي القطع من السحاب. ويقولون إذا نشأ الغيم وكان متبدداً في السماء ولم يكن مرتصاً في مستوى أفقفي واحد:



«في السما ضروس مزن» وضروس لغة صحيحة يكنى بها بياض المزن.

ويصفون السيل القليل الدفق فيقولون: هو ضحضاح، وهي لغة صحيحة فالضحضاح الماء يجري على الأرض رقيقاً. ويصفون قوة مكوث السيل في الأرض فيقولون: تخثق الأرض بمن يمشي عليها، وهي لغة صحيحة.

ويقولون: امتلاء القري بالسيل،والقري مفرد قريان. وهو المكان الذي ينتهي إليه سيل التلاع والأودية... ويصفون العشب غب السيل فيقولون: عشب مُخَوّص. وهي لغة صحيحة: فقد قيل: كل ما خرج من الأرض من عود ثم قوي فهو خوصة، ومن الأشعار في هذا المعنى قول امرئ القيس:

ديمة هطلاء فيها وطف
طبّق الأرض تحرّى وتدرْ

تخرج الودّ إذا ما أشحذتْ
وتواريه إذا ما تشتكرْ

وترى الضبْ خفيفاً ماهراً
ثانياً برثنةُ ما ينعفرْ

وترى الشجراء في ريقها
كرؤوس قطعت فيها الخمر

ساعة ثم انتحاها وابل
ساقط الأكتاف واه منهمر

راح تمريه الصبا ثم انتحى
فيه شؤبوبُ جنوب منفجر

ثج حتى ضاق عن آذيّه
عَرْض خيم فخفاء فيسر

قد غدا يحملني في أنفه
لا حق إلّا طلين محبوك مُمِرْ

بهذا السبب صنع ابن دريد مقصورته الشهيرة!!

قرأت في كتاب «وصف المطر والسحاب» لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي تحقيقاً لعز الدين التنوخي ذكر فيه أن السبب الذي دعا ابن دريد إلى إنشاء مقصورته الشهيرة هو أن الأميرين الميكاليّين خرجا ذات يوم بسفينتهما من البصرة للنزهة في بحر الخليج العربي فهبّت الريح وسحَّتِ الأمطار فلبثا على ظهر البحر أياماً إلى أن بدت لهما مدينة صحار العمانية. فنزلا إلى مرفئها ودلهما الأهلون على دار الضيافة الدريدية. فرحب بهما ابن دريد كل الترحيب فأكرمهما وهو لا يعرفهما، ولم يُعَرِّفاه بنفسيهما، وكان الوقت شتاء والمطر مستمر فلم يجد حطباً للوقود ليطبخ لهما الطعام لأن الحطب كان بالماء ريان. فكان يأخذ الأثواب من التجار ويغمسها في الزيت ليوقد بها نار القرى. فلما رأه الميكاليان قالا: هذا شيء لا يحتمله إنسان فاستأذنا بالانصراف بإلحاح فأذن لهما وكتبا له عنوان مقرهما وكانا على كور الأهواز، وكان من قدر الله أن ضاقت بابن دريد الحالة وأضاعته الأيام، وكان يأبى أن يتكسب ببلاغته وشعره. لكنه رأى أن يزورها ليستعين بهما على صروف الدهر فرحل وحل على الأمير عبد الله المياكلي. ولبث في ضيافته نحو شهر. ولم ير منه ما كان يرجوه من الإكرام والإحسان. ولكن الميكالي جهز لمنزله بصحار سفينتين شراعيتين. وكتب لأهله، أي لأهل ابن دريد بلسان ابن دريد كتاباً يأمرهم به بأن يفتحوا دار الضيافة كعادتها فامتثل أهله الأمر، وعاد الضيوف إلى قصدها في غيبته ولا علم لابن دريد بذلك.

وضاق صدر ابن دريد واستأذن الأميرين بالرجوع إلى بلاده وفي نفسه أنهما لم يقوما ببعض ما يستحقه ويأمله وأنه سيعود خائباً كمن حل بواد غير ذي زرع.

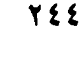
ولما ألح بالاستئذان جهزاه بسفينة مملوءة بما يحتاج إليه. ولم يخبراه بشيء مما فعلا وعهدا إلى ربان السفينة أن لا يخبر ابن دريدر بأن جهاز السفينة له بأسره. ولما أقلعت السفينة سأل ابن دريد ربان السفينة أن ينزله من السفينة إلى البر ليلاً لكيلا يشمت بسوء حاله العدو من أبناء بلده فامتثل الربان أمره وسأله أن يعود إليه غداة غد إلى السفينة. ولما نزل ابن دريد رأى أن لا يذهب إلى منزله ولجأ إلى بيت عجوز فاستضافها. فعجبت العجوز لذلك وقالت له: أتترك بيت ابن دريد وتطلب من مثلي العشاء. فسألها: ومن أين لابن دريد أن يقبل ضيفاً وقد أفقره الضيفان؟ فقالت له العجوز: إن ابن دريد بعد سفره كان يجهز لمنزله في كل شهر سفينة مملوءة بالأرزاق وإن دار ضيافته اليوم أوسع مما كانت عليه بالأمس. وعاد ابن دريد إلى منزله فوجد ما أدهشه وهو فوق ما كان يأمله من الأميرين. وفي الصباح زاره ربان السفينة وأخبره بأن ما في السفينة من أرزاق هو لدار الضيافة. فكافأهما ابن دريد بمقصورته الخالدة التي منها قوله:

إن كنت أبصرت لهم من بعدهم
مثلاً فأغضيت على وخز السفا

حاشا الأمرين اللذين أوفدا
عليّ ظلاً من نعيم قد ضفا

هما اللذان أثبتا لي أملا
قد وقف اليأس به على الشفا

تلافيا العيش الذي رنّقه
صرف الزمان فاستساغ وصفا



وأجريا ماء الحيالي رغداً
فاهتزّ غصني بعد ما كان ذوى

هما اللذان سَمَوَا بناظري
من بعد إغضائي على لذع القذى

هما اللذان عمرا لي جانباً
من الرجاء كان قدماً قد عفا

وقلداني منّة لو قرنت
بشكر أهل الأرض عنّي ما وفى

وقيل: إن الأمير عبد الله الميكالي أعطاه ٣٠٠ دينار ولم تصل يده إذ ذاك إلى أكثر من ذلك.

○ ○ ○ ○ ○

منطق الغراب

خاطب الشيخ عز الدين بن عبد السلام بن أحمد بن غانم (الغراب فقال له):

أيها النادب. لقد كدرت ما كان صافياً، ومرّرت ما كان حلواً شافياً. فمالك لم تزل في البكور ساعياً، وعلى الربوع ناعياً، وإلى البين داعياً، إن رأيت شملاً مجتمعاً أنذرت بشتاته، وإن شاهدت قصراً عالياً بشرت بدروس عرصاته، فأنت لدى الخليط المعاشر أشأم من ناشر، وعند اللبيب الحاذر ألأم من جاذر. فناداني بلسان زجره الفصيح وتشاؤمه بعنوان حاله الصريح. وقال: ويحك أنت لا تفرق بين الحسن والقبيح وقد تساوى لديك العدوّ والنصيح، لا بالكتابة تفهم ولا بالتصريح كأن المواعظ في أذنيك ريح، وكلام الواعظ في سمع هواك كالنبيح. أما تذكر رحيلك من هذا الفيح الفسيح إلى ظلمة القبر وضيق الضريح أما بلغك ما جرى على أبيك آدم، وهو ينادي على نفسه ويصيح. أما تعتبر بنوح نوح، وهو يبكي وينوح على دار ليس بها أحد مستريح. أما رأيت حال إبراهيم الخليل وهو في نار النمرود طريح. أما تقتدي بصبر الذبيح. أما يكفيك ماتم على داود حتى بكر بقلبه القريح. أما تهتدي بزهد المسيح... أي جمع لم يتفرق، أي شمل لم يتمزق، أي صفولم يتكدر، أي حلو لم يتمرر، أي أمل لم يقطعه الأجل، أي تدبير لم يبطله التقدير، أي بشير لم يعقبه نذير، أي يسير ما عاد عسير، أي حال ماحال أي مقيم ما زال، أي حال عن صاحبه ما مال. أين ذوو العمر الطويل، أين ذوو المال الجزيل، أين ذوو الوجه الجميل؟ أما قرضهم الموت جيلاً بعد جيل، أما سوّى في الثرى بين العبد الذليل والمولى

الجليل، أما هتف بالتمتع بدنياه، قل متاع الدنيا قليل، فكيف تلومني على نواحي وتستشئم بصياحي في مسائي وصباحي. ولو علمت أيها اللاحي بما فيه صلاحك وصلاحي لاتشحت بوشاحي ووافقتني في سواد جناحي، وأجبتني بالنواحي من سائر النواحي لكن ألهاك لهوك، وحجبك عجبك وزهوك، وها أنا أعرّف النازل بخراب المنازل، وأحذر الآكل غصة المآكل، وأبشر الراحل بقرب المراحل، وصديقك من صدقك لا من صدقك، ومن عذلك لا منِ عذرك ومن بصرك لا من نصرك، ومن وعظك فقد أيقظك ومن أنذرك فقد حذرك. ولقد أنذرتك بسوادي وحذرتك بتردادي، وأسمعتك ندداي في النادي، ولكن لا حياة لمن تنادي، شعراً:

أنوح على ذهاب العمر منّي
وحقي أن أنوح وأن أنادي

وأندب كلما عاينت ركباً
حدا بهم لوشك البين حادي

يعنفني الجهول إذا رآني
وقد ألبست أثواب الحدادي

فقلت له اتعظ بلسان حالي
فإني قد نصحتك باجتهادي

وها أنا كالخطيب وليس بدعاً
على الخطباء أثواب السّوادي

ألم ترني إذا عاينت ربعاً
أنادي بالنوى في كل وادي

أنوح على الطلول فلم يجبني
بساحتها سوى خرس الجمادي

وأكثر في نواحيها نواحي
من البين المفتت للفؤادي

كيف تكوّنت الأسر الفرعونية؟
وبماذا كانت تسمى مصر قديماً؟

والذي يبحث في مسمّيات البلدان والمدن يجد أسباباً تكون مقنعة في الغالب. لكنه كثيراً ما يحدث تغيير أو حذف أو إضافة إلى الاسم، وذلك نتيجة لعوامل كثيرة أهمها دخول لهجات على سكانها الأصليين أو دمج أو تطوير في الاسم عن رغبة في تحويل معناه أو تحويره ليوافق طبيعة تكوين البلد وموقعه الجغرافي أو ما إلى ذلك مما يستجد عليه من حياة سياسية فيحصل طمس لمعالمه من باب التشفي والحقد فيشمل ذلك طمس اسمه وتغييره.

وإذا ما أردت سياق مثل لتلك التغييرات التي تطرأ على بعض البلدان. فإن بين يدي الجزء الأول من كتيب صغير الحجم ألفه: محبّ الدين الخطيب وسماه «الحديقة» في طبعته الثانية سنة ١٣٥٠هـ. وفيه نقل عن المستشرق الإيطالي الدكتور أباتا باشا الذي كان رئيساً للجمعية الجغرافية المصرية: جاء فيه قوله: كل شيء له علاقة بالعصور التي سبقت التاريخ المعروف لنا فهو قائم على الفروض، فلا بدّ لنا إذن من الاكتفاء بإلقاء نظرة سريعة على الأمم الأولى التي كانت في مصر. فمن هذه العصور الخالية إلى عائلة منس يجب علينا أن نعتبر سكان مصر الأول أنهم الأبناء الأصليون لهذا البلد في العصور الأولى. جاء جماعة من أهل البادية المقيمين على ضفاف البحر الأحمر واجتازوا الصحراء (صحراء العرب الآن) بينما اخترق صحراء ليبيا جماعة من بدو الشمال وأقاموا في البلاد الواقعة تحت الشلال الأول حيث كان طمي النيل قد كون الدلتا إلى البحر الأبيض المتوسط.

وبينما الساميون الذين جاؤوا من آسيا والليبيون الذين جاؤوا من شمال أفريقيا يجتمعون جماعات وفرقاً كالأثيوبيين الذين جاؤوا من الجنوب قد نزلوا إلى بلاد النوبة وأدخلوا فيها العنصر الأسود الذي لا يزال قائماً بها إلى الآن. من هذه الاجتماعات الأولى تكونت الأسر الفرعونية الأولى.

ولما انتشر طمي النيل في وادية أخصبت طبقات الأرض. هذا الطمي القائم المسمى «كم» ومن ذلك سمي السكان الأولون للبلدة «تو ـ كم» وقد بقي هذا الاسم علماً على البلد زمناً طويلاً وفي ذلك الحين رأى الفراعنة أن من الضروري لهم جداً أن يتخذوا إقليم «كوبتوس» مبدءاً لغزواتهم لإقليم سينا الجبلية وأن يجلبوا منها المافك «النحاس» ثم دعتهم الحاجة الماسة إلى جلب الذخيرة إلى فروع النيل الأيمن. ولما كانت صحراء العرب هي أقرب الطرق إلى البحر الأحمر فقد أصبحت أسهل وأعمر النقط التي يرحل إليها سكان الجزء الأعلى الأقدمون. وبذلك صارت مدينة «كوبتوس» مورداً للتجارة ومركزاً للمواصلات بين القصير والبحر الأحمر والصومال، وقد لاحظ ذلك المقدونيون عند غزوهم مصر فغيروا اسم «كمي» باسم «أجبت» الذي نسخوه من اسم مدينة «كوبتوس» التي كانت ترحل منها القوافل لأنها كانت مركزاً للتجارة نكوبت أو كيبت «قفط» كانت عاصمة إقليم كان يحرسه إله اسمه «خيم» وأصلها مشتق من اسم البلد القديم «كم» الذي يؤيده اللون الأسود. واليونانيون أضافوا لهذه الكلمة حسب عاداتهم حرفاً يضعونه أول الكلمات «أبثيلون» وبذلك كونوا كلمة «أجبت» مصر العليا التي دُعيَتْ بهذا الاسم الجديد كان يرمز له بورقة من نهر اللونس بينما كان الوجه البحتري يرمز له بورقة البردى لأنه كان يوجد بكثرة زائدة في مستنقعاتها. يقول الشاعر المصري أحمد شوقي مناجياً أبا الهول أحد معالم الحضارة القديمة في مصر:

أبـا الـهـول طـال عـلـيـك الـعـصـر

وبـلـغـت في الأرض أقـصـى الـعـمـر



فيا لِدَة الدهر لا الدهر شب
ب ولا أنت جاوزت حد الصغر

إلام ركوبك متن الرما
ل لطي الأصيل وجوب السحر

ومنها قوله:

أبا الهول أنت نديم الزما
ن نجي الأوان سمير العصر

بسطت ذراعيك من آدم
ووليت وجهك شطر الزمر

تطل على عالم تستهل
لا وتوفى على عالم يحتضر

فعين إلى من بدا للوجو
د وأخرى مشيعة من عبر

فحدث فقد يهتدي بالحديـ
ـث وخبر فقد يؤتسى بالخبر

○○○○○

أين...؟!

وأهل الأدب المعاصرون قد أهلموا أبا أميمة (إسماعيل صبري) عند ذكرهم أصحاب الهمزيات. كيف لا ونحن لم نقرأ إلى جانب ما كتبوه عن همزية معاصره أحمد شوقي. ولا أجد لإغفاله إلّا لأنه لم يحظ بما حظي به شوقي من شهرة ليس إلّا. وأنا لا أخال أبا أميمة إسماعيل صبري الذي عاش ما بين عام ١٨٨٦م وعام ١٩٥٣م إلّا عاتباً على النقاد الذين كثيراً ما يقفون عند همزية أحمد شوقي ويتركون همزيته التي تبلغ نحواً من ستمائة بيت ولا تقل في معناها، وقوتها وأسلوبها وموضوعها واتساع أفقها عن همزية شوقي. بل إن مقاطع هي أشد تأثيراً وأقوى عبارة وأحسن سبكاً من بعض مقاطع همزية شوقي.

والحقيقة أنني أستغرب عدم الإشارة إلى همزية إسماعيل صبري وإغفالها إغفالاً يوحي بميل بعض أصحاب الأقلام مع أصحاب الشهرة كما أسلفت. وهو ميل يهضمون به حقاً مستحقاً لشخص لم يسعفه الحظ ويفتح أمامه نافذة يكسب من الإطلالة منها شهرة عالمية.

ولو ألقينا نظرة عابرة على همزية إسماعيل صبري لوجدناه قد أخذ بها طريقاً أفضل من طرق أصحاب الهمزيات الذين تقدموه فهو بدأ بناءها بالوعظ والتذكير بدنو الساعة وذكر البعث والجنة والنار وزوال الدنيا ومن عليها.

ثم أخذ في سرد بعض قصص الأنبياء كقصة يعقوب، وأيوب وشعيب ونوح وإبراهيم وموسى وداود وسليمان ويونس وزكريا وعيسى عليهم السلام ليقرر البداية في امتداح سيد المرسلين محمد ﷺ.

وفي أحد مقاطع تلك الهمزية صدّر عدداً كبيراً متوالياً من أبياتها بـ«أين» وذلك مثل قوله:

أين من عمروا وشادوا وسادوا
أين عمرانهم وأين البناء

أين من زينوا العروش جمالاً
أين تيجانهم وأين البهاء

أين من عز ملكهم وتسامى
أين سلطانهم وأين العلاء

أين من كافحوا المصاعب حتى
ذللوها وأين ذاك الدهاء

أين من دمروا الحصون بيأس
من حديد وأين تلك الدماء

أين من سابقوا الرياح بخيل
صافنات تهابها الهيجاء

أين من جالدوا الزمان بصبر
أين من صاولتهم النكباء

أين من شيّدوا الهياكل حُبّا
واحتراماً لها فعزّ البناء

وتبلغ الأبيات التي تصدرتها «أين» ستة عشر بيتاً متوالية.

○○○○○

الندم على استبساط تجاوز البسيط من الذنوب!!

والذين يخافون العذاب، تجدهم في حساب دائم مع أنفسهم، وتساؤل مستمر، وندامة دائمة من التغافل عن فعل الخير. بل هم في بحث متواصل عن علاج لتقصيرهم مع ربهم. ومما ذكر من صور الندامة على التساهل في استبساط، تجاوز البسيط من الذنوب ما روي عن عيسى عليه السلام، أنه مر بمقبرة فنادى رجلاً من الأموات، أحياه الله تعالى له فقال له عيسى عليه السلام: ما كنت تفعل في دار الدنيا؟ فقال: كنت حمالاً أحمل للناس على رأسي بالأجرة وأتقوت من ذلك أنا وعيالي، فحملت ذات يوم لإنسان حطباً فكسرت منه خلالاً فتخللت به، فلما مت أوقفني الله تعالى بين يديه وقال لي: يا عبدي أما علمت أني موقفك بين يدي؟. فلاناً اشترى حطباً بماله وأعطاك الأجرة على حمله فأخذت منه شظية لا تملكها. استهزأت بأمري، ثم قال الرجل: يا روح الله سألتك بالله إلا ما شفعت لي عند الله فإني في الحساب من ذلك أربعين سنة. وقال الحسن رضي الله عنه: إن الرجل يتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول: والله ما أعرفك. فيقول: بل أنت أخذت طينة من حائطي، والآخر يقول: بل أنت أخذت خيطاً من ثوبي. فهذا وأمثاله يقطع قلوب الخائفين.

وحكي أن حسان بن سفيان رضي الله عنه، كان لا ينام الليل، ولا يأكل اللحم، ولا يشرب الماء البارد، فلما مات رؤي في المنام، فقيل: ما فعل الله بك؟ فقال: أنا محبوس عن الجنة بإبرة استعرتها ولم أردها لصاحبها.

وقيل: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود قل لبني

إسرائيل: من ظلم امرأة أو صبية أو من لا يعقل بحبة من الميزان كويته بمقدارها في النار. وعزتي وجلالي لأوقفن الخصمين موضع الخصوم، ولأحضرنهم يوم القيامة ولأسألنهم عن الفتيل والنقير والقطمير. والأبكم من عمي عن حجته ما فرطت في كتابي ولا فرطت في رسلي. ولقد أتت بما أوحي إليها وأنا الشاهد وكفى بي أعظم الشاهدين.

ومن الشعر المتعلق بهذا الموضوع، هذه الأبيات التي استشهد بها صاحب كتاب «الجواهر في عقوبة أهل الكبائر»:

ذنوبي كبار ما أطيق لها حملاً
ولا علم لي إن كان يغفرها أم لا

وأملي على الحفاظ، كل عظيمة
فيا ويح مثلي من قبائح ما يملى

وزادي قليل ليس لي بمبلغ
وشرخ شبابي في البطالة قد ولى

ونفسي إلى ما ضرها كرّ مَيْلُها
وكان بها التقوى وترك الهوى أولا

أعاتبها سراً وجهراً لترعوي
فتقسم أن لا تطاوعني أصلا

فما لي لا أبكي على سوء حالتي
ولست أرى لي في مخالفتي مثلا

فيا نفس جدي فالمنية قد دنت
وعما قليل يصبح الجسم مسجلا

فمن فاته خير الحياة فمن له
بأعماله الحسنى إذا جسمه يبلا

القلــم

لقد كتبتُ عن القلم موضوعات عديدة ومتفرقة في أجزاء من هذا الكتاب. وقد ذكرت الشيء الكثير من منافعه، وها أنذا أعود للكتابة عنه فأقول: إن الكتابة عن القلم لا تصل إلى نقطة نهاية حقيقية. لأن الكلام عنه يتجدد بتجدد ما يكتبه من طروحات وآراء سياسية وأدبية سواء كانت بأسلوب نثري أو شعري يحمل الكاتب على الاستمرار في الإشادة بفضله، وعمق علاقته بالإنسان وقوة ارتباطه بالعالم والعلم والثقافة والمثقف والأدب والأديب والشعر والشاعر.

ولقد أوجدت هذه العلاقة لدى الإنسان شيئاً من الالتحام والصداقة التي تبلغ في كثير من الأحيان مناجاته ومساءلته، والانفراد به من أجل بث الشكوى، واستنطاقه لحل المشكلات والأزمات التي تحل بصاحبه فلا يجد من يأمن به ليبث شؤونه وشجونه سواه.

والحقيقة أنني لو أردت تسجيل ما مررت به من أقوال عن الاستنصار بالقلم. والتقاول الذي يحصل بينه وبين صاحبه لطال المقام في البحث.

ولكنني في هذه المرة لم أر بداً من الوقوف على أبيات من قصيدة للشاعر فؤاد حسن الخطيب عنوانها «القلم المهجور» وتبلغ نحواًمن ثمانية وعشرين بيتاً. وقد ضمنها ديوانه «ديوان الخطيب» وقد رثى قلمه وأنحى عليه باللائمة حيث لم يقف وقفة الجبار في وجه أعداء الأمة الإسلامية (وهذا تواضع منه فهو قد وظف قلمه وجند نفسه في نصرة الكلمة العربية) يقول مخاطباً قلمه ومستنجداً به على عدوه الذي

يقف منه موقف الباطش المتمرد الذي يحاسبه على كل كلمة تنبس بها شفتاه:

فيا قلمي هذا العدو فإنه
تَشَمّرَ والتفت عليه كتائبه
مُسدَّدةٌ نحو القلوب سهامه
مُجرّدةَ فوق الرقاب قواضبه

ثم يعلن تقصيره في حق قلمه وينحي باللائمة على نفسه ليبرئ قلمه من التقصير:

فويحك حمل المجرمين ذنوبهم
وقد نصب الميزان للخلق ناصبه
وكنت إذا استمليتُ وحْيَك بادرتْ
إليّ من السحر الحلال غرائبه
فو اللّه ما الثّكلى يساق وحيدها
إلى ظلمات القبر وهي تراقبه
بأوجع مِنّي يوم ألقيتُ من يدي
يراعي وضاقت بالقريض مذاهبه
فيا قلماً بلّ الغليل تدفقا
فكان كعفو اللّه غُزْرٌ سحائبه

○○○○○

هل هذا قرم الجزيري إلى اللحم... أم هي صورة المباهاة بالخدم؟!

والشاعر حسين الجزيري يعد من الشعراء الذين امتازوا في عصره بخفة الروح المتمثلة في الدعابة الشعرية التي تتضمن معنى يعالج بعض الحالات الاجتماعية الذميمة. ولهذا فإنه يكاد يكون طابع شعر الجزيري كله متسماً بالدعابة والقول في الأكل ووصف المأكولات التي يحرم منها الفقراء والمساكين.

وتستوقفني قصيدة من قصائده التي خصصها للمأكولات بأسلوب ضاحك ومضحك. إلّا أنه وكما يقولون: السهل الممتنع، وعنوان هذه القصيدة «صرت حائراً» وفيها خاطب (ليلى) التي كانت تعد له صنوف الطعام كما يقول. وتبذل في إعداده جهداً مضنياً رغم أن مرتبها الشهري لم يدفع لها:

ألا زعمت ليلى بأني قتلتها
بطبخ ولم أدفع مرتبها الشهري

بلى: والذي أفنى الطعام فلوسه
فكيف يفي، والمال قد ذاب في القدر

ويظهر حيرته فيما سيشتريه وما يشتهيه من اللحوم سواء منها لحوم الضان أو السمك. لكن الأمر يتوقف تحقيقه على المادة التي يشكو من قلتها في يده ويعاني من عدم وجودها:

بلى: إنني في اللحم قد صرت حائراً
سواء لحوم الضان أو سمك البحر

لقد طبخت ليلى صنوفاً كثيرة
فحيّرني مصروف ذلك في أمري

ويبدي رغبته في أن تصنع له ليلى «زريقة» لأن اللحم أصبح شراؤه متعذراً للأسباب التي تقدم ذكرها وهي قلة ما في يده، ولهذا فإنه وكما يقول سيصبر عن اللحم إلى أن يأتي العيد الكبير وهو عيد الأضحى حيث تذبح الأضاحي ويكثر اللحم:

ويا حبذا لو تصنعين «زريقة»
حكوا أنها تبقى تسبح في الصدر

سأصبر للعيد الكبير فأشتفي
بلحمه أيام الذبيحة والنحر

ويستميح طباخته ليلى العذر إن هي خدمته بلا أجر لأن وضعه المالي لم يمكنه من دفع أجرها، ولا يستبعد منها ذلك لأنها رأت بأم عينها كيف أنه استبدل لحم الضان والسمك وغيره مما لذ وطاب با«البوزة»:

ومثلك يا ليلى خبير بلوعتي
فصبراً وعذراً إن خدمت بلا أجر

ويخفق مني القلب إن قيل «بوزة»
كما انتفض المذعور من مدفع الفطر

ولا أظن أن الجزيري قد عايش هذه الحالة. وإنما أراد بها الإشارة إلى أولئك الذين يكلفون أنفسهم في سبيل المباهاة بما يعود عليهم بالضر المادي والنفسي. وتكاد الصورة تنطبق على بعض مجتمعنا الذين يتبارون في استقدام الخدم والسائقين دونما داع أو موجب لذلك.

تحاور بين الشمع والفراش

جاء في كتاب «كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار» لعز الدين بن عبد السلام بن أحمد بن غانم أنه قد جرى تحاور وشكوى تباريح بين الفراش والشمع بما نصه: استغاث الفراش وهو ملقى على الفراش يتلهب في تلاشيه ويتقلب في تغاشيه. وقال: يا لله العجب. أبذل نفسي في هواك ولا أعدل إلى سواك، وتسومني سوم أعداك، ليت شعري من بفتكي أفتاك، ومن بقتلي أغراك. أين لك مثلي عاشق صادق أو صديق موافق. صبرت على إحراقك وقدمت على الموت دون عشاقك. فهل رأيت حبيباً يعذبه حبيبه، أو عليلاً يسقمه طبيبه أحبك فتعذبني، وأقرب منك فتحرقني وتمزقني، يشتد شوقي إليك ما هجم بالإذلال عليك، أطلب منك الوصول، فتصول عليّ وتحرق جلبابي، فما أصاب أحداً من العشاق مصابي، ولا عذب أحد منهم بعذابي. ولست إلى غيرك صابى وكان يكفيني ما بي. لو سلمت توبيخي وعتابي.

فرد الشمع قائلاً: أيها العاشق الصادق. لا تعجل فإني لك موافق، أنا مصاب بمصابك معذب كعذابك. فاسمع قصة من أعجب القصص، وارحم غُصَّةً من أوجع الغصص. ليس العجب من محب يحترق، وإنما العجب من حبيب يحرق، هذه النار تحبني، وهي بأنفاسها تحرقني، وتذيبني وتطلب قُربي. وهي تذيب قلبي، تدعي هواي، وتستدعي لقاي، فإذا نزلت بفنائي فلا بقاء لها إلا بفنائي. وهذا لعمري من أعجب الأشياء إن حبيباً يفنىٰ ومحباً يبقى، وعاشقاً يسعد ومعشوقاً يشقى، فنادت النار: أيها المعذب بإحراقي، الداهش في أنوار إشراقي، إن كان دخان احتراقي إليّ راقى فها أنا نازل في السجن إليك

راقي، فتشكو ما تلاقي، تفوز بساعة التلاقي فيا فوز من شرب وأنا الساقي. ويا سعادة من فنا فيّ وأنا الباقي شعراً:

ولقد أقول لشمعة نادمتها
وسدول جنح الليل ذات جموح
أنا من يحنُّ إلي الأحبة قلبه
وإلى البكاء بدمعه المسفوح
قالت عجلت إلي فيما قلته
اسمع بيان حديثي المشروح
إن كان أعجلك الزمان بخطبه
فلقد فقدت أنا شقيقه روحي
أفردت عن خل شهي طعمه
حلو اللما عذب المذاق صريح
ها أنت تندب من حكاه بريقه
أوطعمه وأراك في التبريح
وأنا له ها قد فقدت بعينه
أو ليس بخل مدامعي بقبيح
بالنار فرّقت الحوادث بيننا
وبها نذرت أعود أحرق روحي

○○○○○

ومن!!

لقد كنت أحرص على اقتطاف الأبيات التي أجد صدورها مبدوءة بكلمة أو حرف معين وتكون متوالية لا يفصل بينها بيت يكون صدره خال من الكلمة أو الحرف المعين الذي عشق الشاعر الاتكاء عليه. وبتعبير أوضح كأن يختار الشاعر مثلاً حلاف «من» فيصدر به عدداً متوالياً من الأبيات في القصيدة التي يصنعها.

ولقد التقطت ما أمكنني القتاطه مما كان يبلغ عدد أبياته ثمانية أبيات ذا مطلع لفظي وحرفي واحد.

وقد ضمنت الجزء الثالث من هذا الكتاب العديد من ذلك. وها أنذا أطرح عدداً لا بأس به من الموضوعات التي اتّفقتْ شواهدها الشعرية مع المنهج الذي أشرت إليه آنفاً.

وفي هذا الموضوع أقف عند قصيدة للشاعر محمد بن محمد بن عطية الإسكندري الذي ترجم له نجم الدين الغزي في كتابه «الكواكب السائرة بمناقب المئة العاشرة». وقال عنه: إنه ولد سنة ٨١٠هـ، بالإسكندرية وتوفي سنة ٩٠٦هـ.

والأبيات التي اتكأ في مطلعها الاسكندري على «ومن» في تلك القصيدة هي:

ومن مشى في طريق كان متهماً
ما زال متهماً بالعيب والريب

ومن أسرّ لشيء كان يفعله
فسوف في وجهه يبدو لمرتقب



ومن يماش فتى بالقبح متصفاً
فسوف يرمى به في الحكم والسبب
ومن له طمع يزداد فيه فلم
يملّ من كثرة الإلحاح في الطلب
ومن له سوء خلق وابتليت به
ففي مداراته ما زلت في تعب
ومن يملْ عن طريق الحق منحرفاً
كالكلب ما زال يلفى أعوج الذنب
ومن له حسن وجه لا حياء به
فذاك برق بلا غيث ولا سحب
ومن له يا فتى علم بلا عمل
فذاك نخل بلا طلع ولا رطب

ولقد كان بودي الاستطراد في ذكر مثل هذه الحكم القيمة. ولكن شرط التأليف يمنعني من تجاوز ثمانية أبيات كشاهد لأي موضوع في هذا الكتاب.

○ ○ ○ ○ ○

نبت الخزامي وأريجه

والخزامي نبت موسمي بري ينبت في فصل الربيع وزهره بنفسجي اللون له رائحة زكية يضرب بها بعض الشعراء المثل في طيب الرائحة. وهو يكثر في نجد في الجزيرة العربية وقد تردد ذكره في أشعار العرب.

وعلى لسان الخزامي قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام بن أحمد بن غانم في كتابه «كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار» نثراً وشعراً.

فمن النثر قوله: إن الخزامي قال: أوافق الوحش في القفار، وأسكن البراري والقفار، أحب الخلوات، وأستوطن الفلوات فلا أزاحم في المحافل، ولا أتحمل منه الذراع والكافل، ولا تقطعني أيد الأسافل، ولا أحمل إلى الملاعب والمهازل، لكنني بعيد عن المنازل، تجدني في أرض نجد نازل رضيت بالبر الفسيح وقنعت بمجاورة الغزال والشيح، تعبق بنشر الريح، فتحملني إلى ذوي التقديس والتسبيح. لا ينشقني إلّا من له ذوق صحيح، وشوق صريح وهو على زهد المسيح، وصبر الذبيح فأنا رفيق السّواح، في الغدو والرواح، فأفوز بالأجور، وأسلم من حضور أهل الفجور، فلا أحضر على منكر، ولا أجلس عند من يشرب ويسكر. فأنا الحر الذي لا يباع في الأسواق، ولا ينادى عليَّ بالنفاق في سوق النفاق، ولا تحضرني الفساق، ولا ينظرني إلا من شمّر عن ساق، وركب جواد العزيمة والساق، فلو رأيتني في البوادي، والنسيم يهيم بي في كل وادي، أعطر البادي بعطر البادي، وأروح النادي، بنشر النادي إن عرض بذكري الحادي، حنّ إليه كل رائح وغادي، ومن الشعر أقتطف هذه الأبيات:

يحدثني النسيم عن الخزامي
ويقرئني عن الشيح السلاما

فهمت بما فهمت وطبت وجداً
فما أحلاه لي لو كان داما

ويسري تحت جنح الليل سرّاً
فيوقظني وقد هجع الندامى

وأسكرني شذاها حين هبت
كأني قد ترشفت المداما

يعارضني بأنفاس مراض
كأنفاسي وقد ملئتْ غراما

وقد عُرفت بطيب العرف لما
كساها اللطف أخلاقاً كراما

أهيم بنشرها طرباً ووجداً
فيبدي البرق عن طربي ابتساما

تمرّ على الرياض بأرض نجد
فتنعطف الغصونُ لها احتشاما

○ ○ ○ ○ ○

الأثرياء فئتان!!

وإذا ما ألقينا نظرة على الأثرياء من زاوية اجتماعية ذات صلة بما أهلتهم إليه المادة التي توفرت في أيديهم، وجعلت منهم رموزاً اجتماعية يشار إليها بالبنان.

وجدنا تفاوتاً كبيراً قائماً بينهم من حيث مستوى تأثير المادة على أفكارهم وعقولهم، وأساليب حياتهم بما فيها لغة مخاطبتهم للآخرين، وتعاملهم مع من هم أقل منهم مستوى في المادة. وهذا التفاوت الذي يدركه أي باحث في سلوكيات الأثرياء، ويلمسه أي دارس لواقع حالهم. يظهر جلياً في نظراتهم إلى الفقراء والمحتاجين. وفي مستوى تواضعهم للمساكين الذين يستجدونهم، ويلتمسون منهم العون والمساعدة، فمن الأثرياء من لا تميزه إذا كان في مجتمع الفقراء من حيث التواضع الذي يظهر في اندماجه بين صفوفهم.

والدارس لحالة فئات الأغنياء التي تقيم فارقاً بينها وبين فئات الفقراء التي هي في أمس الحاجة إلى من يواسيها ويعطف عليها يجد أنها وأعني بذلك فئات الأثرياء تتمتع بنفوس مطمئنة، وبأساليب مرضية، وبسلوك تحسد عليه، ومن الأثرياء من يجعل من ثرائه برجاً عاجياً لا يصل إليه مسكين، ولا ذو حاجة، بل إنه ليجعل من الكبرياء الذي تسرب إلى نفسه من وفرة المادة مركباً يُغيظ به الفقراء ومنبراً يعلوه ليحتقر من فوقه البؤساء. وهذه الفئة قد نسيت أن من الناس من يمسي غنياً ويصبح فقيراً، وأن منهم من يصبح فقيراً ويمسي غنياً بحكمة الله وقدرته. وراحت تمعن في التهكم والسخرية والازدراء بالفقراء وما هم عليه من حالة وبؤس.

ومما قيل من الشعر في معالجة هذا الموضوع قول رشيد مصوبع. وهو شاعر نصراني عاش في زمن السلطان العثماني عبد الحميد من قصيدة له عنوانها «قصيدة عصرية»:

يا قوم للدينار وجه يعشق
لا تعجبوا ممن به متعلق

عشق المحاسن للكرام وعشقه
لذوي الخساسة والهوى متفرق

هلا تعلمت الضنانة بعدما
ألفيت أن الجود باب مغلق

ترنو إلى مسكين أرباب الغنى
وتقول مسكين ولا تتصدق

وأشد أن لا تستهل بنانهم
ويهل منهم بالتهكم منطق

جربتُ أخلاق الورى حتى إذا
كذب الخبير بها فإني أصدق

لا تعجبن من أن تلاقي مثرياً
ويمينه بالعرف لا تتدفق

من أين جاء ثراؤه؟ أفليس من
بخلٍ وصرّ يد على ما يرزق

○○○○○

القلم

القلم له شأن عظيم خاصة لدى من يحمله ويتعامل معه لأنه هو اللسان الناطق إذا ما فرض الحضر على اللسان وحوصر بين الشفاه وهو يقوم مقام صاحبه إذا بعد المكان.

والقلم عرف باسمه وفعله منذ الأزل. وهو أول ما خلق الله. فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما خلق الله القلم فقال له: أجر. فقال: بم أجري؟ فقال له: بما هو كائن إلى يوم القيامة» رواه الطبراني في كتابه «الأوائل».

وأخرج الخطيب البغدادي بسنده عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ قال: «أول ما خلق الله القلم ثم الدواة، وهو قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ ...﴾ النون الدواة، ثم قال للقلم: خط ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة من جنة ونار. وخلق العقل فاستنطقه فأجابه ثم قال له: اذهب فذهب، ثم قال له: أقبل فأقبل، ثم استنطقه فأجابه ثم قال له: اذهب فذهب. ثم قال له: أقبل فأقبل. ثم استنطقه فأجابه. ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت من شيء أحب إليّ منك، ولا أحسن منك، ولأجعلنك فيمن أحببت، ولأنقصنك ممن أبغضت فقال النبي ﷺ: أكمل الناس عقلاً أطوعهم لله وأعملهم بطاعته، وأنقص الناس عقلاً أطوعهم للشيطان وأعملهم بطاعته».

قال أبو محمد الحسن بن محمد المهلبي: أهدى أبو الحسين بن أبي البغل الكاتب إلى علي بن عيسى في أيام وزارته أقلاماً، وكتب معها أبياتاً منها قوله:



عبدك أهدى إليك أقلاماً
زنجية اللون ناسبت جاما

ومنها قوله:

زارتك شوقاً إلى بنانك كي
تُحْدِثَ نقضاً لها وإبراما

فتخدم الملك حين تخدمها
وُسْطَى وسبابةً وإبهاما

معدة للخطوب إن دهمت
تبري فتبرى الأكف والهاما

إذا تناولت للعدى قلماً
منها بذذتَ الليوث إقداما

تبصره العينُ مفصحاً وتعيه الـ
أذن عند الكلام نمناما

كأنه مبدياً عجائبه
ليل يُرىٰ النائمين أحلاما

كأن في صدره لمُعْمِلِهِ
رمحاً وفي الردف منه صمصاما

○○○○○

ماذا أعد الله لعباده الصالحين

والله سبحانه وتعالى يبشر عباده الصالحين بما أعده لهم في الآخرة.

قال تعالى في سورة البقرة آية ٢٥: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٥)﴾.

وقال تعالى في سورة الواقعة من الآية ١٠ ـ ٣٤: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (١١) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا (٢٦) وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ (٢٧) فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤)﴾.

وقال تعالى في سورة الغاشية آية ٨ ـ ١٦: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)﴾.

وقال تعالى في سورة النبأ آية ٣١ ـ ٣٦: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١)

حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ﴿٣٣﴾ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴿٣٥﴾ جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ﴿٣٦﴾﴾.

وفي الحديث القدسي الذي رواه أبو هريرة وأخرجه مسلم. وصف الله سبحانه وتعالى الجنة وصفاً فوق ما يتصوره الإنسان.

قال ﷺ: قال الله تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة».

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها، فقال له أعرابي: لمن هي يا رسول الله؟ فقال: هي لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام».

ووصف الشاعر إسماعيل صبري نعيم الجنة في أحد مقاطع همزيته التي تبلغ نحواً من ستمائة بيتٍ. منها قوله:

صدق الوعد فادخلوا بسلام
دار خلد يطيب فيها البقاء

إن فيها ما تشتهي كل نفس
قدر الله إن لها ما تشاء

حور عين كأنهن اللآلئ
كاعبات قدودهنّ الضياء

إن للجنة البهيجة وصفا
فوق ما قد تخيل الشعراء

ظلها دائم فلا ليل فيها
عاطرت رياضها الفيحاء

فـوق أغـصـانـهـا الـعـنـادل تـشـدو
وعـلـيـهـا تـرفـرف الـورقـاء

وتـفـيـض الأنـهـار شـهـداً مـصـفـى
حـيـث تـجـري مـن تـحـتـهـا رغـداء

ثـم تـجـري أخـرى بـدرّ شـهـي
لـم تُـغـيـرً مـن طـعـمـه الأجـواء

O O O O O

أبا الفضل

وإذا أتقنت الأساليب الخاصة باستنهاض الهمم واستصراخ الرجال الذين لا يتوانون عن نجدة المستنصر بهم، وضمنت في عبارات مؤثرة وكلمات تهزّ الأفئدة فإنها وبلا شك تحرك الضمائر، وتدفع بقوة تأثيرها كل من توجه إليه إلى حمل سلاحه للدفاع عن ذلك المستصرخ الذي عرف كيف يثير في سامعه نزعة النخوة، وفورة الحمية.

وإذا كان طلب النجدة والاستنهاض قد صيغ في أهازيج شعرية رنانة فإن وقعها في أذن السامع يكون بالغاً ومؤثراً خاصة إذا كانت من إنشاء شاعر يعرف كيف يضرب على الوتر الحساس: كما يقولون.

ونحن نقرأ الكثير من القصائد الحماسية فنجد أن شعراءها قد اختاروا لصناعتها نوعاً متميزاً من العبارات الصارخة التي امتزجت فيها المبالغة بالبلاغة فحركت كل ساكن فيمن وجهت له، والاستصراخ الذي يلتهب حرارة تذيب كل جامد ربما حققه تكرار عبارات معينة مثل الكنية التي يكنى بها الشخص المستنصر (بفتح الراء).

ومن تلك الصور التي تثير الحماس فيمن توجه إليه ما جاء في استنهاض إبراهيم بن قيس الحضرمي لأبي الفضل عباس بن معن بن حوشب حينما كرر كنيته «أبا الفضل» في صدور أبيات متوالية من قصيدة طويلة جاءت في ديوان ابن قيس الحضرمي «السيف النقاد» منها قوله:

أبا الفضل إني لم أقم لرياسة

وملك ولا والله شأن التفاخر

أبا الفضل إن الفضل أفضله الذي
يكون لوجه اللّه فانصر ووازر
أبا الفضل مات الدين وانطمس الهدى
وصارت بيوت اللّه مأوى المزامر
أبا الفضل شهر الصوم أضحى نهاره
لشرب خمور واعتناق شواطر
أبا الفضل أركان الحجيج تعطلت
وعطل ذكر اللّه عند المشاعر
أبا الفضل رايات الأخائر نكست
وأضحت سلاطين الوغى في المقابر
أبا الفضل من تروى من النوم عينه
وقد أحدث الغاوون سبي الحرائر
أبا الفضل أبرزن العذارى حواسراً
وغودرن في الأسواق مع كل تاجر

والقصيدة كما ذكرت طويلة إذ تبلغ خمسة وأربعين بيتاً.

○○○○○

عمر بن أبي ربيعة يعطف على فقير عاشق

وإذا كان الفقير عاشقاً، فماذا يفعل؟ الفقر يحول بينه وبين الزواج من معشوقته، وعدم امتلاك الدابة يمنعه من قطع المسافة التي تفصل بينه وبين من كان يعشقها.

والناس الأغنياء الذين لا يعرفون مدى تأثير العشق على النفس لا يلتفتون إليه. بل ربما هزؤوا به وسخروا منه. ولهذا فإنه ما عليه إلا أن يبقى يكابد عشقه إلى أن يقيض الله له غنياً قد عرف العشق وذاق طعم معاناته، فيساعده عن قناعة.

روى الأصفهاني عن إسحاق أن عمر بن أبي ربيعة نظر إلى رجل يكلم امرأة في الطواف فعاب عليه ذلك وأنكره. فقال له: إنها ابنة عمي. قال عمر: ذاك أشنع لأمرك. فقال: إني خطبتها إلى عمي فأبى علي إلّا بصداق أربعمائة دينار، وأنا غير مطيق ذلك وشكى إليه من حبها وكلفه بها، فسار عمر معه إلى عمه، فكلمه فقال له: هو مملق وليس له ما يصلح به أمره فقال له عمر: وكم الذي تريده منه؟ قال: أربعمائة دينار، فقال له عمر: هي علي فزوجه، ففعل ذلك.

وقد كان عمر حين أَسَنّ حلف أن لا يقول بيت شعر إلّا أعتق رقبة فانصرف عمر إلى منزله يحدث نفسه فجعلت جاريته تكلمه فلايرد عليها جواباً. فقالت له: إن لك لأمراً وأراك تريد أن تقول شعراً فقال:

تـقـول ولـيـدتـي لـمـا رأتـنـي
طـربـت وكـنـت قـد أقـصـرت حـيـنـا





أراك اليوم قد أحدثت شوقاً
وهاج لك الهوى داء دفينا

وكنت زعمت أنك ذو عزاء
إذا ما شئت فارقت القرينا

بربك هل أتاك لها رسول
فشاقك، أم لقيت لها خدينا

فقلت شكى إليّ أخ محب
كبعض زماننا إذ تعلمينا

فقص علي ما يلقى بهند
فذكر بعض ما كنا نسينا

وذو الشوق القديم وإن تعزى
مشوق حين يلقى العاشقينا

وكم من خلة أعرضت عنها
لغير قلا وكنت بها ضنينا

ooooo

الرسول يقول للنابغة الجعدي:

لا فض الله فاك!!

ومما يستدل به على أن النبي صلوات الله وسلامه عليه لا ينكر الشعر وإنما يستمع إلى جيده ويلقي أذناً لحسنه ما جاء في الأثر من أن النابغة الجعدي واسمه عبد الله بن قيس بن جعدة بن كعب بن ربيعة. ويكنى أبا ليلى أنشد رسول الله ﷺ هذا البيت:

بلغنا السماء مجداً وسؤدداً
وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال له الرسول ﷺ: إلى أين يا أبا ليلي؟ فقال: إلى الجنة يا رسول الله. قال الرسول الله: نعم إن شاء الله. ثم مضى النابغة مسترسلاً في إنشاده، فلما قال:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له
بوادر تحمي صفوه أن يكدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له
حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فاستوقفه النبي ﷺ وقال له: لا فض الله فاك. فكان إذا سقط له سن نبت مكانها أخرى. وقيل: بل عاش ثلاثمائة عام ولم تسقط له سن حتى مات. أما الأبيات التي تقدم ذكرها فهي من قصيدة طويلة للنابغة الجعدي كان مطلعها:

خليلي عوجا ساعة وتهجرا
ولو ما على مما أحدث الدهر أو ذرا



وتجزعا إن الحياة ذميمة
فخفا لروعات الحوادث أو قرا

وإن جاء أمر لا تطيقان دفعه
فلا تجزعا مما قضى اللّه واصبرا

وفيها يقول:

أتيت رسول اللّه إذ جاء بالهدى
ويتلو كتاباً كالمجرة نيرا

وفيها يقول:

ونحن أناس لا نعوّد خيلنا
إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا

○○○○○

من صفات جهنم

والآيات التي ورد فيها ذكر الجحيم، والنار، وجهنم ، وسقر، التي أعدها الله لكل مجادلٍ له ولرسوله. . . كثيرة جداً منها قوله تعالى في سورة التوبة آية ٦٣ : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

وقد جعل شراب وأكل أهل جهنم من الزقوم، قال تعالى في سورة الصافات الآية ٦٢ ـ ٦٨ : ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾.

وقد ورد ذكر صفة الزقوم في قوله ﷺ: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معائشهم فكيف من يكون ذلك طعامه».

وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «يخرج عنق من النار يوم القيامة وله عينان ينظران وأذنان يسمعان، ولسان ينطق، ويقول: إني وكلت بثلاث، بكل جبار عنيد. وبكل من يدعو مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين». فأف لمن كذب وخادع وكابر وبغى وتجبر وطغى، وقال: أنا. اقتداء بما قاله القرآن الكريم على لسان فرعون في قوله تعالى في سورة النازعات ٢٤ : ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ من مشهد يوم عظيم يقول الله سبحانه وتعالى لمن خالف أمره وامتهن حرماته وأنكر صفاته، وأشرك معه غيره ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨].

ويقول تعالى في سورة الأحقاف آية ٣٤: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾، شعر لأحدهم في ذكر صفة جهنم:

بها غلاظ شداد من ملائكة
قلوبهم شدة أقسى من الحجر

فيها الحميم مذيب للوجوه معاً
للأشقيا شديد الوهج والضرر

فيها الغساق شديد البرد يقطعهم
إذا استغاثوا يغاثوا ثم يستعر

فيها العقارب والحياتُ قد ركبت
جلودهم كالبغال الدهم والحمر

فيها السلاسل والأغلال تجمعهم
مع الشياطين قهراً جمع منقهر

لهم طعام من الزقوم يعلق في
حلوقهم شوكة كالصاب والصبر

سوداء مظلمة قتماء موحشة
دهماء محرقة لواحة البشر

أعاذنا الله منها ثم عوّضنا
بجنة الخلد بين الروض والزهر

○○○○○

وأين

وتهتز مشاعر الشعراء الذين يصدقون في انتماءاتهم. ويغمرهم إحساس بما يلم بمن تجمعهم بهم بوتقة الانتماء العقيدي من ألم أو ظلم أو فجيعة.

ونتيجة لصدق الانتماء يكون الوقع على نفوس الشعراء بما يحس به من ينتمون إليهم شديداً ومؤلماً تماماً مثل من يباشر ذلك الألم كيف لا ونحن نرى الأقلام تهب جميعاً لنجدة أي مظلوم له انتماء بأصحابها.

أما الانتماء إلى الدين الإسلامي فهو فوق كل انتماء، والانتماء إلى اللسان العربي أقوى من كل انتماء. ولهذا جاء الحديث الشريف معبراً عن صدق انتماء المسلمين فعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»، رواه مسلم.

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» رواه مسلم.

وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلمون كرجل واحد. إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله». وعنه أيضاً رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» رواهما مسلم.

والشاعر عبد المطلب، واسمه محمد بن عبد المطلب بن واصل بن بكر ينتهي نسبه إلى جهينة يدفعه الانتماء الإسلامي والعربي كغيره من



الشعراء الإسلاميين إلى نظم قصيدة طويلة عندما قامت الحرب بين الترك وإيطاليا بطرابلس الغرب وكانت القوة من الطرابلسيين وكان الترك مدبرين فقط، وقد أفرغ فيها ما جاشت به نفسه من أحزان على أهل طرابلس، ويستثير فيهم الحماس بتساؤله عما كان معهوداً فيهم من شدة عند لقاء الأعداء، ومن وفاء وكرم وتفاني في سبيل الكرامة وقد صدر عدة أبيات متوالية منها بكلمة «وأين». منها قوله:

وأين النفوس اللائي كن إذا دعا
إلى الله داعي الموت في الموت ترغب

وأين الجياد اللائي كن إذا عاد الـ
مثوّب خيل اللّه للّه تركب

وأين الليوث الغلب في كل مرقب
يهول العدا منها رُبوض ووثب

وأين بنو الغارات يبتدرونها
وجند المنايا حولها يتكوكب

وأين قلوب يشهد الصخر أنها
غداة الوغى منه أشد وأصلب

وأين الحلوم الراجحات إذا عرا
سني الرشد من ليل الحوادث غيهب

وأين الوجوه الصبح والدهر ساهم
وبيض الظبي بالهام تلهو وتلعب

وأين العطاء الجم في كل عسرة
يمر بها عام من المحل أشهب

والقصيدة طويلة جداً فهي تبلغ نحواً من مائة وأربعة أبيات.

البقاء على الظلم والإقلاع عنه

إن جميع الأنفس تكره الظلم وتمقته. حتى نفس الظالم تحاربه وتتضجر حين وقوعه عليها، ولكن متى يخالجها الشعور بمرارته وبشاعة تجرعه؟. والإجابة على هذا السؤال هي إجابة قطعية تتمثل في أنه إذا ما وقع الظالم في قبضة من هو أظلم منه فإنه عندئذ يتحول إلى متضرع ومستصرخ. يستنصر بالضعيف والقوي والصغير والكبير، ويلتمس الخلاص على يد أي فئة. ويتحسس الخروج بحركات كلها تذلل وخنوع، ويستعطف بكل أساليب التوسل والترحم.

والغريب في الأمر أن بعض أولئك الظلمة ينسى مرارة الظلم التي تجرعها على يد من هو أظلم، ويمضي في ممارسة الظلم ومزاولة أنواعه في عباد الله وكأنه لم يمر به ولم يذق بشاعته ومرارة طعمه.

أما البعض الآخر فإنه يتعظ ويرتدع إما لشعور نفسي ذاق طعمه وكره أن يتذوقه الناس على يده. وإمَّا لوازع ديني تفرغ قلبه له واستبدل مكان الظلم فيه بالرأفة والشفقة والعطف. وحل الخوف من عرضه على ربه على لسان من ظلمه في صدره فأقامت الخشية من الدعاء عليه مقام الرغبة في الدعاء له. روى المبرد في كتابه «الكامل»: أن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس قد أخذ غلاماً من جعفر بن علي بن الحسين فقال جعفر: ياهذا: إن الرجل ينام على الثكل ولا ينام على الحرب. فإما رددته، وإما عرضت اسمك على الله في كل يوم وليلة خمس مرات، وفيما يقرب من موضوع هذه الحكاية القصيرة من الشعر، قول عمر بن الورد:

إياك من عسف الأنام وظلمهم
واحذر من الدعوات في الأسحار

وقوله:

أطل افتكارك في العواقب واجتنب
أشياء محوجة إلى الأعذار

وقول أسامة بن منقذ:

وليس تلقى دعوة المظـ
ـلوم دون اللّه ستر

فخف اللّه فما تخـ
ـفى عليه منه سرّ

يجمع الظالم والمظـ
ـلوم بعد الموت جسر

حيث لا يمنع سلطا
ن ولا يسمع عذر

بعض ما فيه من الأهـ
ـوال فيه لك زجر

ويقول الكاظمي:

ومهما يطل عمر المظالم في الورى
فأطول أعمار المظالم أقصر

○○○○○

الكسعي يندم على تحطيم قوسه

جاء في كتاب «مجمع الأمثال» لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني أن الكسعي رجل من كسع واسمه محارب بن قيس. وقال غيره: هو من بني كسع من بني محارب واسمه غامد بن الحرث. ومن حديثه أنه كان يرعى إبلاً له بواد معشب فبينما هو كذلك إذ أبصر نبعه في صخرة فأعجبته فقال: ينبغي أن تكون هذه قوساً فجعل يتعهدها حتى إذا أدركت قطعها وجفّفها فلما جفت اتخذ منها قوساً ثم دهنها وخطمها بوتر ثم عمد إلى مكان برايتها فجعل منها خمسة أسهم، ثم خرج حتى أتى قترة على موارد حمر فكمن فيها. فمرّ قطيع منه فرمى عيراً منها فأمخطه السهم أي أنفذه فيه وأصاب الجبل فأورى ناراً فظن أنه أخطأه ثم مكث على حاله فمر قطيع آخر فرمى منها عيراً فأمخطه السهم وصنع صنيع الأول. ثم مكث على حاله فمر قطيع آخر فرمى منها عيراً فأمخطه السهم وصنع صنيع الثاني، ثم مكث فمر قطيع آخر فرمى عيراً منها فصنع صنيع الثالث. ثم مرّ به قطيع آخر فرمى عيراً منها فصنع صنيع الرابع. ثم عمد إلى قوسه فضربها حجراً فكسرها، ثم بات، فلما أصبح نظر فإذا الحمر مطروحة حوله مصرّعة وأسهمه بالدم مضرجة، فندم على كسرها. فشد على إبهامه فقطعها وأنشأ يقول:

ندمت ندامة لو أن نفسي
تطاوعني إذاً لقطعت خمسي

تبين لي سفاه الرأي مني
لعمر أبيك حين كسرت قوسي



ومن صور الندامة التي جاءت في بعض الأشعار قول أحدهم:

وما مرّ يوم أرتجي فيه راحة
فأخبره إلا بكيت على أمسي

وقول الأفوه:

المرء ما تصلح له ليلة
بالسعد تفسده ليالي النحوس

ويقول عبد الرزاق عتيق:

والأماني التي صبوت إليها
صيرتها يد الزمان بعكسي

وقوله:

ففؤادي على المآسي مقيم
وحيالي مما به غير مرسي

وقوله:

والأماني التي بنفسي عادت
شرداء بين الجوانح حبس

ويقول أبو فراس الحمداني:

المرء رهن مصائب لا تنقضي
حتى يوارى جسمه في رمسه

○ ○ ○ ○ ○

اليوم

واليوم هي كلمة استخدمها الشاعر رشيد مصوبع مطلعاً لأحد عشر بيتاً ضمن قصيدة له امتدح بها السلطان العثماني عبد الحميد وقد بلغت أبيات تلك القصيدة نحواً من ستة وعشرين بيتاً.

وتجدر الإشارة إلى أنني قد رصدت الكثير من هذا النوع أعني من نوع الأبيات التي يستهلها شعراؤها بكلمة أو جملة معينة ويبلغ عددها بالتوالي سبعة أو ثمانية أبيات، وقد أدرجتها من بين موضوعات الجزء الثالث من كتابي هذا «الأدب المثمن» وقد بلغ عددها نحواً من ثلاثين موضوعاً.

والكلمة أو الجملة التي تتكرر في صدور أبيات متوالية تُعَدّ عند بعض الشعراء ظاهرة تتيح لناقد قصائدهم التي تتضمن مثل تلك الأبيات المجال الذي يحتمل اتهامهم بضحالة الفكر وضعف القريحة الشعرية. وانخفاض مستوى الأسلوب البلاغي. وعدم تذوق البديع من العبارات.

وقد لا يكون في تصدير عدة أبيات بكلمة أو جملة معينة مأخذ على فئة من الشعراء خاصة إذا تبين أن الهدف من تكرار الكلمة أو الجملة هو التأكيد على سلوك منهج، أو التصميم على تأدية فعل. أو الإشارة إلى شيء ذا أهمية أو ما إلى ذلك مما يجب التنبيه إليه. ومن الطبيعي أن الشاعر الحاذق المسيطر على الكلمة الشاعرة، والمتمكن من المنهج الشعري يوحي للناقد من خلال شاعريته بضرورة التكرار فيصرفه بسحر بيانه عن التفكير في اعتبار التكرير مدخلاً لنقده.

أما الشاعر رشيد مصوبع فقد كرر كلمة «اليوم» في القصيدة التي



سبقت الإشارة إليها فجاءت الأبيات التي صدرها بـ «اليوم» على النحو التالي:

اليوم هلت عيون الشعب من فرح
حتى استجار بقلب منه فرحانا

اليوم أوشك ينسى من مسرته
ما ليس يقبل نسياناً وسلوانا

اليوم تنظر فرقاً بين مملكة
مضت ومملكة قد جاءت الآنا

فاليوم تنظر ورق الأمن صادحة
فيها تشنف للقصاد آذانا

واليوم تنظر بدر المجد مزدهراً
فيها وتنظر غصن العز ريانا

واليوم تنظرها من بعد ما محلت
يهدى لجينا لأهليها وعقبانا

واليوم تنظر فيها السيف ممتشقاً
فليس يرهب سيفا مثلما كانا

واليوم يأخذ ذاك الغرب في خجل
منا وقد كان منه الشرق خجلانا

○ ○ ○ ○ ○

ماذا يقول لسان حال اللحية المحلوقة؟!!

ما قرأت وصفاً لمسلم حقيقي من مسلمي العصور الماضية يدل على أنه حليق اللحية، بل إنه يوصف بأنه كث اللحية أو طويلها أو كثير الشعر أو ما إلى ذلك من الأوصاف التي تقرب لك صورة المسلم وتجعلك كأنك تراه أمامك بهيئة ووقارة، وقد وصف النبي ﷺ بأنه كان ذو لحية كثيرة الشعر.

والتمسك بإكرام اللحية جاء استجابة للأحاديث النبوية الصحيحة، فقد روى البخاري ومسلم أن الرسول الله ﷺ قال: «خالفوا المشركين وفِّروا اللحى وأحفوا الشوارب».

وروى مسلم أنه ﷺ قال: «خالفوا المجوس لأنهم كانوا يقصّرون لحاهم ويطولون الشوارب».

وعن الأئمة: مسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، أنه ﷺ قال: «عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظافر، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء». وقوله: «البراجم» يعني: عقد الأصابع ومفاصلها، وقيل: هو مما يجتمع فيه الوسخ كأذن وأنف، وقوله: انتقاص الماء، كناية عن الاستنجاء بالماء.

وروى مسلم عن ابن عمر أنه قال: «أمرنا بإحفاء الشوارب، وإعفاء اللحية».





وقد صدّر الأستاذ عبد الكريم الجهيمان موضوعاً عنوانه: «محاورة طريفة بين ذي لحية ومحلوقها» بأبيات قالها الشاعر على لسان لحية تؤنب صاحبها على حلقه لها، ولم ينسب الجهيمان الأبيات لنفسه ولا إلى شخص آخر. ولمناسبتها للموضوع رأيت إيرادها مناسباً، فهذه هي الأبيات:

أيها القوم أخبروني بذنبي
لِمَ أبلى منكم بحلق المواسي؟

أفما كنت في القرون المواضي
لا أزول ولو تزول الرواسي؟

أفما كنت فوق أكرم خلق
اللّه ذاك النبي خير الأناسي؟

أفما حذر النبي عن الحلـ
ق لما فيه من بلى وانتكاسي؟

حدثوني عن أي ذنب حلقتو
ني فإني مجدة في المراسي؟

ألأني على الرجولة عنوا
ن وأني زين لدى الجلاسي

ألأني خشونة وتريدو
ن ليوناً تباً لكم من أناسي؟

لست أدري لكنني في يقين
أنكم قد وقعتمو في التباسي؟

○ ○ ○ ○ ○

لا إله إلّا الله

لا إله إلا الله، كلمة توحيد وتقوى، يدخل بها الكافر في الإسلام ويَتَحَّول من حال إلى حال، ومنها ينطلق إلى الشهادة برسالة محمد، ويصبح أخا للمسلم بعد أن كان عدواً له وبرفضها أو بإنكارها يكفر الإنسان ويخرج من دائرة الإسلام ويكون عدواً لدوداً يجب اعتزاله ونبذه.

و«لا إله إلا الله» فيها نفي وإثبات: فلا إله تنفي جميع ما يعبد من دون الله، وإلّا الله تثبت التفرد والوحدانية لله سبحانه وتعالى فهي: كلمة فاصلة وحد قاطع بين الإسلام والكفر، وهي عصمة لدم الإنسان وماله حيث لا يستباح دم ومال المتلفظ بها، وهي مطلب كل رسول من قومه.

وكم كان حرص النبي ﷺ على أن يقولها عمه أبو طالب، ففيما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال رسول الله ﷺ: «يا عم، قل: لا إله إلا الله. كلمة أشهد لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟. فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب. وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣﴾ [التوبة: ١١٣].

وأنزل الله تعالى في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦].

وللشاعر الصنعاني رحمه الله إبداع في تضمين لا إله إلا الله في منظومة طويلة جعل أكثر عجز كل بيت منها ينتهي بـ«لا إله إلا الله» منها قوله:

العلم في قول لا إله إلا الله
فاخلص وقل لا إله إلا الله

تظفر بما شئت إن نطقت بها
فالخير في قول لا إله إلا الله

كل من الأنبياء مطلبه
من قومه لا إله إلا الله

يحقن دم الكافرين قولهم
إن وفقوا لا إله إلا الله

ويعصم المال والبنين معاً
بقولهم لا إله إلا الله

يفتح باب السماء إذا صعدت
من قائل لا إله إلا الله

تهدم كل الذنوب إذا رفعت
لقائل لا إله إلا الله

يغسل ما في القلوب من درن
بقولنا لا إله إلا الله

والمنظومة أطول من ذلك فقوامها ستة وعشرون بيتاً، وهي موجودة في ديوان الصنعاني.



فهرس الجزء السادس